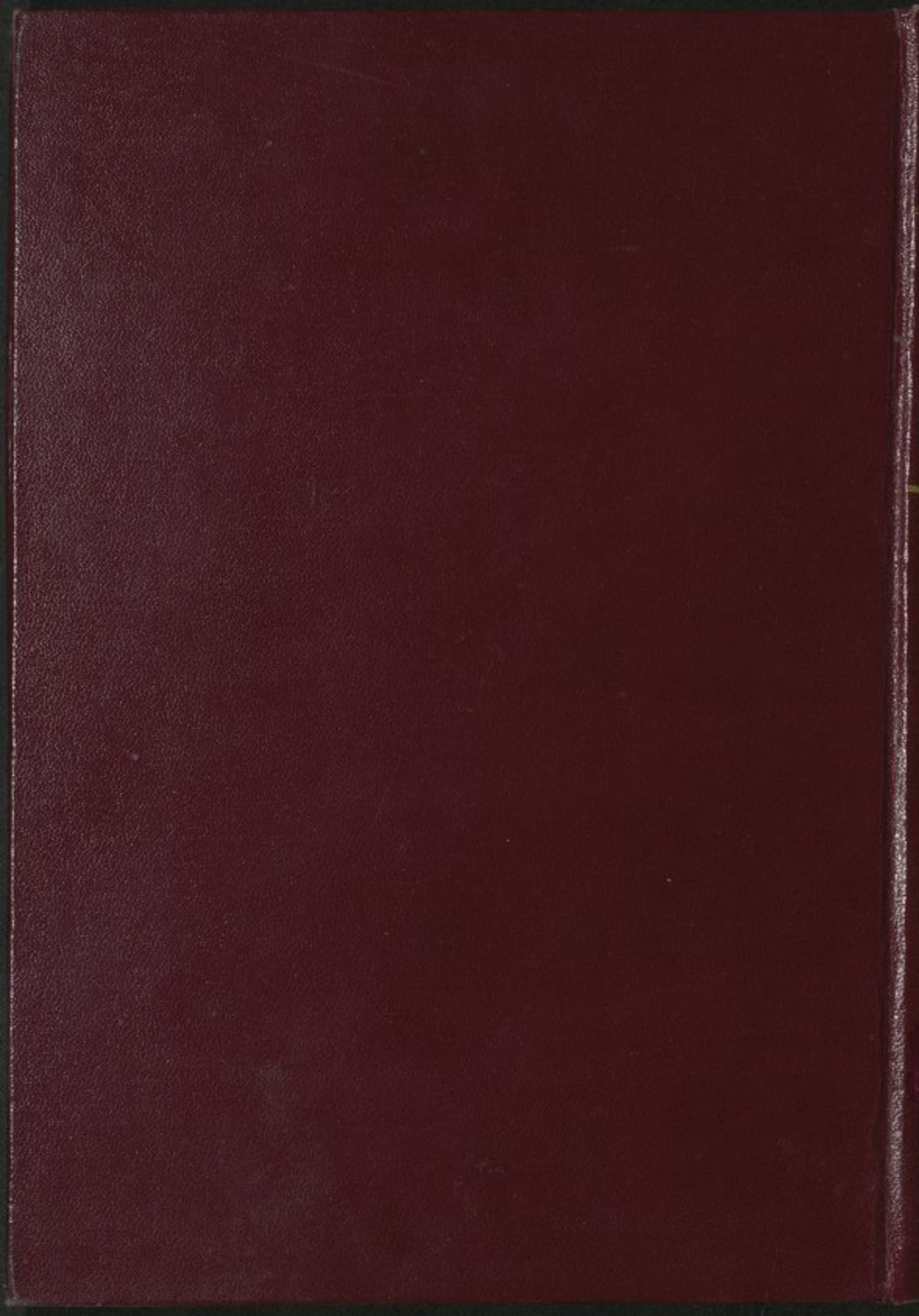


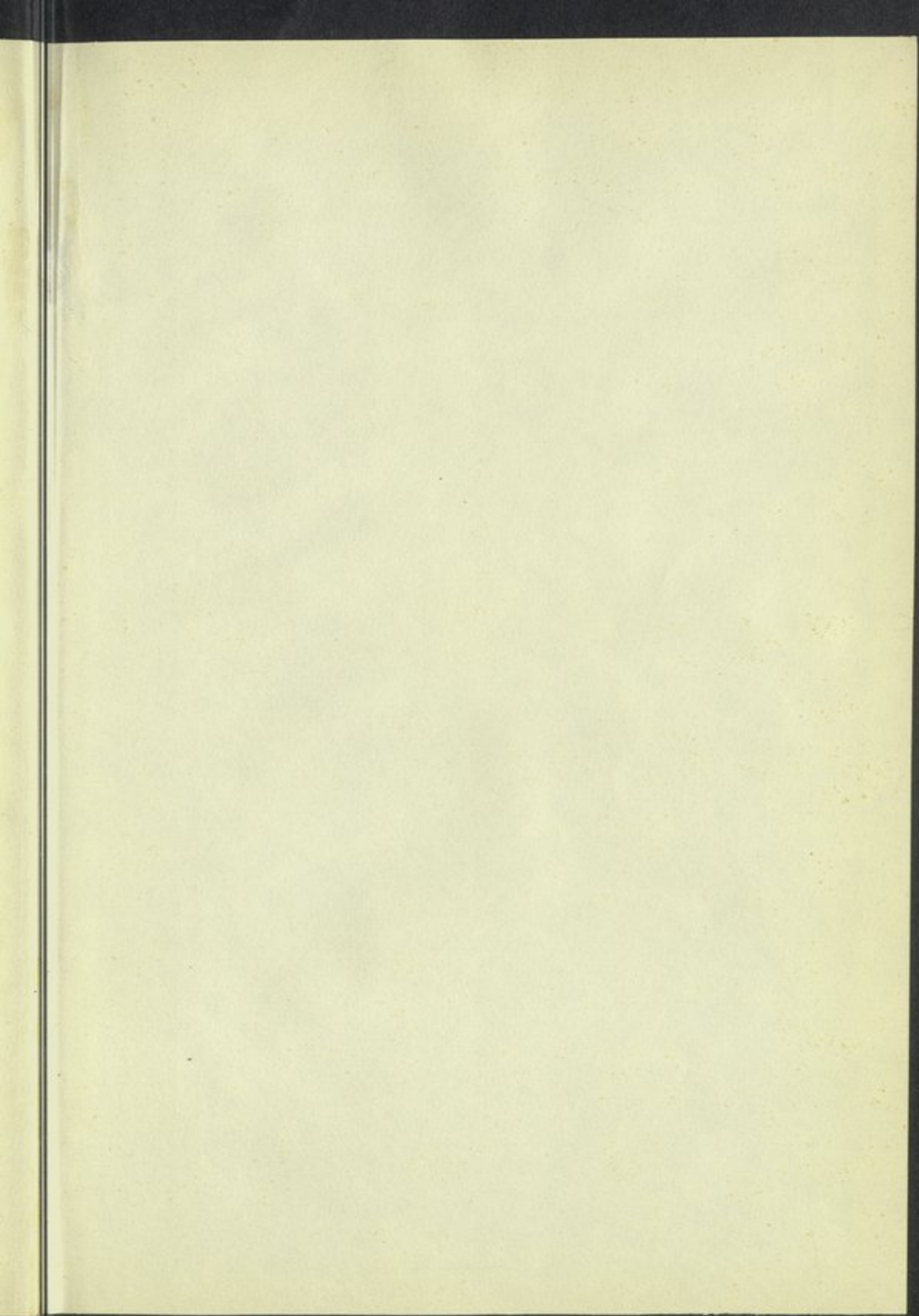


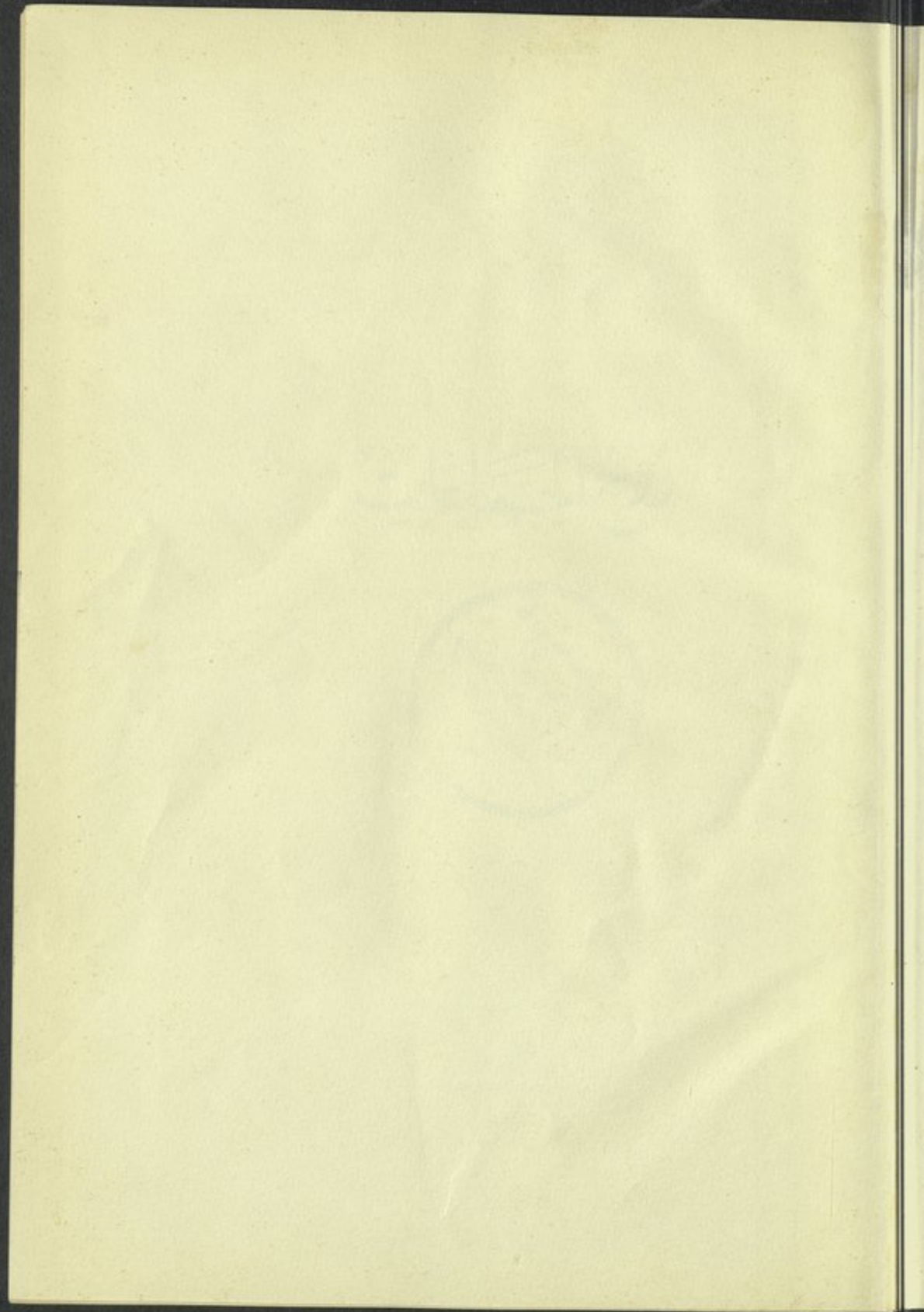
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

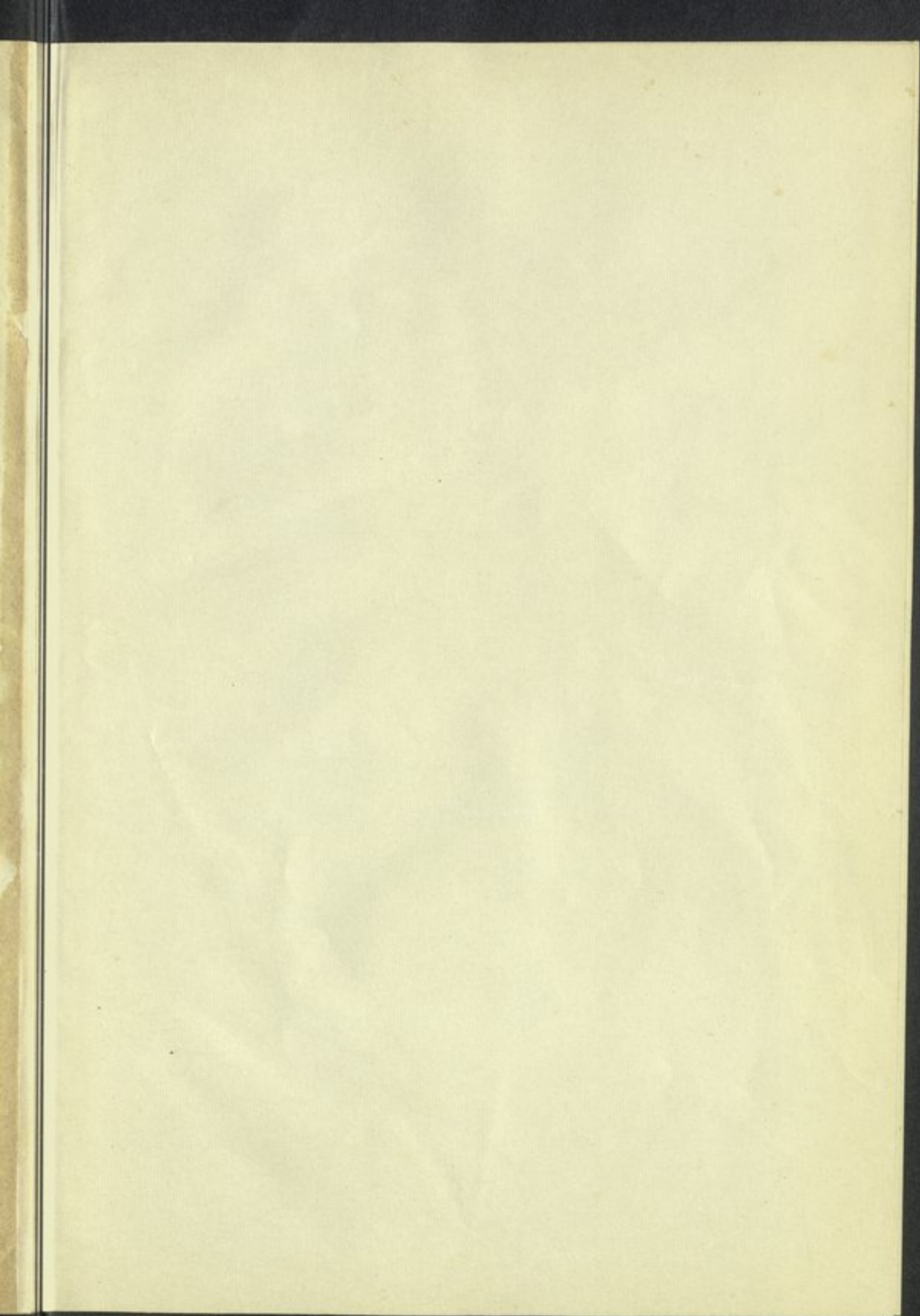


A.U.B. LIBRARY

مجلد صالح الذكر
تاريخ ٧٢٦٧







رُوحُ الْجَمَاعَاتِ



Cat. Dec. 51

A 5.

301
L447p2tA

رُوحُ الْجَمَاعَاتِ

تأليف
الذَّكْوَرُغُوسْتِيَا فُلُوْيُون

نقله إلى العربية
عَادِلُ زُعَيْتَر



77874

مكتبة مصر
دار المعارف بمصر

١٩٥٠

Cat. Dec. 51



إهداء الكتاب

إلى

تيودور ريبو

مدير المجلة الفلسفية

وأستاذ علم النفس في كلية فرنسا (كوليج دوفرانس)

والعضو في المجمع العلمي

مع الاحترام الودّي

غوستاف لوبون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

والصلاة والسلام على

سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

(رسالة في بيان فضيلة صلاة ركعتين في وقت الضحى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

والصلاة والسلام على

مقدمة المترجم

يسيح الفيلسوف الاجتماعي غوستاف لوبون في الأرض كثيراً فيضَع في سنة ١٨٨٤ كتابه الخالد « حضارة الغرب » ، ويضع في سنة ١٨٨٧ كتابه الخالد « حضارات الهند » ، وفي سنة ١٨٨٩ يُعزّزها بثالث ، يُعزّزها بكتاب « الحضارات الأولى » ، وترجم السّفرين الأولين اللذين هما أهم من السّفر الثالث ، ومن السّفر الثالث هذا ننقل إلى العربية الجزء الخاص باليهود ، وهو أطرف أجزائه .

وفي تأليف تلك الكتب يعتمد لوبون على ما لا حَظَّ وَتَرَصَّدَ في رحلاته ، ومن تلك الكتب ، على الخصوص ، يستنبط ما بدا له من سُنَنِ الاجتماع فيضَع في سنة ١٨٩٤ كتاب « السُّنَنِ النفسية لتطور الأمم » ، ويضَع في سنة ١٨٩٥ كتاب « روح الجماعات » ، وفي كلا الكتائين يتحرر لوبون من جميع المذاهب الاجتماعية فينتهي إلى نتائج مخالفة لما ألفه العلماء من المبادئ والآراء فيَعِدُّ ، بحقِّ ، مُجَدِّداً في علم النفس وعلم الاجتماع ، إماماً مُوجِّهاً فيهما .

ولا مرآء في عبقرية لوبون ، وهو قد عالج جميع الموضوعات التي تناولها بالبحث في كتبه ببراعة ودقة ، فوصل إلى حقائق رائعة ، ولوبون قد امتاز في ذلك بمعرفته للإنسان وتعبيره عما يُوحى به العقلُ والذوق السليم من المناحي ، ولوبون قد ظهر في كلِّ ما كَتَبَ مبتكراً حُرَّ الفكر مستقلاً لَبِيقاً إلى الغاية ، ولذلك كان من الصواب

أن قيل : « لا جدال في أن لوبون أعظمُ عالمِ نفسٍ فرنسيٍّ في الزمن الحاضر ، بما تذرعه به من صبر وما اتفق له من بصيرةٍ نفذ بها روح العصر » .

وفي كتاب « روح الجماعات » يقول لوبون : « تتألف روحُ أحد الشعوب من مجموع الأخلاق العامة التي فرَضَتْها الوراثة على جميع أفرادها ، ولكن المشاهدة تُثبت أن أناساً إذا ما انضموا إلى أناس فتألف منهم جمعٌ نشأت عن تدانيهم أخلاقٌ جديدة تنمّض على أخلاق الشعب وتختلف عنها اختلافاً كبيراً في بعض الأحيان » .

ومن ثمّ ترى أن لوبون يحدّد روحاً للشعوب ويحدّد روحاً للجماعات ، ولوبون قد وَضَعَ لكلٍّ منهما كتاباً مستقلاً فجعل عنوان الأول « الشُّن النفسية لتطور الأمم » وجعل عنوان الثاني « روح الجماعات » .

ويرى لوبون أن العصر الحاضر هو عصر الجماعات فيبحث في كتاب « روح الجماعات » في خصائص الجماعات ، وفي وحدتها النفسية ، وفي مشاعرها وأخلاقها وأفكارها وتعلقاتها وخيالها وآرائها ومعتقداتها وزعمائها وما يتخذه هؤلاء الزعماء من طُرُق في الإقناع .

وكتاب « روح الجماعات » لِمَا له من خُطورة عظيمة اتفق له من الأثر البالغ في أقطاب السياسة ما قال معه عظيم^(١) منهم مخاطباً الفرنسيين : « لديكم في الحقل الفلسفي والعلمي رجالٌ تُفاخر البشرية بهم كثيراً كغوستاف لوبون الذي قرأت جميع كُتبه ، ومما لا يُحصى عددُ المرات التي طالعتُ فيها كتابه « روح الجماعات » فكنتُ أُرْجِع إليه في الغالب » .

وأروغُ كُتب لوبون الاجتماعية هو ما وضعه قبل الحرب العالمية الأولى ،

وما وضعه لوبون بعد تلك الحرب فقد اعتمد فيه على مؤلفاته السابقة مكرراً ما جاء فيها من المبادئ والنظريات ، وقد نقلنا إلى العربية معظم تلك المؤلفات ، ولا سيما « حضارة العرب ، وحضارات الهند ، واليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، وروح التريبة ، وحياة الحقائق ... » فرأينا أن نُنمِّع عملنا فنترجم كتاب « الشَّئْنُ النفسية لتطور الأمم » وكتاب « روح الجماعات » أيضاً ، وهذا ما قمنا به فعلاً ، فبذلك نكون قد أدخلنا إلى المكتبة العربية أمهات كتب لوبون التاريخية والاجتماعية والنفسية .

وكان لوبون قد وَضَعَ كتاب « الإنسان والمجتمعات وتاريخهما وأصولهما » في مجلدين قبل سياحاته العظيمة ، وقبل تأليفه كتاب « حضارة العرب » وغيره من كتب الحضارات ، فاستند في كتب الحضارات هذه إلى بعض القواعد المقرَّرة في ذلك الكتاب ، وقد كنا راغبين في ترجمة ذلك الكتاب ، أيضاً ، لو لم نَرَ أن لوبون غيَّر كثيراً من آرائه وأفكاره فيه بعد رحلاته تلك وعند تأليفه للكتب التي نقلناها ، وفي هذه الكتب المترجمة ، ومنها كتاب « الشَّئْنُ النفسية لتطور الأمم » على الخصوص ، تجد عَرَضاً وتلخيصاً لما في كتاب « الإنسان والمجتمعات » ذلك من مبادئ مُعَدَّلَةٍ ، فلا اضطرار إلى ترجمته إذن .

وفي سنة ١٩٠٩ يترجم المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا كتاب « روح الجماعات » هذا بعنوان « روح الاجتماع » ، والموضوعات الاجتماعية كانت في ذلك الحين ، كما هي الآن ، غير مطروقة كثيراً ، ونقابل بين الأصل الفرنسى وتلك الترجمة فنجد أن زغلول باشا ، وإن بذل جهداً مشكوراً في المحافظة على المعانى ، لم تخلُ ترجمته تلك من التجاوز والعجمة والغموض ، فلذلك ، ولنفاد ما طبعه زغلول باشا

من نُسَخ ترجمته ولما وَجَدْتُ من ضرورة ترجمة كتاب «روح الجماعات» ترجمةً
تساوق هي وما ترجمته من كتب لوبون في السنوات الأخيرة على الخصوص معتمداً
على النص الفرنسي الأخير الذي تُوَفِّي لوبون مُعَوِّلاً عليه ، نقلتُ هذا الكتاب
النفيس على الوجه الذي أُعْرِضَ به على القراء ، والله الموفق .

عادل زعيتر

• نابلس •

دِيْبَاچَةُ الْمُؤَلَّفِ

كان كتابنا السابق وَقْفًا على وصف روح الشعوب ، والآن ندرس روح الجماعات .
تتألف روح أحد الشعوب من مجموع الأخلاق العامة التي فرضتها الوراثة على
جميع أفرادها ، ولكن المشاهدة تُثَبِّت أن أناسًا إذا ما انضموا إلى أناس فتألف منهم
جَمْعٌ نشأت عن تدانيهم أخلاقٌ جديدة تَنَضَّد على أخلاق الشعب وتختلف عنها
اختلافًا كبيراً في بعض الأحيان .

والجماعاتُ مَثَلَتْ في حياة الأمم دوراً عظيماً على الدوام ، غير أنه لم يَتَّفِق لها من
التأثير ما تَتَّفَق لها في هذه الأيام ، وعملُ الجماعات اللاشعوريُّ ، وهو يقوم مقام نشاط
الأفراد الشعوريِّ ، يبدو من مُمَيِّزَات الجيل الحاضر الرئيسة .

وقد حاولتُ أن أعالج مُعْضِلة الجماعات بطرق علمية صُرْفَة ، أي بمنهاجٍ مستقلٍّ
غما هو دارج من الآراء والنظريات والمذاهب ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي
يُوصَل بها ، على ما أعتقد ، إلى اكتشاف شُذُور من الحقيقة ، ولا سيما عند تناول
المسائل التي تستهوي النفوس ، وليس على العالم ، وهو يَهْدِف إلى تحقيق إحدى
الحادثات ، أن يبالى بالمصالح التي يمكن مشاهدتها أن تصدِّمها ، ومما لاحظته المفكر
المفضل ، ميسيو غوبليه دالْقِيَّيْلا ، وذلك في رسالة حديثة ، أنني أخالف أحياناً
ما انتهت إليه جميع المذاهب من النتائج لعدم انتسابي إلى أيِّ واحد منها ، فأرجو أن

يستحقّ هذا الكتاب الجديد مثل تلك الملاحظة ، فانتحالُ أحد المذاهب يعني اعتناقَ أوهام هذا المذهب وأحكامه .

ومن الواجب أن أوضح للقارى ، فيما أوضحه ، علّة اختلاف نتائج مباحثي عن النتائج التي تؤدي إليها هذه المباحث أول وهلة ، وذلك كتحقيق ، مثلاً ، الانحطاط النفسى العظيم فى الجماعات ، ومن الجماعات مجالسُ الخواص ، ثم تصرّحى أن من انحطرت مسّ نظام الجماعات مع وجود ذلك الانحطاط .

يدلّ إنعام النظر فى الحوادث التاريخية على أننا نَعْجِزُ عن تحويل النظم الاجتماعية تحويلاً عميقاً لما هى عليه من التعقيد الشديد ، أجلّ ، تبدو الطبيعة جذريّة أحياناً ، ولكن لا كما نودُّ أبداً ، ولا يكون هوسُ الإصلاحات الكبيرة إلا من أشأم ما تعرّض له أمةٌ مهما ظهرت هذه الإصلاحات القوية طيبةً من الناحية النظرية ، وهذه الإصلاحات لا تكون نافعة إلا حين يَفْدُو من الممكن تغيير روح الأمم ، والحق أن الزمن وحده مثل هذا السلطان ، وما تشتمل عليه من الأفكار والمشاعر والطبائع هو المحرّكُ الحقيقى لنا ، والنظم والقوانين هى مظهر روحنا وعُنوان احتياجاتنا ، والنظم والقوانين إذ تصدُر عن النفس لا تقدِر على تغيير النفس .

ولا يمكن فصلُ دراسة الحوادث الاجتماعية عن دراسة الأمم التي تقع فيها هذه الحوادث ، وهذه الحوادث ، وإن أمكن أن تكون ذات قيمة مطلقة فلسفياً ، ليست غير ذات قيمة نسبية عملياً .

إذن ، يجب أن يُنظَر إلى الحادثة الاجتماعية الواحدة بالتتابع من ناحيتين مختلفتين ، وهنالك تبدو معارف العقل الخالص مناقضةً لمعارف العقل العملى فى الغالب ، ولا تجدُ من المعطيات ، حتى الفيزيائية ، ما يفسّر تطبيق هذا التفريق

عليه ، ومن ذلك أن المَكعَب والدائرة من حيث الحقيقة المطلقة رسمان ثابتان دقيقا التعريف ببعض الصيغ ، وأن هذين الرسمين من حيث باصرتنا قد يكتسبان أشكالا مختلفة ، ففنُّ التصوير يُحوِّل المَكعَب تحويلاً مؤثراً إلى هَرَم أو إلى مُرَبَّع ، وهو يُحوِّل الدائرة إلى إهليلج أو إلى خط مستقيم ، وتكون هذه الأشكال المُختلفة أكثر أهميةً بمرآحِل من الأشكال الحقيقية لسهولة الشعور بها وحدّها ، ويكون غيرُ الحقيقى أَصدقَ من الحقيقى فى بعض الأحوال ، ولا يؤدى تصوير الأشياء بأشكالها الهندسية تصويراً دقيقاً إلى غير تشويه الطبيعة وتكويرها ، ولو افترضنا وجودَ عالم لا يقدر سكانه على غير استنساخ الأشياء أو التقاط صُورها الفوتوغرافية من غير أن يستطيعوا مَسّها لوجدنا أنه يُعسر عليهم إدراك شكلها الحقيقى إدراكاً صحيحاً ، وإذا لا تكون معرفة هذا الشكل سائغة لسوى عدد قليل من العلماء فإنها تكون ذات نفع ضئيل جداً .

وعلى الفيلسوف ، حين يَصِفُ الحوادث الاجتماعية ، أن يذكُر قيمتها العملية بجانب قيمتها النظرية ، فالقيمةُ العملية وحدّها هى التى تكون على شىء من الأهمية فى تطور الحضارات ، وتحقيق مثل هذا مما يجعل الفيلسوف حَذِراً إلى الغاية فى النتائج التى يلوح أن المنطق العقلى يَفْرِضُها عليه فى بدء الأمر .

وهناك أسبابٌ أخرى تُنمِلُ عليه ذلك الحذر ، فالحوادثُ الاجتماعية هى من التّعقد ما يتعذر معه الاشتغال عليها كلّها والبصرُ بنتائج تفاعلها ، ومما يلوح أيضاً أنه يستتر خلف الحوادث الظاهرة ألوفُ العلل الخفية فى بعض الأحيان ، ويظهر أن الحوادث الاجتماعية الظاهرة هى وليدةُ عملٍ لاشعورى واسع لا يدخُلُ ضمن نطاق تحليلنا فى الغالب ، ويمكن تشبيه الحوادث المُدرَكة بالأمواج التى تأتى لتُعبّر فوق

سطح البحر المحيط عما ينطوى عليه من الاضطرابات العميقة ، والجماعات ، إذا ما نُظِرَ إليها من خلال عُمُومِيَّةِ أعمالها ، دَلَّتْ على مزاج نفسٍ مُنْحَطٍّ انحطاطاً يقضى بالعَجَب ، غير أن الجماعات أعمالاً أخرى تَنِمُّ على أنها مُسَيَّرَةٌ بما تَجَهَّلَ كُنْهَهُ ، ولا نَقْدِرُ على إنكاره ، من القُوَى الخافلة بالأسرار التي يسميها القدماء بالقَدَرِ والطبيعة والقدرة الصمدانية ، وَيَبْدُو ، أحياناً ، وجودُ قُوَى خَفِيَّةٍ في صدر الأمم تُوجِّهُ عزائمها ، وأىُّ شَيْءٍ ، مثلاً ، أَشَدُّ تَعَقُّدًا وأكثرُ منطقاً وأدعى إلى العَجَب من اللغة ؟ ومع ذلك من أين يَخْرُجُ هذا النظامُ البالغُ الحِكمةَ والعَظِيمُ الدقة إن لم ينشأ عن روح الجماعات غيرِ الشاعرة ؟ لم يَصْنَعْ أشهرُ المجامع اللغوية وأقدرُ النحويين سوى تدوين السُّنَنِ السائدة للغات بمشقةٍ مع العجزِ التامِّ عن إيجادها ، وهل نحن على يقين بأن ما يَصْدُرُ عن عبقرية أعظم الرجال من الأفكار هو من عملهم دون سواهم ؟ نَعَمْ ، تَصْدُرُ هذه الأفكار عن أناس معتزلين على الدوام ، ولكن أليست روح الجماعات هي التي أوجدت أُلُوفَ ذَرَّاتِ التراب التي تَأَلَّفَ منها ما نبئت فيه تلك الأفكار من غِرَيْنِ ؟

والجماعاتُ غيرُ شاعرةٍ على الدوام لاريب ، يَبْدُو أن هذا اللاشعور من أسرار قوتها ، وفي الطبيعة تَجِدُ موجوداتٍ خاضعةً للغريزة وحدها فتأتى أعمالاً يُشِيرُ تَعَقُّدُها الغريبُ عَجَبَنَا ، والعقلُ حديث عهد في البشرية ، والعقلُ من النقص مالا يزال معه عاجزاً عن اكتشاف سُنَنِ اللاشعور وعن القيام مقامه على الخصوص ، ونصيبُ اللاشعور عَظِيمٌ في جميع أعمالنا ، ونصيبُ العقل ضعيفٌ فيها إلى الغاية ، ويقوم اللاشعور بعمله كقوةٍ خافيةٍ بعدُ .

يجب علينا أن نقتصر ، إذن ، على ملاحظة الحوادث التي يسهل إدراكها إذا ما أردنا البقاء ضمنَ مألُومور من الحدود الضيقة الوثيقة التي يمكن العلمُ معرفتها راغبين عن الزَّلَل في ميدان الظنون المبهمة والافتراضات الباطلة ، فحلفَ الحوادث الواضحة توجد حوادثُ أخرى تكون رؤيتنا لها سيئة ، وخلفُ هذه الأخيرة قد توجد حوادثُ نجعلها جهلاً تاماً .

الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دلالة على قدرته وقوته
وأنه لا اله الا هو
العليم الغني

والله اعلم بالصواب
من امره وحكمه
والله اعلم
بما يشاء

والله اعلم
بما يشاء
والله اعلم
بما يشاء

والله اعلم
بما يشاء
والله اعلم
بما يشاء

المُقَدِّمَة عَصْرُ الْجَمَاعَاتِ

تطور الجيل الحاضر — تحولات الحضارة العظيمة هي نتيجة تحولات في أفكار الأمم — الاعتقاد الحديث بقدرة الجماعات — تحويل هذا الاعتقاد لسياسة الدول التقليدية — كيف يحدث سلطان الجماعات الشعبية وكيف تمارس سلطتها — النتائج الضرورية لسلطة الجماعات — لا تستطيع الجماعات غير المهدم — الجماعات هي التي تتم انحلال الحضارات الهرمة — الجهل العام لروح الجماعات — أهمية دراسة المشرعين وأقطاب السياسة للجماعات .

يظهر أول وهلة أن الانقلابات الكبيرة التي تسبق ما يعتبر الحضارات من تغير هي وليدة تحولات سياسية عظيمة كغزى الأمم وسقوط الأسر المالكة ، غير أن البحث الدقيق في هذه الحوادث يدل في الغالب على وجود تطور عميق في أفكار الأمم كعلمة حقيقية لها وراء عللها الظاهرة ، وليست الانقلابات التاريخية الحقيقية هي التي تدهشنا بعظمها وشدتها ، وإنما نرى أن التغيرات المهمة الوحيدة ، أي التي تتجدد بها الحضارة ، هي التي تنضج في الآراء والمبادئ والمعتقدات ، وأن الحوادث الجديرة بالذكر هي النتائج الظاهرة للتغيرات الخفية في مشاعر الناس ، وإذا كانت تلك الحوادث نادرة الوقوع فلأن الأساس الوريثي لمشاعر الشعب هو أكثر عناصر هذا الشعب ثباتاً .

والدور الحاضر هو من الأدوار الخطرة التي يكون الفكر الإنساني فيها صائراً إلى التحول .

ولذلك التحول عاملان أساسيان ، فالعامل الأول هو تلاشي ما تُشْتَقُّ منه جميع عناصر حضارتنا من المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية ، والعامل الثاني هو ظهور أحوال عيش وفكر تامة الجدة ناشئة عن مبتكرات العلوم والصناعة الحديثة .

وإذ لم تزل أفكار الماضي قوية جداً على ما أصابها من زعزعة ، وإذ كانت الأفكار التي يجب أن تقوم مقامها في دور التكوين ، كان العصر الحديث دور انتقال وفوضى .

وإذ ان دوراً كذلك هو دور بلبلة لم يكن من السهل أن يُنبأ بما يقع ذات يوم ، وعلى أي الأفكار الأساسية ستقوم المجتمعات التي ستعقب مجتمعتنا ؟ لا تزال الجبل ذلك ، غير أننا نستطيع أن نبصر منذ الآن أن على تلك المجتمعات أن تحفل في نظامها بسلطة جديدة ، أي بالحاكم الأخير في الجيل الحاضر ، أي بسلطة الجماعات ، فهذه السلطة وحدها هي السلطة القائمة التي يلوح أنها تزدد ، عما قليل ، جميع السلطات على أنقاض كثير من الآراء التي عُدَّت صحيحة فيما مضى ففدَّت اليوم ميتة وعلى أنقاض كثير من القوى التي قوّضتها الثورات بالتتابع ، وفيما ترى معتقداتنا القديمة تزنج فتغيب وفيما ترى أركان المجتمعات المُسِنَّة تتداعى واحداً بعد الآخر تجدد في عمل الجماعات القوة الوحيدة التي لا يهددها شيء والتي يعظم نفوذها على الدوام ، فالدور الذي ندخله سيكون عصر الجماعات حقاً .

كانت سياسة الدول التقليدية ومنافسات الملوك منذ نحو قرن عوامل أساسية للحوادث ، وكان لا يؤبه لراي الجماعات في الغالب ، وأما اليوم فحفَّت ميزان التقاليد السياسية ومناحي الملوك الشخصية ومبارياتهم ، وأضحى صوت الجماعات عظيماً ،

وَيُمَثِّلِي هَذَا الصَّوْتُ عَلَى الْمُلُوكِ سَيَرَتَهُمْ ، وَصَارَتْ مَقَادِيرُ الْأُمَمِ مُهَيَّأَةً فِي رُوحِ الْجَمَاعَاتِ ، لَا فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ .

وَيُعَدُّ ارْتِقَاءُ الطَّبَقَاتِ الشَّعْبِيَّةِ إِلَى حَظِيرَةِ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ وَتَحَوُّلُ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ بِالتَّدْرِيجِ إِلَى طَبَقَاتٍ قَائِدَةٍ مِنْ أَبْرَزِ مَا يَتَصَفَّ بِهِ دَوْرُ الْإِنْتِقَالِ الْحَاضِرِ ، وَلَمْ يَكُنِ التَّصْوِيتُ الْعَامُّ آيَةً ذَلِكَ الصُّعُودِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَالتَّصْوِيتُ الْعَامُّ قَدْ ظَلَّ قَلِيلَ التَّأْثِيرِ طَوِيلَ زَمَنِ سَلَسِ الْقِيَادِ فِي الْبَدْءِ ، وَإِنَّمَا نَشَأَ سُلْطَانُ الْجَمَاعَاتِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَنْ ذِيوعِ بَعْضِ الْآرَاءِ الَّتِي رَسَخَتْ فِي النُّفُوسِ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ثُمَّ عَنْ تَشَارِكِ الْأَفْرَادِ تَشَارِكًا تَدْرِيجِيًّا مُؤَدِيًّا إِلَى تَحْقِيقِ مَا هُوَ نَظَرِيٌّ مِنَ الْمُبَادِئِ ، وَالتَّشَارِكُ أَعَانَ الْجَمَاعَاتِ عَلَى اتِّخَاذِ أَفْكَارٍ مُقَرَّرَةٍ فِي مَصَالِحِهَا عَلَى الْأَقْلَى ، إِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ صَائِبَةً إِلَى الْغَايَةِ ، كَمَا أَنَّ التَّشَارِكَ أَعَانَ الْجَمَاعَاتِ عَلَى الشُّعُورِ بِقُدْرَتِهَا ، وَالْجَمَاعَاتُ نَقَابَاتٌ تَدْعُنَ لَهَا جَمِيعَ السُّلْطَاتِ ، وَالْجَمَاعَاتُ تُؤَلِّفُ جَمِيعَاتٍ لِلْعَمَلِ فَتَهْدَفُ هَذِهِ الْجَمِيعَاتُ إِلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى الْعَمَلِ وَالْأَجُورِ خِلَافًا لِسُنَنِ الْاِقْتِصَادِ ، وَالْجَمَاعَاتُ تَبْعَثُ إِلَى الْمَجَالِسِ الْحُكُومِيَّةِ نَوَابِغًا عَاطِلِينَ مِنْ كُلِّ مَبَادِرَةٍ وَاسْتِقْلَالِ رَاضِينَ بِأَنْ يَكُونُوا فِي الْغَالِبِ أَبْوَاقًا لِلْجَانِ الَّتِي اخْتَارَتْهُمْ .

وَالْيَوْمَ تَبْدُو مَطَالِبُ الْجَمَاعَاتِ أَوْضَحَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَتَمِيلُ إِلَى قَلْبِ الْمُجْتَمَعِ الْحَاضِرِ رَأْسًا عَلَى عَقِبِ سَيْرٍ بِهِ إِلَى تِلْكَ الشُّيُوعِيَّةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا جَمْعُ الزَّمَرِ الْبَشَرِيَّةِ قَبْلَ خَيْرِ التَّارِيخِ ، وَتَقُومُ تِلْكَ الْمَطَالِبُ عَلَى تَحْدِيدِ سَاعَاتِ الْعَمَلِ وَتَزْعُ مِلْكِيَّةَ الْمَنَاجِمِ وَالْخُطُوطِ الْحَدِيدِيَّةِ وَالْمَصَانِعِ وَالْأَرْضِ وَتُوزِعُ الْمَحَاصِيلَ تَوْزِيعًا مَقْسُومًا وَإِنْغَاءُ الطَّبَقَاتِ الْعُلْيَا فِي سَبِيلِ الطَّبَقَاتِ الشَّعْبِيَّةِ الْخ .

وَالْجَمَاعَاتُ ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ الْاِسْتِعْدَادِ لِلتَّعْقُلِ ، تَبْدُو بِالْعَكْسِ كَثِيرَةً الْاِسْتِعْدَادِ

للعمل ، والنظامُ الحاضر يجعلها ذاتَ قوةٍ عظيمة ، وسيكون للعقائد التي تُبصرُ حدوثها عما قليل ما للعقائد القديمة من السلطان ، أى تكون ذاتَ جَبَرُوت وسلطان فلا يُجادل فيها ، ويَحِلُّ حَقُّ الجماعات الإلهيِّ محلَّ حَقِّ الملوك الإلهيِّ .

وترى الكتاب ، ذوى الحُطوة لدى طبقتنا الوسطى والذين يُمَثِّلون أحسن من سوامهم أفكارها الضيقة وبَصَرها القصير وارتياحها الوجيز وأثرَها المُفْرِطة ، يجزعون أمام ذلك السلطان الذى يَرَوْنَ استفحال أمره ، وهم ، لكى يكافحوا فوضى النفوس ، يستغيثون استغاثةَ اليأس بقوى الكنيسة الأدبية بعد أن كانوا يزددونها كثيراً ، وهم يتكلمون عن إفلاس العلم فيَدْعُوننا إلى تعاليم الحقائق المُنزَّلة ، بَيِّد أن هؤلاء المهتدين الجُدَّدَ يَنسَوْنَ أن العناية الربانية ، إذا ما سَكَمَتْهم بالحقيقة ، ليست ذاتَ سلطان على نفوس لا تبالي بأمور الآخرة إلا قليلاً ، والجماعاتُ ، اليومَ ، راغبةٌ عن آلهة أنكرها سادتها السابقون بالأمس عاملين على تحطيمها ، والأُنهارُ لا تعود إلى منابعها .

لم يُفْلَسِ العلم قَطُّ ، ولا عَمَلٌ له فى فوضى النفوس الحاضرة ولا فى القوة الجديدة التى تنمو وسط هذه الفوضى ، وإنما هو وَعَدٌنا بالحقيقة أو بمعرفة الصلات التى يدرکها ذكاؤنا ، وهو لم يَعِدْنا قَطُّ بالسلام ولا بالسعادة ، والعلمُ ، وهو لا يبالي بمشاعرنا أبداً ، لا يستمع إلى عويلنا ، ولا شئٌ يقدر على إعادة ما هزَمه العلم من الأوهام .

وهناك علامٌ عامةٌ تدلُّ لدى جميع الأمم على نموِّ سلطان الجماعات بسرعة ، وما علينا إلا أن نعانى ما يأتينا به ذلك ، وليست ضروب اللوم إلا من الألفاظ الفارغة ، ومن المحتمل أن يكون سلطان الجماعات مرحلةً من آخر مراحل حضارة

الغرب وأن يَعْنِي عودةً إلى أدوار الفوضى الشديدة التي تَسْبِقُ ظهورَ المجتمعات الجديدة ، ولكن كيف يُمنَع ذلك ؟

إن ما مُنِيتَ به الحضارات الهَرِمَة من تخريب عظيم حتى الآن قد عَيَّن أَظْهَرَ دَوْرَ للجماعات ، وإن التاريخ ليدُلُّ على أن القُوَى الأديية التي هي قِوَامُ أحد المجتمعات إذا ما قَدَّتْ عملها تَمَّ الانحلال الأخير على يد تلك الجماعات الجائرة غير الشاعرة التي أُصيبَ في نعمتها بالبرابرة ، والحضاراتُ هي وليدة شِرْذِمَة أريستوقراطية من ذوى المِدارك ، لا من عمل الجماعات أبداً ، والجماعاتُ لا تَقْدِرُ على غير الهدْم ، وَيَنْمُ سلطَانُ الجماعات على الفوضى في كُلِّ وقت ، وتتضمن الحضارة ما لا تستمره الجماعات تماماً ، وذلك عند ما يُلقَى حبلُها على غاربها ، من القواعد الثابتة والنظام والانتقال من الغريزى إلى العقلى والبَصَرِ بالمستقبل والثقافة العالية ، ومَثَلُ الجماعات في قدرتها المُخَرَّبَة كمَثَل تلك الجرائم التي تُعَجِّلُ انحلال الأجسام النحيلة أو انحلال الجُثث ، وبناء الحضارة إذا نَخِرَ أوجبت الجماعاتُ انهياره ، وهناك يبدو شأن الجماعات فتغدو حِكْمَة التاريخ في قوة العدد العمياء حيناً من الزمن .

وهل يكون ذلك مصيرَ حضارتنا ؟ يمكننا أن نخشى ذلك ، ولكننا لا نزال نجهله .

ولنُسَلِّمَ بمعاناة سلطان الجماعات ما هَدَمَتْ أَيْدٍ غافلةٌ بالتعاقب جميعَ الحواجز التي كان يمكنها أن تَرْجُرَ الجماعات .

ولا نَعْرِفُ إلا القليلَ من أمر تلك الجماعات التي كَثُرَ الكلام عنها ، وعلماء النفس المُحْتَرِفون ، إذ عاشوا بعيدين من الجماعات ، جَهَلُوهَا على الدوام ، وهم لم يُعْنُوا بها إلا من حيث الجرائمُ التي تستطيع اقترافها ، أَجَلُ ، إن الجماعاتِ المجرمة

موجودة لا ريب، غير أنك ترى جماعاتٍ فاضلةً وجماعاتٍ باسلةً وهكذا، وليست الجرائم سوى ظاهرة خاصة من روح الجماعات، والجرائم لا تدلنا على مزاج الجماعات النفسى كما أن بيان معائب الشخص وحدها لا تدلنا على نفسية هذا الشخص .

ومع ذلك نرى من الحق أن يقال إن سادة العالم من مؤسسى الأديان والدول ومن رُسُل جميع المعتقدات ومن أقطاب السياسة وإن رؤساء الزُّمَر البشرية الصغيرة كانوا من علماء النفس بفطرتهم لمعرفة الغريزية، الصادقة في الغالب، بروح الجماعات، وهم لمعرفة إياها جيداً سهل عليهم أن يسودوها، وكان ناپليون ذا بَصَرٍ حديد بروح الجماعات الفرنسية بما يثير العجب، ولكن ناپليون هذا كان يتجَهَل روح جماعات الشعوب الأخرى جهلاً تاماً في بعض الأحيان^(١)، فحقَّره هذا الجبل إلى القيام في إسبانية وروسية، على الخصوص، بحروب أعدت سقوطه .

ومن معرفة روح الجماعات يتألف مَعِينُ القطب السياسى الذى يَودُّ ألاَّ تحكم فيه الجماعات كثيراً، لا أن يحكم فيها لصعوبة ذلك في هذه الأيام .
تُثبت روح الجماعات قلة تأثير القوانين والنُّظُم في طبيعة الجماعات المندفعة ودرجة عجز الجماعات عن أن تكون حائزةً لأى رأى غير ما تُلقَّنه، ولا يمكن القواعد المشتقة من مبدأ الإنصاف النظرى الخالص أن تُسير الجماعات، والانطباعات التى تُحدث في الجماعات هى التى تستطيع أن تستهويها، وإذا حدث أن مشتركاً أراد

(١) لم تكن معرفة أدق مستشاريه أحسن من تلك، فقد كتب تاليران يقول له : « إن إسبانية ستقبل جنوده قبول المنقذين »، وإسبانية هذه قد استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الضارية، فكان يسهل على عالم قسى مطلع على غرائز هذا الشعب الموروثة أن يبصر ذلك .

فرض ضريبة جديدة ، مثلاً ، فهل يجب عليه أن يختار أعدل الضرائب نظرياً ؟
 كلاً ، فقد يكون أبعد الضرائب عن العدل أحسنها عملياً لدى الجماعات إذا
 ما كانت هذه الضريبة أكثرها خفاءً وأخفها حملاً في الظاهر ، ومن ذلك أن
 إحدى الضرائب غير المقررة تكون مقبولة لدى الجمهور ولو كانت باهظة ، فهذه
 الضريبة ، إذ كانت تُستوفى من مواد الاستهلاك في كل يوم بقطع من الدوايق ، تبدو
 قليلة التأثير في العادات غير ثقيلة عليها ، ولكنكم إذا ما استبدلتم بها ضريبة
 نسبية على الأجور أو على دخل آخر لتُدفع دفعة واحدة أثارت هذه الضريبة
 احتجاجات إجماعية ولو كانت أخف من تلك عشر مرات ، وذلك لقيام مبلغ
 مجموع كبير نسبياً مقام دوايق غير بادية تجبى ميّومة وجلب ذلك المبلغ للنظر
 أكثر من هذه الدوايق ، ولا يكون ذلك المبلغ أمراً غير خفى إلا إذا جُمع دائقاً
 بجانب دائق ، بيد أن هذه وسيلة اقتصادية تدلُّ على شيء من البصيرة لا تقدر
 الجماعات عليه .

ويوضح المثال السابق نفسية الجماعات ، ولم تغب هذه النفسية عن عالم نفسي
 كnapليون ، غير أن المشترعين الذين يجهلون روح الجماعات لا يستطيعون إدراك
 تلك النفسية ، ولما تعلّمهم التجربة ، بما فيه الكفاية ، أن الناس لا يسرون
 بتعاليم العقل الصّرف .

ومن الممكن أن يؤتى بتطبيقات أخرى كثيرة مقتبسة من روح الجماعات ،
 ومعرفة روح الجماعات تُلقي نوراً شديداً على ما يتعذر فهمه بغيره من الحوادث
 التاريخية والاقتصادية الكثيرة ، وإذا كان أشهر المؤرخين المعاصرين ، مسيو تايين ،
 لم يدرك حوادث الثورة الفرنسية الكبرى في بعض الأحيان إلا إدراكاً ناقصاً

فلأنه لم يفكر في دراسة روح الجماعات ، وتاين هذا اتخذ المنهاج الوصفي لعلماء التاريخ الطبيعي دليلاً له في دراسة ذلك الدور المعقد مع أنه لا مكان للقوى الأدبية في الحوادث التي تدخل ضمن مباحث هؤلاء العلماء ومع أنه يتألف من القوى الأدبية عوامل التاريخ الحقيقية .

إذن ، تستحق روح الجماعات أن تكون موضع درس ولو من أجل حب الاطلاع ، ومن المفيد أن تستبرع عوامل سير الرجال كما كتناه المعدن والنبات .

ولست دراستنا لروح الجماعات غير خلاصة وجيزة لمباحثنا ، فلا تطالب بسوى نظرات إيجابية ، وعلى غيرنا أن يؤغل في الموضوع ما دمنا لا نصنع الآن غير تخطيط على أرض لم يقع ارتيادها بعد^(١) .

(١) لم يعن العلماء الذين تناولوا بالدرس روح الجماعات إلا بالبحث فيها من الناحية الإجرامية كما قلت ذلك آنفاً ، وإذا نيتي لم أخص هذه الناحية سوى فصل قصير فإني أحيل القارىء على دراسات مسيو تارد وعلى رسالة مسيو سيفل التي سماها « الجماعات المجرمة » ، ولم تشتمل رسالة « الجماعات المجرمة » هذه على أى فكر شخصي مؤلفها ، بل تحتوى مجموعة من الوقائع العزيزة على علماء النفس ، على أن النتائج التي انتهت إليها عن إجرام الجماعات وخلقها تخالف ما وصل إليه ذاك الكاتبان من النتائج مخالفة تامة .

وتجد في كتيبي الكثيرة ، ولا سيما كتابي « روح الاشتراكية » ، بعض النتائج للسنن التي تهيمن على روح الجماعات ، ويمكن الانتفاع بهذه النتائج في مختلف الموضوعات مع ذلك ، ومن ذلك أن مدير المعهد الموسيقي الملكي في بروكسل ، مسيو أ. جيفار ، وجد ، حديثاً ، تطبيقاً مهماً للسنن التي عرضناها فأصاب في وصفها بفن الجماعات ، وذلك في مذكرة وضعها عن الموسيقى ، ومما جاء في كتاب أرسله إلى هذا الأستاذ المفضل مع نسخة من مذكرته : « إن كتابيك هما اللذان وجدت بهما حل مشكلة كنت أعده أمراً متعذراً ، وتلك المشكلة هي الاستعداد العجيب لدى كل جماعة في تذوق أية قطعة موسيقية حديثة أو قديمة ، وطنية أو أجنبية ، بسيطة أو مركبة ، وذلك على أن تكون حسنة الإيقاع وأن يقوم بها موقعون يديرهم رئيس محس » ، ومما أجاد بيانه مسيو جيفار السبب « في أن مستمعين غربيين عن كل ثقافة فنية يلمون في بعض الأحيان دفعة واحدة بقطعة موسيقية غير مدركة من قبل موسيقيين ماهرين يقرءونها متروين في غرتهم » ، ويوضح مسيو جيفار ، مع الإجابة أيضاً ، العلة في أن هذه الانطباعات الذوقية لا تترك أى أثر .

البَابُ الْأَوَّلُ

رُوحُ الْجَمَاعَاتِ

فانما في هذه الدنيا من النعمان والكرامات
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان

والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان

والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان

والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان
والجود والسخاء والكرم والحرمان

الفصل الأول

الخصائص العامة للجماعات سنة وحدتها النفسية

من أى شيء تتألف الجماعة نفسياً — لا يكتفى اجتماع أشخاص كثيرين لتأليف جماعة — الصفات الخاصة للجماعات النفسية — اتجاه أفكار الأفراد الذين تتألف الجماعات منهم ومشاعر هؤلاء الأفراد وتلاشي شخصيتهم — يسيطر اللاشعور على الجماعة في كل وقت — ازواء الحياة الدماغية وهيمنة الحياة النخاعية — انحطاط الذكاء وتحول المشاعر تحولاً تاماً — قد تكون المشاعر المتحولة أحسن من مشاعر الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة أو أسوأ منها — يسهل أن تكون الجماعة بأسالة كما يسهل أن تكون مجرمة .

تدل كلمة الجماعة في معناها العادى على اجتماع أشخاص مهما كانوا ومن أى الجنسین كانوا ، ومهما كانت قوميتهم ومهنتهم ، ومهما كانت المصادفة التى جمعتهم . والجماعة تدل على معنى آخر من الناحية النفسية ، وفى بعض الأحوال المعينة ، وفى هذه الأحوال فقط ، يكتسب لقيف من الناس صفات جديدة مختلفة أشد الاختلاف عن صفات كل فرد من هذا اللقيف ، فتلاشي الشخصية الشاعرة وتتجه أفكار كل واحد من أولئك الأفراد نحو صوب واحد ، وتتألف روح مشتركة مؤقتة لا ريب ، ولكنها ذات صفات واضحة إلى الغاية ، وهنالك يصير الجمع ما أسميه بالجماعة المنظمة ، وإن شئت فقل الجماعة النفسية ، لئلا أجدُ خيراً من هذا

التعبير ، وتكون تلك الجماعة ذات كيان واحد وتَخضع لِسُنَّةِ الوَحْدَةِ النفسية للجماعات .

وإذا ما حدث أن وُجِدَ أفرادٌ بعضهم بجانب بعض عَرَضاً فإن هذا لا يمنحهم صفات الجماعة المنظمة ، ولو اجتمع ألف شخص إلى بعضهم بعضاً في ميدان عام بطريق المصادفة من غير هَدَفٍ مُعَيَّنٍ ما أَلْفُوا جماعة نفسية قط ، وهم ، لكي يكتسبوا صفات الجماعة النفسية ، لا بدَّ من أن تُوَثِّرَ فيهم بعض المُحَرِّضَاتِ التي سُنْعِينَ طبيعتها .

ولا يتضمن اضمحلال الذات الشاعرة واتجاهُ المشاعر والأفكار نحو هَدَفٍ واحد ، وهما الصفتان الأوليان للجماعة التي هي في طريق الانتظام ، وجودَ أفرادٍ كثيرين في مكان واحد على الدوام ، فقد يكتسب ذات حينٍ أُلُوفٌ من الأشخاص المتفرقين صفات الجماعة النفسية بفعل بعض المُهَيِّجَاتِ العنيفة كحادث قوميٍّ جَلَلٍ ، ويكفي أن تَجْمَعَ هؤلاء أَيْةٌ مصادفة ليصطبغ سلوكهم ببسطة أعمال الجماعات فوراً ، ومن الممكن في بعض ساعات التاريخ أن يتألف من بضعة أشخاص جماعة نفسية على حين لا يتألف من مئات الأشخاص الذين يجتمعون اتفاقاً مثل تلك الجماعة ، وقد تنقلب الأمة كلها أحياناً إلى جماعة بفعل هذا المؤثر أو ذلك من غير أن يكون اجتماع ظاهر هنالك .

والجماعة النفسية متى تكونت اكتسبت صفات عامة موقته يمكن تعيينها ، وإلى هذه الصفات العامة تُضَافُ صفاتٌ خاصة تختلف باختلاف العناصر التي تتألف الجماعة منها والتي يمكنها أن تُغَيِّرَ كِيَانَهَا النفسيَّ .

إذن ، يمكن تقسيم الجماعات النفسية ، وتدلنا دراسة هذا التقسيم على أن الجماعة

المتباينة المؤلفة من عناصر مختلفة تكون ، هي والجماعات المتجانسة المؤلفة من عناصر متشابهة بعض الشبه (كالفروق والطوائف والطبقات) ، ذات صفات مشتركة بينها وأنه يكون بجانب هذه الصفات المشتركة خصوصيات تختلف بها هذه الجماعات عن تلك .

ولندرس الصفات المشتركة بين جميع الجماعات قبل أن نغنى بأنواع الجماعات ، وسيكون شأننا في ذلك كشأن العالم الطبيعي فنبدأ بتحديد الصفات العامة بين أفراد الفصيلة الواحدة ، ثم نعين الصفات الخاصة التي تفرق بين ما في هذه الفصيلة من الأنواع والأجناس .

ليس من السهل وصف روح الجماعات ، وذلك لأن نظام هذه الروح لا يختلف باختلاف الشعوب وتركيب الزمر فقط ، بل يختلف أيضاً باختلاف طبيعة ما تعانيه من المحرّضات ودرجة هذه المحرّضات ، وصعوبة مثل هذه تبدو مع ذلك في درس حال أي فرد درساً نفسياً ، فالأشخاص ، وإن كانوا يظهرون في الروايات ذوى خلق ثابت ، ليسوا كذلك في ميدان الحياة الخاصة ، ونمطية البيئات وحدها هي التي تحدث نمطية الأخلاق ظاهراً ، وقد بينت في موضع آخر أن جميع الأمزجة النفسية تشمل على إمكانات خلقية يمكن أن تبدو بفعل انقلاب مفاجئ في البيئة ، ومن ذلك أن بدا بين وحوش العهد أناس من أبناء الطبقة الوسطى كانوا في الأحوال العادية ككتاب عدل مسالمين أو قضاة صالحين ، فلما هدأت الزوابع عاد هؤلاء إلى سابق أخلاقهم فوجد نابليون بينهم أشد أعوانه خضوعاً .

وإذا كنا لا نستطيع أن ندرس هنا جميع المراحل في تكوين الجماعات فإننا ننظر إلى وجه نظامها الكامل على الخصوص ، وهكذا نرى ماذا يمكن الجماعات أن

تكون ، لا ما هي عليه في كل وقت ، وتتنضد على ذلك الوجه الراقى للجماعات بعض الصفات الجديدة الخاصة ، كما على أساس الأمة الثابت المهيمن ، فتوجه تلك الصفات الجديدة جميع مشاعر الجماعة وأفكارها نحو هدف واحد ، وهناك فقط تتجلى سنة الوحدة النفسية للجماعات التي ذكرتها آنفاً .

وكثير من الصفات النفسية مشترك بين الجماعات والأفراد ، ومن الصفات النفسية ما لا يوجد في غير الجماعات ، وسندرس هذه الصفات الخاصة في بدء الأمر لبيان أهميتها .

إن أبرز أمر في الجماعة النفسية هو أن الأفراد الذين تتألف منهم ، مهما كانوا ومهما تماثلوا أو اختلفوا في طراز حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وعقولهم ، هو أنهم إذا ما تحولوا إلى جماعة منحتم هذه الجماعة ضرباً من الروح الجامعة ، وهذه الروح تجعلهم يشعرون ويفكرون ويسيروا على وجه يخالف ما يشعرون به ويفكرون فيه ويسيروا عليه كل واحد منهم وهو منفرد ، ومن الأفكار والمشارع ما لا يظهر أو يتحول إلى أعمال إلا لدى الأفراد في الجماعة ، فالجماعة النفسية هي موجود مؤقت مؤلف من عناصر متباينة ملتزمة لأجل ، وهي كخليات الجسم الحي التي يتألف من اجتماعها موجود جديد ذو صفات تختلف عن صفات كل واحدة من هذه الخليات .

والأمر هو خلاف الرأي الذي يتحار المرء من صدوره عن فيلسوف ناقد البصيرة كهربرت سبنسر والقاتل إن الجماعة مجموع وحاصل متوسط للعناصر التي تتألف منها ، والأمر هو أن آية الجماعة تركيب وحدوث صفات جديدة كما في الكيمياء حيث ترى أن بعض العناصر ، كالتقواعد والحوامض ، إذا ما اختلط ببعض ظهر جسم جديد ذو خواص تختلف عن خواص الأجسام التي تألف منها .

ومن السهل ملاحظة درجة اختلاف الفرد في الجماعة عن الفرد وحيداً ، ولكن اكتشاف علل ذلك الاختلاف أقل سهولة .

وللوصول إلى تبين ذلك يجب أن تُذكر قبل كل شيء الملاحظة الآتية التي وردت في علم النفس الحديث وهي : ان الحوادث اللاشعورية تُمثل دوراً عظيماً في أعمال الذكاء ، لا في الحياة العضوية وحدها ، ولا تُمثل حياة النفس الشاعرة غير نصيب ضئيل بجانب حياتها اللاشاعرة ، ولا يكتشف أدقُّ المُحلِّلين وأعمقُ الباحثين سوى عدد قليل من العوامل اللاشعورية التي تُسير النفس ، وتُشتقُّ أعمالنا الشعورية من مصدر غير شعوري تألف من مؤثرات وراثية ، ويشتمل هذا المصدر على ما لا يُحصى من الرواسب الموروثة التي تتكون منها روح الشعب ، ويوجد خلف ما هو معروف من علل أعمالنا عللٌ خفية نجهلها ، وما مُعظم أفعالنا اليومية إلا نتيجة لعوامل مستترة لا ندركها .

وبفعل العناصر اللاشاعرة التي تتكون منها روح الشعب يتشابه جميع أفراد هذا الشعب على الخصوص ، وبفعل العناصر الشاعرة التي هي ثمرة التربية ، ونتيجة وراثية استثنائية على الخصوص ، يختلف أولئك الأفراد ، وتجدُّ لأشدَّ الناس اختلافاً بذكائهم غرائز وشهوات ومشاعر متماثلة في بعض الأحيان ، ومن النادر أن يجاوز أفضلُ الناس مستوى العامة في كلِّ ما ينشأ عن المشاعر كالدين والسياسة والأخلاق والحب والبغضاء إلخ ، أجل ، قد تكون هنالك هوة بين رياضي مشهور وصانع حذائه من الناحية العقلية ، غير أن الفرق بينهما يكون صِفراً في الغالب أو ضئيلاً إلى الغاية في الخلق والمعتقدات .

حقاً أن صفات الخلق العامة تلك التي يهيمن اللاشعور عليها والتي يحوزها

مُعظم الشعب بدرجة واحدة تقريباً هي الصفات التي تبدو شاملة لدى الجماعات ، وفي الروح الجمعيّة تَمَجّي أهليّاتُ الأفراد العقلية وشخصيّتهم من حيث النتيجة ، ويُفَرّق المتباين في المتجانس وتسيطر الصفات اللاشعورية .

وَيُفسّر لنا شمولُ الصفات العادية ذلك السبب في أن الجماعات لا تستطيع أن تُنجز أعمالاً تتطلب ذكاءً عالياً ، وليست المُقرّرات التي تصدر عن مجلس مؤلف من رجال ممتازين في موضوع المصلحة العامة بأرقى من المقررات التي تصدر عن مجلس مؤلف من الأغبياء ، وذلك لأن الفريقين لا يشتركان بالحقيقة في غير تلك الصفات الهزيلة التي يتّصف بها جميع الناس ، والبله ، لا الذكاء ، هو ما تجمعه الجماعات ، وليس جميع الناس بأحصف من فُولْتير كما يُردّد في الغالب ، والحق أن فُولْتير أحصف من جميع الناس إذا قُصِدَت الجماعات من « جميع الناس » .

ولكن الأفراد في الجماعة إذا ما اقتصروا على صهر صفاتهم العادية ظهرت صفة متوسطة فقط ، لا صفات جديدة كما قلنا ، فكيف تحدث هذه الصفات الجديدة ؟ فلنبحث في ذلك الآن .

هنالك أسباب مختلفة تؤدّي إلى ظهور صفات خاصة بالجماعات ، والسبب الأول هو أن الفرد يكتسب في الجماعة بفعل العدد شعوراً بقُدرة ، لا تقهر ، على الإذعان لغرائز كان يردّعها كرهاً وهو منفرد ، والفرد في الجماعة يُذعن لتلك الغرائز طوعاً بنسبة زوال الشعور بالمسؤولية الذي يردّد حياح الأفراد على الدوام ما دامت الجماعة غفلاً ، ومن ثمّ غير مسؤولة .

والسبب الثاني ، وهو العدوى النفسية ، يعمل أيضاً على إظهار صفات خاصة في الجماعات موجّهة لها ، والعدوى النفسية ، وإن كانت حادثة تسهل

ملاحظتها ، لم تفسر بعد ، وهى مما يجب ربطه بحوادث التنويم التى سندرسها عما قليل ، وكل شعور فى الجماعة وكل عمل تأتية مما يسرى بالعدوى ، وهو يبلغ من السرّيان بالعدوى ما يسهل معه على الفرد أن يضحى بمصلحته الشخصية فى سبيل المصلحة العامة ، وفى ذلك استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الإنسان إلا إذا كان جزءاً من جماعة .

والسبب الثالث ، وهو أهم الأسباب ، يوجب فى أفراد الجماعة صفات خاصة تكون فى بعض الأحيان مناقضة لصفات الإنسان وهو منفرد ، وأقصد بذلك قابلية الإنسان للتلقّن التى ليست العدوى المذكورة آنفاً غير نتيجة لها .

ونحن ، لكى نذكر هذه الحادثة ، يجب أن نذكر بعض الاكتشافات الحديثة فى علم وظائف الأعضاء ، فما نعلم اليوم أن الشخص يمكن وضعه فى حال يفقد فيها ذاته الشاعرة فينقاد لتلقينات الفاعل الذى أفقده إياها ، فيقترب أشد الأعمال مخالفة لسجيته وعاداته ، وهناك مشاهدات دقيقة ثبتت ، كما يظهر ، أن الشخص إذا ما انغمر منذ حين فى جماعة وهى تعمل لم يُعَمَّ أن يقع فى حال خاصة كثيرة القرب من حال سحر المُنَوِّم بين يدي مُنَوِّمه ، وذلك بفعل سيّلات تصدر عن الجماعة أو بفعل سبب آخر لا يزال مجهولاً ، وحياة الدماغ إذ تُعطّل فى المُنَوِّم يغدو المُنَوِّم عبداً لجميع قواه اللاشاعرة فيؤجّه المُنَوِّم هذه القوى كما يشاء ، والذات الشاعرة حين تغيب تبطل الإرادة ويروى التمييز ، وتتوجه المشاعر والأفكار ، إذ ذاك ، إلى الهدف الذى عينه المُنَوِّم .

تلك هى حال الفرد فى الجماعة تقريباً ، وفى الجماعة يعود الفرد غير شاعر بأفعاله ، وعند ذلك الفرد ، كما عند المُنَوِّم ، فيما تزول بعض الملكات تشتدّ ملكات

أخرى اشتداداً عظيماً ، فيندفع الفردُ ، بفعل التلقين ، في إنجاز بعض الأعمال صائلاً
صَوْلَةً لا يَقْدِر على مقاومتها، وتكون الصولة أشدَّ اندفاعاً في الجماعات مما في المُنَوَّم ،
وذلك لأن التلقين ، إذ كان واحداً لدى جميع الأفراد في الجماعات ، يزيد بالتفاعل ،
وأفراد الجماعة الذين لديهم من قوة الذات ما يقاومون به التلقين قليلون إلى الغاية
ويَجْرُهُم السَّيْل ، وإنما الذي يستطيعون محاولته هو تحويل المجرى بتلقين مختلف ،
فيهم إذا ما صدرت عنهم كلمة طيبة أو أثاروا خيالاً ملائماً أمكنهم في بعض الأحيان
أن يَصْرِفُوا الجماعات عن اقتراف أفعال .

ومما تقدم ترى أن تلاشي الذات الشاعرة وهيمنة الذات غير الشاعرة والتوجيه
نحو غرض واحد بالتلقين وعدوى المشاعر والأفكار وتحويل الأفكار المُلقَّنة إلى
أعمال في الحال هي أهم صفات الفرد في الجماعة ، وفي الجماعة لا يعود الفرد كما كان ،
بل يصبح آلة تعجز إرادته عن قيادتها .

والإنسانُ إذا ما غدا جزءاً من الجماعة هَبَط ، إذَنْ ، عِدَّة درجات في سُلَّم
الحضارة ، والإنسانُ وهو منفرد قد يكون شخصاً مُتَقَفّاً ، والإنسانُ وهو في الجماعة
يكون غريزياً ، ومن ثمَّ يكون همجياً فَيَتَّصِف بما عند الفطريين من الغريزية
والعنف والجَلَف كما يتصف بما عندهم من الحماسة والبطولة ، وهو يشابههم أيضاً
بسهولة استهوائه بالصيغ والصور وسَوِّقِهِ إلى أعمال ضارَّة بأوضح مصلحه ، والفردُ
في الجماعة كذَرَّة التراب بين ذراتٍ أخرى تثيرها الريح كما تشتهي .

وهكذا ترى مُحَلِّقِينَ يُصْدِرُونَ أحكاماً يَعْيِيهَا كلُّ واحد منهم على أفراد ،
وهكذا ترى مجالسَ برلمانية تُسنُّ قوانينَ وتَتَّخِذُ تدابيرَ يرفضها كلُّ عضو من
أعضائها على حِدَةٍ ، وهكذا كان حال رجال مجلس العهد من أبناء الطبقة الوسطى

ذوى العادات السّامية ، فلما اجتمع أولئك الرجال وتألفت منهم جماعة لم يترددوا ، بتأثير بعض الزعماء ، في إرسال أوضح الناس براءةً إلى القِصْلة ، وقد تَنَزَّل أولئك الرجال عن حَصَاتِهِمْ خلافاً لجميع مصالحيهم فَضَرَبَ بعضهم رقابَ بعض . ولا يختلف الفرد ، وهو في الجماعة ، عن شخصه المعتاد بالأعمال فقط ، والفرد ، حتى قبل أن يَفْقِدَ كلَّ استقلال فيه ، تتحول أفكاره ومشاعره تحولاً يَنقلب به البخيل إلى متلاف والمليح إلى مُعْتَقِدٍ والشريف إلى أئيم والنذل إلى بطل ، ومن ذلك أن تَنَزَّل الأشراف عن جميع امتيازاتهم ساعةَ حماسةٍ في ليلة ٤ من أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة ، ومما لا مِرَاء فيه أن كلَّ واحد من أولئك الأشراف كان يرفض ذلك لو سُئِلَ على انفراد .

ومن الملاحظات السابقة نستنتج أن الجماعة على الدوام دُونَ الشخص المنفرد إدراكاً ، بَيَد أن الجماعة ، من حيث المشاعرُ والأعمال التي توجيها هذه المشاعر ، يمكنها أن تكون أكثر من الفرد خيراً أو شراً ، وهذا يتوقف على الوجه الذي تُلقَن به ، وهذا هو الذي غَفَلَ عنه الكُتَّاب الذين لم يبيحوا في الجماعات إلا من الناحية الإجرامية ، مع أن الجماعات ، وإن كانت مجرمة في أوقات كثيرة ، ذاتُ بطولة في أوقات كثيرة أخرى ، فالجماعاتُ تُسَهِّلُ قيادتها للتضحية انتصاراً لمعتقد أو مبدأ ، والجماعاتُ تُشَارُ حماسها في سبيل المجد والشرف ، والجماعاتُ تُسَاقُ بلا خبز ولا سلاح كما حدث في الحروب الصليبية لإِنقاذ قبر الربِّ ، وكما حدث في سنة ١٧٩٣ للدفاع عن أرض الوطن ، أَجَلْ ، إن تلك البطولاتِ غيرُ شعورية إلى حدٍّ ، غير أن التاريخ يُصَنِّعُ بمثلها ، ولو وَجَبَ أَلَّا يَعدَّ بين تراثِ الأمم غيرُ الأعمالِ العظيمة التي حَقَّقَتْ ببرودة ما سَجَلَتْ حَوَالِيَّاتِ العالمِ سوى السير من ذلك التراث .

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات وأخلاقيها

(١) استعداد الجماعات للاندفاع والقلب والغضب — الجماعة هي العوبة جميع المحرضات الخارجية وهي تردد صدى قلب هذه المحرضات المستمر — ما تعانيه الجماعات من الاندفاعات هو من التجربة ما تزول معه المنفعة الشخصية — لا شيء في الجماعة يصدر عن التأمل — تأثير العرق — (٢) استعداد الجماعات للتلقين والتصديق — إذعانها للتلقين — تعدد الجماعات من الحقائق ما يلقي في روعها من الصور — كيف تكون هذه الصور متماثلة لدى جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة — تساوى العالم والأبله في الجماعة — أمثلة مختلفة من الأوهام التي يكون أفراد الجماعة عرضة لها — تعذر الاعتماد على شهادة الجماعات — إجماع كثير من الشهود من أسوأ الأدلة على إثبات أمر — ضعف قيمة كتب التاريخ — (٣) غلو مشاعر الجماعات وبساطتها — الجماعات لا تعرف الشك ولا التردد ، وهي تذهب إلى التطرف على الدوام — الجماعات مفرطة في مشاعرها على الدوام — (٤) عدم تسامح الجماعات وتحكمها ومحافظتها — أسباب هذه المشاعر — ندالة الجماعات أمام السلطة القوية — لا تمنع الفرائز الثورية الموقته في الجماعات من أن تكون هذه الجماعات محافظة إلى الغاية — الجماعات ذات غرائز معادية للتغيير والرقى — (٥) أخلاق الجماعات — أخلاق الجماعات قد تكون أحط من أخلاق أفرادها أو أعلى من هذه الأخلاق بحسب التلقين — لإيضاح وأمثلة — من النادر أن تكون المنفعة ، التي هي المحرك الوحيد للشخص المنفرد ، رائداً للجماعات — شأن الجماعات في تهذيب الأخلاق .

لنبحث في الجماعات مفصلاً بعد أن بيّنا أوصافها المهمة بياناً مجملًا .

إن كثيراً من الصفات الخاصة بالجماعات ، كالاندفاع والغضب وفرط المشاعر والعجز عن التعقل وعدم الحصافة وعدم النقد وما إلى ذلك ، مما يمكن أن يُشاهد

أيضاً لدى الأفراد الذين لم يجاوزوا أدوار التطور السُّفلى كالتوحش والطفل ، وهذه مشابهة أُكْتَفِي بِذِكْرِهَا عَابَرًا لِمَا فِي إثباتها من مجاوزة دائرة هذا الكتاب ، وذلك إلى عدم فائدته للمطلعين على روح الفطريين وعدم إقناعه من يجهلون تلك الروح .

والآن أبحثُ بالتتابع في مختلف الصفات التي تُسهِّل مشاهدتها في مُعْظَم الجماعات .

١ — استعدادُ الجماعاتِ للاندفاع والتقلب والغضب

بحثنا في الصفات الأساسية للجاعة فقلنا إن الجماعة مُسَيِّرةٌ بالاشعور وحده تقريباً ، فالجماعةُ تُسِيرُ بتأثير التُّخَاع أكثر مما بتأثير الدِّمَاغ ، نَعَمْ ، إن ما تنجزه الجماعة من أعمال قد يكون كاملاً في تنفيذه ، ولكن الدماغ إذ لم يكن مُوجَّهًا لها يسير الفرد فيها تَبَعًا لمصادفات التحريض ، والجماعةُ ، وهي ألعوبة جميع المُحَرِّضَات الخارجية ، تُرَدَّدُ صَدَى تَقْلِبِ هذه المحرضات المستمر ، والجماعةُ هي ، إِذَنْ ، أمةٌ ما يعتمدها من الاندفاعات ، وقد يقع الشخص وهو منفردٌ تحت تأثير المُحَرِّضَات التي يخضع لها الإنسان وهو في الجماعة ، غير أن عقله يَدُلُّهُ على محاذير الإذعان لهذه المحرضات فلا يُذْعِنُ لها ، ويمكن تعريف هذه الظاهرة من الناحية الفيزيولوجية بأن يقال إن الشخص وهو منفرد يكون ذا استعداد للسيطرة على لا تَنَبُّهَاتِهِ ، على حين ترى الجماعة عاطلة من ذلك .

وقد تكون الاندفاعات المختلفة التي تخضع الجماعات لها كريمةً أو جائرة وبأسلة أو نذلة على حسب المُحَرِّضَات ، بَيِّدَ أَنَّهَا تَبْلُغُ ، على الدوام ، من التَّجَبُّر ما تَمَّحِي به أمامها منفعةُ البقاء نفسها .

وإذ كانت المُحَرِّضَات التي تُلقَّن الجماعاتِ مختلفةً ، وإذ تنقاد الجماعاتُ لهذه المحرضات على الدوام، كانت الجماعات متقلبة إلى الغاية ، فتراها تنتقل بفتنة من التوحش الدامي إلى الكرم أو البطولة المطلقة ، والجماعةُ يَسْهُلُ عليها أن تكون جَلَادَةً كما يسهل عليها أن تكون شهيدة ، ومن ضمن الجماعة جَرَّتْ سيول الدماء انتصاراً لكل معتقد ، وليس علينا أن نَرْجِعَ إلى عصور البطولة لنعلم ماذا تَقْدِرُ عليه الجماعات ، والجماعاتُ لا تساوِمُ بحياتها في فتنة أبداً ، فمنذ سنوات قليلة أصبح أحد القُوَّاد ذا حُظْوَةٍ لدى الشعب من قُوَّره ، فلو وَدَّ لَوَجَدَ مئة ألف رجل مستعدٍّ للموت في سبيله .

إذن ، لا رَوِيَّةَ في ما يصدر عن الجماعات ، والجماعاتُ يمكنها بفعل مُحَرِّضَاتِ الزمن أن تجوب بالتتابع دائرةَ أشدَّ المشاعر تبائناً ، والجماعاتُ تشابه أوراق الشجر التي تثيرها العاصفة وتفرِّقها في كلِّ ناحية ثم تدعُّها تهبط ، وبدراسة الجماعات الثورية يكون لدينا بعض الأمثلة على قلب مشاعرها .

وَتَقَلَّبُ الجماعات ذلك يجعل قيادتها أمراً صعباً إلى الغاية ، ولا سيما عند قبضها على قسط من السلطات العامة ، ولو لم تكن مقتضيات الحياة اليومية نازمةً خَفِيَّةَ الحوادث ما عاشت الديمقراطيات قَطُّ لذلك السبب ، غير أن الجماعات التي ترغب في الأمور مُتَهَوِّرةً لا ترغب في هذه الأمور لطويل زمن ، فالجماعاتُ تَعْجِزُ عن الإرادة الدائمة عَجْزَها عن التفكير .

وليست الجماعة مندفعة متقلبة فقط ، بل هي كالهَمَجِ أيضاً ، ولا تُسَلِّمُ الجماعة بوجود حاجز بين رغبتها وبين تحقيق هذه الرغبة ، وذلك لما تَمُنُّ الكثرة عليها من الشعور بقدرة لا تقاوم ، والحقُّ أن مبدأ الاستحالة يزول لدى الفرد في الجماعة ،

وإذ كان الإنسانُ وهو منفرد يشعُر بأنه لا يستطيع وحده أن يحرق قصراً أو ينهبَ مخزناً فإن مثل هذا العمل لا يدور في خَلده ، وإذ كان الإنسانُ وهو في الجماعة يشعُر بالقدرة التي يمنحها العددُ فإنه ينقاد من فَوْرِهِ لأول تلقين بالقتل والسلب فيُحطِّمُ العائق غيرَ المنتظرِ بعنفٍ ، ولو كان النظام البشريُّ يحتمل دوام الغضب لأمكننا أن نقول إن الغضب هو الحال الطبيعية للجماعة .

وتجلى أخلاق العِرْقِ الأساسية دَوماً في غضب الجماعات واندفاعها وتقلبها كما في جميع المشاعر الشعبية التي سندرسها ، ويتألف من أخلاق العِرْقِ أرضٌ تَنبُت عليها مشاعرنا ، والجماعاتُ ذاتُ غَضَبٍ واندفاع لارِيب ، ولكن على درجات مختلفة ، ومن ذلك أن الفرقَ بارزاً بين الجماعة اللاتينية والجماعة الأنغلو سكسونية مثلاً ، وتُلقَى حوادثُ تاريخنا الجديدةُ نوراً شديداً على هذا الأمر ، ففي سنة ١٨٧٠ كفى نَشْرُ برقية بسيطة مشتملة على ذكر إهانة مفترضة لحدوث انفجار غضبٍ أسفر في الحال عن نشوب حرب طاحنة ، ثم مضى بضعُ سنين فجاء في برقية نبأ انكسارِ تافه في لَنْغْسِنِ فأوجب ذلك سقوطَ الحكومة فجأةً ، ومما حدثَ في ذلك الحين أن أصيبت حملةُ إنكليزية بانكسارٍ أكبرَ من ذلك أمام الخرطوم فلم يؤدَّ ذلك إلى غير هيجان قليل في إنكلترة لم ينشأ عنه تغيير أيِّ وزير ، أجل ، إن الجماعاتِ شبيهةٌ بالنساء في كلِّ مكان ، ولكن الجماعاتِ اللاتينية أكثرها شبهاً بهنَّ ، فمنَّ يعتمد على الجماعات اللاتينية يمكنه أن يرتقيَ سريعاً ، ولكن مع قُرْبِهِ باستمرار من صخرة تَارِيبِنْيَانِ ومع تَبَيُّنِهِ بأنه سَيُقَذَفُ من فوقها ذات يوم .

٢ — استعداد الجماعات للتلقن والتصديق

قلنا إن فرط الاستعداد للتلقن هو من الصفات العامة في الجماعات ، وبينا كيف أن التلقين أمرٌ مُعَدٌّ في كل زمرة بشرية ، وهذا يوضح اتجاه المشاعر السريع نحو غرض مُعَيَّن .

والجماعةُ مهما افترض حيادها بدتْ ، في الغالب ، في حالٍ من الانتباه الانتظاريٍّ ما تُلقن به ، ويُفرض التلقينُ الأول ، المرسوم ، على جميع الأدمغة في الحال فلم ينسب أن يُعيَّن الانجاء ، والفكرُ الثابت في الأشخاص المُلقَّنين يميل إلى الانتقال إلى العمل ، وسواء أكان الأمرُ قصراً ليُخرق أم عملاً كريماً لينجز تبدو الجماعة مستعدة لصنع ذلك بسهولة واحدة ، وكلُّ ذلك يتوقف على طبيعة المُحرِّض ، لا ، كما لدى الشخص المنفرد ، على العلاقات بين العمل المُلقَّن وحاصل العقل الذي يمكن أن يعارض تحقيقَ هذا العمل .

ثم إن الجماعة ، وهي تحوم على الدوام فوق حدود اللاشعور وتعاني كلَّ تلقين وتهتزُّ بقوة المشاعر الخاصة بأشخاص عاجزين عن الاستعانة بالمؤثرات العقلية ، لا يمكنها أن تبدو إلا مفرطةً في سرعة تصديقها ، وليس غيرُ المحتمل أمراً موجوداً لدى الجماعة ، ويجب أن يُذكر هذا لتُدرك سهولةُ التي تولد وتنتشر بها أبعادُ الأساطير والأفاسيص عن الصواب ^(١) .

(١) إن الذين شهدوا حصار باريس شاهدوا أمثلة كثيرة على سرعة تصديق الجماعات لأموور غير محتملة تماماً ، ومن ذلك أن عدت شمعة مشعولة في الطبقة العليا من أحد المنازل إشارة للأعداء المحاصرين ، مع أن قليلاً من إنعام النظر كان يكفي لإثبات استحالة رؤية نور هذه الشمعة من مسافة عدة أميال .

وليس ابتداءً الأفاصيل التي تدور بسهولة بين الجماعات نتيجة سرعة تصديق تام فقط ، بل هو أيضاً نتيجة ما يعتور الحوادث من تشويه عظيم في خيال الأفراد المجتمعين ، ولم تلبث الجماعة أن تمسخ أبسط الحوادث ، والجماعة تفكر بالأخيلة ، وكل خيال مُحَضَّر يستحضر طائفة من الخيالات لا ترتبط في الخيال الأول بأية رابطة ، ومن اليسير أن تتمثل هذه الحال عند تأملنا في تعاقب الأفكار الغريب الذي يسوقنا إليه استدعاء أى أمر في بعض الأحيان ، والعقل يدل على عدم ارتباط مثل تلك الصور ، بيد أن الجماعة لا ترى ذلك ، والجماعة تخط بالحادثة ما يُضيفه إليها خيالها المشوّه ، والجماعة ، إذ تعجز عن التفريق بين الظاهر والباطن ، تذهب إلى أن ما في نفسها من صور مُحَضَّرَة أمر حقيقى ، وهذه الصور مما لا يكون بينها وبين المشاهد سوى نسب بعيد في الغالب .

ويجب ، كما يظهر ، أن يكون التشويه الذى تُصيب به الجماعة ما تشاهده من حادثة متنوعة مختلف المعانى ما دام الأشخاص الذين تتألف منهم الجماعة ذوى أمرجة مُنَوَّعة إلى الغاية ، ولكن الواقع غير هذا ، فضرِبُ التشويه بفعل العدوى ذات طبيعة واحدة ومعنى واحد لدى جميع أفراد الجماعة ، وبيان الأمر أنه يتألف من التشويه الأول الذى يُبصره أحد أولئك الأفراد نَوَاة التلقين المُعْدِي ، ومما لا ريب فيه أن القديس جورج لم يبدُ لغير واحد من الحُضُور قبل أن يظهر فوق أسوار القدس لجميع الصليبيين ، ولم يُعتمَ الجميع أن رَضَى بالمعجزة المشار إليها بفعل التلقين والعدوى .

ذلك هو أصل الهَوَسات الجَمْعِيَّة الكثيرة في التاريخ والتي يلوح أنها مخفوفة بضرِب الصحة المأثورة لأنها من الحوادث التي شاهدها ألوف الناس .

ولا تُناقضُ نفسيةُ الأفراد الذين تتألف الجماعة منهم ذلك المبدأ لما ليس لتلك الصفة من الأهمية ، فالأفراد إذا ما تألفت منهم جماعةٌ تساوى الجاهل والعالم منهم في العجز عن الملاحظة .

وقد تبدو تلك القضية غريبةً ، ويجب لإثباتها ذكرُ عدد كبير من الحوادث التاريخية ، ولا يكفي لهذا عدَّةُ مجلدات .

ومع ذلك لا أرغب في ترك القارئ أمام قضايا بلا دليل ، فترانى أذكرُ بضعة أمثلةٍ أخذتها اتفاقاً من بين جميع ما يمكن الاستشهاد به من الأمثلة .

إن الحادث الآتى هو من أبرز الحوادث لاختياره من بين الهوَسات الجَمْعِيَّة المُشْتَدَّة على جماعة كانت مؤلفةً من أفراد من كلِّ نوع ، أى كانت مشتملة على جهلاء وعلماء ، وقد روى ذلك الحادث ، اتفاقاً ، رُبَّانُ السفينة جُولِيان فيليكس في كتابه عن مجارى البحر بعد أن نشره في المجلة العلمية .

كانت البارجةُ لأبلِ بُول تطوف في البحر لتجد السفينة الحربية البيروسو التى فصلتها عاصفة شديدة ، وكان نهارٌ ، وكانت شمسٌ ، ويشير الراصدُ بغتةً إلى زورقٍ نُزِعَتْ صَواريه وقُلُوعُه ، وينظر الملاحون إلى الناحية المشار إليها ، ويُبصر جميع الرِّبَّانِيَّة والنَّوَائِي طَوْفاً مشحوناً بأناس وتجرُّهُ زوارقُ تُرْسِلُ إشاراتِ القَوْث ، ويُجهِّزُ أميرُ البحر دِيْمُوسَه زورقاً لِيَخْفَ إلى العَرَقِي ، ويرى ملاحو هذا الزورق وضباطه وهم يقتربون « جموعاً من الناس يضطربون ويمدُّون أيديهم ، ويسمع أولئك صوتاً مختلطاً يخرج من أناس كثيرين » ، ولما وَصَلَ أولئك إلى الطَّوْف وجدوا أنفسهم تجاه بضعة أغصان مُعْطَاة بأوراق مقطوعة من الشاطئ القريب ، فأمام هذه الحقيقة المحسوسة زال الهوَس .

ويكشف هذا المثالُ بوضوحٍ عن جهازِ الهَوَسِ الجَمْعِيِّ كما بيَّناه ، فمن جهةٍ ترى جماعةً في حالِ انتباهٍ انتظاريٍّ ، ومن جهةٍ أخرى ترى تلقيناً قام به الراصد وهو يُشير إلى زورقٍ نُزِعَتْ صَوَارِيه وَقُلُوعُهُ في البحر فيسرى هذا التلقين بالعدوى إلى جميع الحضور من رَبَّابِيْنَةٍ ونَوَاتٍ .

وليس على الجماعة أن تكون كثيرة العدد لتضمحلَّ فيها صفةُ رؤية الأشياء على الوجه الصحيح ولتقوم الهَوَسَاتُ مقامَ ما لا قرابةَ بينها وبينه من الحقائق ، فإذا ما اجتمع بضعة أشخاص أَلْقَوْا جماعةً ، وهنالك يكتسبون صفاتِ الجماعات في الموضوعات الخارجة عن دائرة اختصاصهم ولو كانوا من فطاحل العلماء ، وهنالك يزول ما عند كلٍّ واحد منهم من ملكة الملاحظة وروح النقد .

وقد أتانا العالمُ النفسِيُّ الأريبُ مسيو دافى بِمثالٍ طريفٍ نشرته مجلة « حَوَلِيَّاتِ العلوم النفسية » ، فنرى أنه خَلَقَ بأنْ نذكره في هذا الكتاب ، وهو أن مسيو دافى عقد اجتماعاً من الباحثين الممتازين ، وفيهم مستر والاس الذي هو من أبعد علماء إنكلترة صيتاً ، فأجرى أمامهم جميعَ ظواهر استحضر الأرواح الماثورة كتجسيم الأرواح والكتابة على السَّبُّورَةِ إلخ ، وذلك بعد أن تركهم يفحصون الأدواتَ ويضعون الخُتْمَ حيث يشاءون ، فلما أخذ من هؤلاء الحُضَّارِ المشهورين شهاداتٍ خطيةً قالوا فيها مُؤَكِّدِينَ إن الحوادث التي رَأَوْها مما لا يُنَالُ إلا بوسائلٍ فوق قدرة البشر أبان لهم أنها نتيجةُ شعوذة بسيطة إلى الغاية ، ومن قَوْلِ راوِي الحِكَايَةِ : « إن الذي أَدْعَى إلى الدَّهْشِ في بحثِ مسيو دافى ليس ما في حركاته نَفْسِيَّهَا من طرافة ، بل فَرَطُ الضعف في الشهادات التي خَطَّها شهودٌ لم يَنْفُذُوا السَّرَّ ، فالشهود يمكنهم ، إذَنْ ، أن يَرَوْا قِصَصاً مُخْتَلَةً كثيرة على أنها واقعية ، مع أن النتيجة هي أنه لو

قَبِيلَ وصفُهُم على أنه صحيح لتعذر إيضاح ما يَصِفُونَهُ من الحوادث بالشعوذة ، وإن الطرق التي ابتدعها مسيو داثي هي من البساطة بحيث يَحَارُ المرء من إقدامه على استخدامها ، غير أنه كان لمسيو داثي من السلطان على روح الجماعة ما استطاع به أن يجعلها ترى ما لم تكن لترى » ، ألا إن ذلك هو سلطان المُنَوِّم على المُنَوِّم ، ولكنك إذا رأيت حكم هذا السلطان يَسْرِي على ذوى النفوس العالية التي حُدِّرَتْ مُقَدِّمًا أبصرت السهولة التي تَهِمُّ بها الجماعاتُ العادية .

والأمثلة التي هي من ذلك النوع لا تُحصى ، ومنها أن الجرائد رَوَتْ منذ بضع سنين قصةَ الطفلتين الغريقتين اللتين صار انتشالهما من نهر السَّيْنِ ، فهاتان الابنتان قد عُرِفَتَا في بدء الأمر من قَبْلِ بضعة نَفَرٍ من الشهود معرفةً قاطعةً ، ولم يَبْقَ في نفس قاضى التحقيق أىُّ شكٍّ في أمرهما تجاه شهادة أولئك الشهود المتطابقة الموكدة فأصدر وثيقةً بموتهما ، وفيما أخذ الناس يَدْفِنُونَهُمَا عُرِفَ مصادفةً أن الضحيتين المُفْتَرَضَتَيْنِ لا تزالان من الأحياء وأنه لم يكن بينهما وبين الغريقتين سوى شَبَهٍ بعيد ، والأمرُ هنا ، كما في كثير من الأمثلة المذكورة آنفًا ، هو أن توكيد الشاهد الأول ، الذى ذهب فريسةَ الوَهْم ، كَفَى لتلقيّن الآخرين .

وفى أحوال مماثلة ، كذلك يكون بدء التلقيّن على الدوام وَهْمًا ناشئًا فى شخص بما يذكره هذا الشخص ذكرًا مبهمًا ، ثم يَسْرِي هذا الوَهْمُ الأول بالعدوى الموكدة ، فإذا كان المُشَاهِدُ الأول سريعَ الانفعال كفاه أن تكون الجُثَّةُ ذات سِمَةٍ خاصة ، كندبة أو رَقْشَةٍ ، لتُوْحَى إليه بصورة شخص آخر ، وذلك مع عدم وجود أىِّ شَبَهٍ آخر ، وهنالك تغدو الصورة المُوْحَى بها نَوَاطِلَ تَبَلُّرٍ مستحوذةً على دائرة الإدراك مُعْطَلَةً لكلِّ مَلَكَةٍ نقدٍ ، ويعود الشئ الذى يراه المُشَاهِدُ إذ ذاك غيرَ

الشيء نفسه ، بل صورةً مستحضرة في النفس ، وعلى هذا الوجه تُفسَّر المعارف المغلوط فيها عن جُثث الأولاد من قِبَل أمهاتهم ، كالحادث الآتي الذي وقع منذ زمن فيتجلى فيه وجهها التلقين الذي ذكرتُ جهازه فيما تقدم :

« عَرَفَ الولدَ ولدَ آخرَ معرفةً خاطئةً ، فأدت هذه المعرفة إلى سلسلة من المعارف الخاطئة مثلها إذ ذاك .

» وَحَدَّثَ أمرٌ غريب إلى الغاية ، فقد عَرَفَ الولد في اليوم التالي تلميذ فصرخت امرأةٌ قائلةً : « رَبَّاهُ ، إنه ولدى ! » .

» وَتُدْخِلُ الأمُّ قَرْيَةً إلى الجُثَّة وتُفحص ثيابها وترى نَدْبَةً على الجبين فتقول : « هذا هو ولدى المسكين الذي قُفِدَ منذ يوليه الأخير ، لقد سُرِقَ مني ، لقد قُتِلَ ! » .

« كَانَتْ تلك المرأةُ بَوَّابَةً بِشارع فور ، وكان اسمها شَفَانْدِرِه ، وَيُؤْتَى بِسِلْفِهَا فيقول : « هذا هو فيليب الصغير ! » ، وَيَعْرِفُ جميع سكان الشارع فيليب شَفَانْدِرِه في الولد ، وذلك فضلاً عن معلمه الخاص في المدرسة الذي عَدَّ التَّيْمَةَ سِمَةً .

« وَكَانَ الجيران والسُّلَفُ ومعلم المدرسة والأُمُّ على ضلال ، فلما مَرَّتْ سِتَّةُ أسابيعَ عُرِفَتْ حقيقة الولد ، أى ظهر أنه من أهل بوردو وأنه قُتِلَ في بوردو فأنت به شركات النقل إلى باريس ^(١) » .

ولنلاحظ أن تلك المعارف هي من عمل النساء والأولاد على العموم ، أى من صنع أكثر الناس استعداداً للتأثر ، وهي تدلُّ على ما يمكن أن يكون لمثل هذه

(١) انظر إلى عدد جريدة لأكير الصادر في ٢١ من أبريل سنة ١٨٩٥ .

الشهادات من القيمة أمام القضاء ، وتوكيدات الأولاد على الخصوص هي التي يجب ألاّ يُستشهد بها ، ويُكرّر القضاة قولهم الشائع إن مَنْ يكون في تلك السن لا يكذب ، فلو كانت لديهم ثقافة في علم النفس أوسع مما هم عليه لوجدوا أنه يكذب في تلك السن على الدوام تقريباً ، ويكون الكذب في هذه الحال غير آثم لاريب ، ولكنه لا يخرج عن أنه كذب ، والأجدر أن يُبني تحريم المتهم على أحد وجهي النقد : الطغراء والنقش ، مما على شهادة صبي كما يُضنع كثيراً .

وإذا ما عدنا إلى مشاهدات الجماعات وجدناها أكثر المشاهدات خطأً ، وأنها في الغالب وليدة وهم بسيط يعتور شخصاً فيلقنه الآخرون بالعدوى . وما لا يُحصى من الوقائع يدلّ على ما يجب من الحذر التام تجاه شهادة الجماعات ، فقد حضر ألوف الرجال سحلة الفرسان الشهيرة في معركة سيدان ، ويستحيل ، مع ذلك ، أن يُعرف قائدُها بسبب شهادات العيان المتناقضة ، وقد أثبت القائد الإنكليزيّ ولّسلي في كتاب حديث أن أفدح الأغاليط اقترفت حتى الآن حول أهمّ الوقائع في معركة واترلو على ما كان من تحقيق مئات الشهود لها^(١) . وأقول مُكرّراً إن جميع هذه الأمثلة تدلّ على ضعف قيمة شهادة الجماعات ،

(١) أنعرف كيف حدثت واقعة واحدة بالضبط ؟ إنني أشك في ذلك ، أجل ، قد نعرف من كان غالباً ومن كان مغلوباً ، ولا نعرف أكثر من هذا على ما يحتمل ، وما رواه مسيو داركور ، وهو ممثل وشاهد ، عن معركة سولفرينو يمكن تطبيقه على جميع المعارك ، فقد قال : « يدون القادة تقاريرهم الرسمية بعد أن يكون قد أثارهم مئات الشهود ، ويعدل الضباط الموكل إليهم تبليغ الأوامر تلك الوثائق ويكتبون صيغتها النهائية ، ويجادل رئيس أركان الحرب في هذه الصيغة ويعيد كتابتها ويعرض ذلك على القائد العام فيصيح هذا القائد قائلاً : « أتم مخطئون خطأً مطلقاً » ، فيستبدل بها صيغة جديدة ، وبذلك لا يبقى شيء من التقرير الأصلي » ، ويتخذ مسيو داركو ذلك دليلاً على استحالة تقرير الحقيقة في أكثر الحوادث تأثيراً وأحسنها مشاهدة .

وتُدْخِلُ رسائلُ المنطق إجماعَ عدد كبير من الشهود إلى فصل الأدلة التي هي أصحُّ ما يكون في إثبات أمر ، غير أن مانعَ رفه من روح الجماعات يدلُّ على درجة تطرُّق الوهم إلى تلك الرسائل في ذلك ، والحقُّ أن أشدَّ ما يُشكُّ فيه من الحوادث هو ما يكون قد شاهده أكبر عدد من الناس ، والقولُ إن الحادث الواحد قد شاهده ألوف الشهود في وقت واحد يعني أن الحادث الحقيقيَّ يختلف اختلافاً كبيراً عما اتفق عليه أولئك الشهود .

ومما تقدم يُرى بوضوح وجوب عدِّ كُتب التاريخ كُتباً في الخيال الصَّرف ، فهذه هي مجموعة أفاصيص كُتُيبَةٍ عن حوادث لم تُشاهد جيداً ، فأضيفت إليها إيضاحاتٌ مُختلقة بعد حين ، ولو لم يترك لنا الماضي آثاره الأدبية والفنية والمعمارية ما عرفنا عنه شيئاً حقيقياً ، أفنُعرف كلمةً صحيحة واحدة عن حياة أعظم الرجال الذين مثَّلوا شأنًا كبيراً في البشرية كِهَرُكُلْ وبُدْهَة (بوذا) وعيسى ومحمد^(١) ؟ كلا ، على ما يحتمل ، وليست حياة هؤلاء مما نبالي به كثيراً مع ذلك ، فالذين أُثِّروا في الجماعات هم الأبطال الأسطوريون ، لا الأبطال الحقيقيون .

ومن دواعي الأسف أن تكون الأفاصيص عاجلة من أيِّ ثبات ، فخيالُ الجماعات يُحوِّلُها تحويلاً مستمراً بحسب الأزمنة ، والعروقِ على الخصوص ، والفرق عظيمٌ بين يَهُوَه التوراة السِّفَّاح وإِلَه المحبة : إِلَه القديسة تيريز ، ولا تَحِد وجهٌ شبه

(١) إذا جاز مثل ذلك القول عن حياة صاحب دين غير السيد الرسول فإنه لا يشمل حياة السيد الرسول حتماً ، حتى إن المؤلف قد قال في كتابه « حضارات الهند » الجليل الذي وضعه سنة ١٨٨٧ فنقلناه إلى العربية : « إذا استثنين محمدًا لم تجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاقاً صحيحاً على ما يحتمل » ، وإلى مثل هذا ذهب المؤلف في كتابه الرائع « حياة الحقائق » الذي وضعه في سنة ١٩١٤ فنقلناه إلى العربية أيضاً ، فيكون قول المؤلف في كتاب « روح الجماعات » الذي وضعه سنة ١٨٩٥ ، أي بين ذينك السكتين خطأ أو من قبيل الانسياق . (المترجم)

بين بُدْهَة العبود في الصين و بُدْهَة الذى يُقَدَّس له في الهند .

ولا ضرورة إلى مرور قرون على الأبطال حتى يُحوَّل خيال الجماعات قِصَّتْهم ،
فقد يقع هذا التحويل في بضع سنين أحياناً ، ومما رأيناه في أيامنا أن قِصَّةَ عَظِيم من
عطاء التاريخ قد تحولت عِدَّةَ مراتٍ في أَقَلِّ من خمسين سنة ، وبيانُ الأمر أن
نابليون أصبح في عهد البُورْ بُون رجلاً راعياً مُحِبّاً للإنسانية كريماً صديقاً للضعفاء
فَوَجَّبَ على رأى الشعراء أن يَحْفَظَ هؤلاء الضعفاء ذكراه في أكوأخهم زمناً
طويلاً ، فلما انقضت ثلاثون سنة عُدَّ هذا البطلُ الحليم مستبدّاً سفاحاً غاصباً للسلطة
والحرية مضحياً بثلاثة ملايين من الرجال في سبيل طموحه فقط ، واليوم تتحول هذه
الأسطورة أيضاً ، فإذا ماضت بضعة عشر من القرون غدا من المحتمل أن يَشْكَّ
علماء المستقبل في ظهور ذلك البطل تجاه هذه الأقاصيص المتناقضة ، كما نشكُّ أحياناً
في ظهور بُدْهَة ، فلا يَرَوْن فيه إلا رجلاً من رجال الأساطير أو صورةً مُجَسِّمةً
لهزْ كُول ، ومما لا ريب فيه أن أولئك العلماء يَجِدُون في ذلك الشكَّ ما يَتَسَلَّوْنَ به
لما يكون لديهم من اطلاع على روح الجماعات أكثر مما في الوقت الحاضر فيعرفون
أن التاريخ لا يمكنه غيرُ تخليد الأساطير .

٣ — غُلُوُّ مشاعر الجماعات وبساطتها

لمشاعر الجماعة صفة البساطة وصفة الغُلُوِّ ، طيبة كانت تلك المشاعرُ أو سيئة ،
والفردُ في الجماعة من هذه الناحية ، كما في غيرها ، يَدْنُو من الفطرين ، والفردُ
أنتد ، إذ يكون بعيداً من التنوع ، يَنظُرُ إلى الأمور جملةً ولا يَعْرِفُ الانتقال ، وفي
الجماعة يشتدُّ غُلُوُّ المشاعر بالأمر القائل إن المشاعر إذ تنتشر سريعاً بالتلقين والعدوى
يزيدها قوةً ما يتفق لها من قبول .

وما في مشاعر الجماعات من بساطة وغلُوّ فيصونها من الشك والتردد ، والجماعات تُسَلِّك طريقَ التطرف من فَوْرها كالنساء ، وما يساورها من رَيْب فلا يُعَمُّ أن ينقلب إلى بَدَاهة قاطعة ، وما يبقى راقداً في الشخص وهو منفردٌ من نفور ولَوَم فلا يلبث أن يصير حقداً ضارياً لديه وهو في الجماعة .

وعُنفُ المشاعر في الجماعات يزيد شدةً في المتخالف منها على الخصوص لفقدان المسؤولية ، ويعظمُ يقين الجماعة بعدم العقاب كلما زادت عدداً ، وما توحى به الكثرة من سلطان موقت كبير فيجعل من الممكن أن تنال الجماعةُ مشاعرَ وأن تأتيَ أعمالاً تستحيل على الشخص المنفرد ، وفي الجماعات يتحرر الغبيُّ والجاهل والحسود من الشعور بما تقوم القوة الجافية الموقته الواسعة مقامه من القصر والعجز .

وما في الجماعات من غُلُوّ فيتجلى مع الأسف في المشاعر الرديئة في الغالب ، والمشاعرُ الرديئة هي بقية غرائز الإنسان الابتدائي الموروثة التي يحل على زجرها خوفُ الإنسان المنفرد المسؤول من العقاب ، وبهذا تُفسر سهولة اقتراف الجماعات لأسوأ أعمال العنف .

والجماعاتُ إذا ما اُئِنَّتْ بمهارةٍ غَدَتْ قَادِرَةٌ عَلَى البطولة والإخلاص ، والجماعاتُ أقدر على ذلك من الشخص وهو منفرد ، وسيتاح لنا الرجوع إلى هذه الناحية عند ما ندرس أخلاق الجماعات عما قليل .

والجماعة إذ كانت لا تتأثر بسوى الشاعر المتطرفة وجب على الخطيب الذي يودُّ إغواءها أن يُفْرِط في التوكيدات العنيفة ، وإن المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم محاولة الدليل العقليِّ وسائلُ بَرَهَنَةٍ مألوفة لدى خطباء الاجتماعات الشعبية .

والجماعة تطالب بـغُلُوٍّ في مشاعر أبطالها أيضاً ، فيجب أن يُغَرَّق في مبالغة صفاتهم

وفضائلهم على الدوام ، وفي المسرح تطلب الجماعة من بطل الرواية ما لا يُزاول في الحياة أبداً من الفضائل والشجاعة والأخلاق .

ومن الصواب أن حُدِّثَ عن بَصَرِيَّاتٍ خاصة بالمسرح ، ولا ريب في وجودها ، بيد أنه لا صِلَةَ بين قواعدها وبين المنطق والنوق السليم في الغالب ، ولا ريب في أن فنَّ مخاطبة الجماعات هو من طراز منحط ، بَيِّد أنه يتطلب أهلياتٍ من نوع خاص ، وأحياناً يُحَارُ في تقدير نجاح بعض الروايات عند قراءتها ، وعموماً يكون مديرو المسارح أنفسهم مترددين في أمر نجاحها عند ما يتسلمونها لِمَا يتطلبه حكمهم في ذلك مِنْ تَحَوُّلٍ إلى جماعة^(١) ، ولو أُتِيحَ لنا التوسُّع في الموضوع لَسَهَّلَ علينا أن نُثَبِّتَ به أيضاً تأثير العرق العظيم ، وذلك لأن الرواية التي تُثِيرُ حماسة جماعةٍ في بلد تظلُّ في بعض الأحيان غير ذات نصيب من النجاح في بلد آخر أو أنها لا تتأَلَّ في غير نجاح إكراهي أو اصطلاحى ، وذلك لِمَا ليس فيها من عواملٍ قادرةٍ على تحريك الجمهور الجديد .

ولا احتياج إلى أن نضيف إلى ما تقدم قولنا إن غُلُوَّ الجماعات يتجلى في المشاعر ، لا في العقل ، والشخص إذا ما كان في الجماعة انحطَّ مستواه العقلي إلى أبعد حدٍّ كما بَيَّنَّتْ ذلك آتفاً ، ومثلُ ذلك ما حَقَّقَهُ مسيو تارد حيناً بحث في جرائم الجماعات ، ولذا كان صعود الجماعات عالياً أو هبوطها سافلاً في دائرة المشاعر فقط .

(١) ذلك ما ندرِكُ به السبب في أن بعض الروايات التي يرفضها جميع مديري المسرح تتأَلَّ نجاحاً عجيبيّاً إذا ما قُيِسَ لها أن تمثل انخفاً ، وليس بمجهول أمر نجاح رواية « في سبيل التاج » التي وضعها مسيو كويه فرفضها مديرو المسارح الأولى مدة عشر سنين مع ما لمؤلفها من الشهرة ، ومن ذلك ، أيضاً ، أمر رواية « عرابة شارلي » التي مثلت على ثقة صراف فأُتِيحَ لها ، بعد أن رفضت عدة مرات ، أن تشخص مثنى مرة في فرنسا وأكثر من ألف مرة في إنكلترة ، فلولا إيضاحنا السابق فيما عليه مديرو المسرح من عدم التحول النفسى إلى جماعة لتعذر علينا أن نثبِنَ علة صدور مثل تلك الأضاليل عن أشخاص متخصصين بهمهم كثيراً ألا يفتروا أغاليط كتلك .

٤ - عدم تسامح الجماعات وتحكمها ومحافظةها

بما أن الجماعات لا تعرف غير المشاعر البسيطة المتطرفة فإنها ترضى بما تلقنه من الآراء والأفكار والمعتقدات أو ترفضه دفعة واحدة ، وهي تعدّه حقائق مطلقة أو أغاليط مطلقة ، وهذا هو أمر المعتقدات التي هي وليدة التقليد لا العقل ، وكلّ يعلم عدم تسامح المعتقدات الدينية ودرجة ما لها من السلطان المطلق على النفوس .

وإذ ليس لدى الجماعة شكّ فيما تعتقده صواباً أو خطأ ، وإذ تشعر الجماعة بقوتها من ناحية أخرى ، فإنها تكون متحكمة غير متسامحة ، والجماعة لا تطبق انخلاف والجدل أبداً مع احتمال الفرد لها ، وأقلّ مخالفة في الاجتماعات العامة تصدر عن الخطيب تقابل بأصوات الغضب وأعنف الشتائم ، فإذا أصرّ الخطيب قليلاً على موقفه ضرب وطرد ، وما أكثر ما يكون القتل نصيب المخالف لولا وجود رجال الشرطة المزعج .

والتحكم وعدم التسامح أمران عامّان في جميع الجماعات ، ولكن على درجات مختلفة ، وهنا يتجلى مبدأ العرق المهيمن على مشاعر الناس وأفكارهم ، والتحكم وعدم التسامح خلقان ناميان في الأمم اللاتينية على الخصوص ، وهما يبلغان في هذه الأمم من الشدة ما يُقوّضان به مشاعر الاستقلال الشخصي القوية كثيراً لدى الأنغلو سكسون ، ولا تعباً الجماعات اللاتينية إلا بالاستقلال الجمعي لطاقتها ، وظاهرة هذا الاستقلال هي الاحتياج إلى إخضاع المخالفين لمعتقدات هذه الجماعات بعنف في الحال ، ولم يستطع اليعاقبة في كلّ جيل منذ دور محاكم التفتيش أن يرفعوا لدى الأمم اللاتينية إلى مبدأ في الحرية غير ذلك .

والتحكم وعدم التسامح من أوضح المشاعر في الجماعات ، والجماعات تتمثلها وترضاها بسهولة عند فرضها ، والجماعات تحترم القوة ولا تتأثر بالصلاح إلا قليلاً لعدّها الصلاح وجهاً من وجوه الضعف ، والجماعات لا تميل بقلبها إلى ذوى الحلم من السادة ، بل إلى الطغاة الذين يهيمنون عليها بشدة ، وهؤلاء الطغاة تُقيم الجماعات أعلى التماثيل على الدوام ، وإذا كانت الجماعات تدّوس أحد المستبدّين الذين سقطوا فلأن هذا المستبد قد سلطانه فدخل زمرة الضعفاء الذين يزدرؤون فلا يخشون ، ومثال البطل العزيز على الجماعات هو من يكون على نمط قيصر ، فهو يبهّره بريش تاجه ويُسخرهم لسلطانه ويخيفهم بسيفه .

والجماعة ، وهي مستعدة للانتفاض على السلطة الضعيفة في كل وقت ، ترّكع بدناءة أمام السلطة القوية ، وإذا كان عمل السلطة متقطعاً فإن الجماعة تنتقل بالتناوب من القوضى إلى الخضوع ومن الخضوع إلى القوضى لما تعلّم من تطرّف مشاعرها دوماً . ومن جهل روح الجماعات أن تُعتدّ سيطرة الغرائز الثورية عليها ، والوهم في ذلك يتطرق إلينا من اندفاعاتها ، وما يصدر عنها من عصيان وتخريب فهو موقت على الدوام ، واللا شعور يهيمن على الجماعات ، ومن ثمّ تخضع الجماعات لعامل الوراثة المتأصل فتبدو محافظة إلى الغاية ، والجماعات إذا ما تركت وشأنها بدت تعية من القوضى فسارت بغريزتها نحو العبودية ، ومن ذلك أن أشدّ اليعاقبة غطرسة واستعصاء هتفوا بحرارة لبونا نارت حينما قضى على جميع الحريات وكشّر عن أنيابه .

ويظلّ تاريخ الثورات الشعبية غير مدرك تقريباً إذا جهل عُق ما في الجماعات من غرائز المحافظة ، أجل ، ترغب الجماعات في تغيير أسماء نُظُمها فتقوم بأعنف الثورات للوصول إلى هذا التغيير ، غير أن أساس هذه النُظُم هو عنوان احتياجات

المرق الموروثة فتعود هذه النظم إلى ذلك الأساس على الدوام ، ولا يتناول تقلبُ الجماعات المستمر سوى الأمور السطحية ، والجماعاتُ هي في الحقيقة ذاتُ غرائزٍ محافظةٍ متأصلة ، والجماعاتُ تحترم التقاليدَ احتراماً دينياً كالقطريين ، فتمتعت ، غير شاعرة ، كلَّ تجدد مؤدٍ إلى تغيير أحوال حياتها الحقيقية ، ولو كان سلطان الديموقراطيات الحاضر موجوداً وقت اختراع الصناعات الميكانيكية والبخار والخطوط الحديدية لتعذر تحقيق هذه الاختراعات أو لكانت الثورات المكررة ثمناً لها ، فمن حُسن حظ تقدم الحضارة أن سلطانَ الجماعات لم يظهر إلا بعد أن تمت الاكتشافات العلمية والصناعية الكبيرة .

٥ — أخلاقُ الجماعات

إذا ما قصدنا بكلمة الأخلاق احترامَ بعض العقود الاجتماعية على الدوام وقمعَ اندفاعات الأثرة باستمرارٍ كان من الواضح أن الجماعات هي من شدة الاندفاع والتقلب ما لا تتأثر معه بالأخلاق ، ولكننا إذا أردنا بذلك ظهورَ بعض الصفات ظهوراً موقتاً كما نكار الذات والإخلاص والتزهد عن الغرض والتضحية بالنفس والميل إلى الإنصاف أمكننا أن نقول إن الجماعاتِ أهلٌ للانصاف بأخلاق رفيعة إلى الغاية .

وعلماء النفس القليلون الذين بحثوا في الجماعات لم يدرسوا أمرها إلا من حيث أعمالها الإجرامية ، وهم إذا أبصروا كثرة هذه الأعمال وجدوا الجماعات في مستوى منحط جداً .

والجماعاتُ تقوم بأعمال مُصدقةٍ لما يذهب إليه أولئك العلماء لا ريب ، ولكن

لماذا ؟ ذلك لأن غرائز الوحش المخربة هي رواسب الأجيال الأولى الراقدة في أعماق نفس كل واحد منا ، ومن الخطر أن يُروى المرء وهو منفردٌ غليل تلك الغرائز على حين يمنحه استغراق جماعة غير مسؤولة له وأمنه من العقاب بذلك كل حرية في اتباع تلك الغرائز ، ونحن إذ لم نَسْطِيع أن نمارس تلك الغرائز المُخربة ضد أمثالنا فإننا نفتقر في إروائنا لها بمارستها ضد الحيوانات ، فمن مصدر واحد يُشتق الكلف بالصيد وضرأ الجماعات ، والجماعة حين تُهشم إحدى الضحايا العزل تدل على أنها ذات قسوة بالغة الندالة ، بيد أن الفيلسوف يرى في ذلك قرابة وثيقة بين تلك الجماعة والصيادين الذين يجتمعون زمراً زُمراً ليتلذذوا بمشاهدة وغل تمزقه كلابهم . وإذا كانت الجماعة قادرة على القتل والحرق وكل نوع من الجرائم فإنها أهل أيضاً للإتيان بأعمال التضحية والتنزه عن الغرض التي هي أسنى كثيراً مما يمكن الشخص أن يصنعه منها وهو منفرد ، والشخص في الجماعة على الخصوص هو الذي يُطالب بالسير ، وذلك باستدعاء مشاعر المجد والشرف والدين والوطن ، ومن ينظر إلى التاريخ يجدّه مملوءاً بأمثلة للحروب الصليبية ومتطوعي سنة ١٧٩٣ ، والجماعات وحدها هي التي يصنّف عنها أعظم ما يكون من الإخلاص والخلو من المآرب ، وما أكثر الجماعات التي ضحّت بنفسها بأسلة في سبيل مالا تكاد تفقه معناه من معتقدات ومبادئ ، والجماعات تقوم بإضرابات إطاعة لأمر أكثر من طمعها في زيادة أجر ، ومن النادر أن تكون المنفعة الشخصية عاملاً قوياً لدى الجماعات ، على حين تبدو العامل الوحيد تقريباً لدى الشخص وهو منفرد ، وليست المنفعة الشخصية بالحقيقة هي التي سيرت الجوع فيما يستعصى على ذكائها أن يُدركه من الحروب التي لاتعدّ فدعت نفسها تسقط في ميدانها بسهولة كالقنابر التي تختلها مرآة الصياد .

حتى إن أخط الناس يكتسبون في بعض الأحيان مبادئ خُلُقِيَّة وثيقة إذا ماتألفت منهم جماعة ، فما لاحظته تاي أن قَتْلَ سبتمبر وَضَعُوا على مِنْصَدَةِ اللِّجَانِ الثَّوْرِيَّةِ ما وَجَدُوهُ لدى ضحاياهم من المَحَافِظِ والخُلُقِ مع أنه كان يسهل عليهم أن يُخَفُّوهُ ، ولم تتناول الجماعةُ الصاخبة المتكاثرة البائسة ، التي استولت على قصر التويلرى في أثناء ثورة سنة ١٨٤٨ ، شيئاً من الأدوات التي كانت تبهرها والتي كانت الواحدة منها تكفي لإعاشتها أياماً كثيرة .

أجل ، إن تهذيب الجماعة للفرد ليس قاعدةً مُطَرِّدة ، بيد هذا التهذيب مما يُشَاهَدُ بكثرة حتى في أحوالٍ أَقَلَّ خطورةً من التي ذكرتها ، ففي المسرح الذي أُلْمِتْ إليه آنفاً تطالب الجماعةُ بطلَ الرواية بأعلى الفضائل ، ويبدو الحُضُور ذوى حِشْمَةٍ كبيرة في بعض الأحيان ولو كانوا من عناصرٍ منحطةٍ ، فيتذمر الشَّهْوَانُ المُخْتَرِفُ والقَوَّادُ والخَلِيعُ المُذْمَنُ ، في الغالب ، إذا مارأوا منظرًا منافياً للحياء أو سَمِعُوا قولاً طائشاً مما يُغْضُون عنه في محادثاتهم العادية .

ترى مما تقدم أن الجماعات إذا كانت تسير مع غرائزها المنحطة في الغالب فإنها تأتي أعمالاً خُلُقِيَّة عالية في بعض الأحيان ، وإذا كان التَّنَزُّهُ عن الغرض والتسليمُ والإخلاص المطلق لهدفٍ وَهْمِيٍّ أو حَقِيقِيٍّ فضائلَ خُلُقِيَّةً أمكننا أن نقول إن الجماعات تَحُوزُ هذه الفضائل أحياناً إلى حَدٍّ يَبْدُرُ أن ينتهى إليه أكثرُ الفلاسفة حكمةً ، ولا ضَيْرَ في أن تكون ممارسة الجماعات لهذه الفضائل أمراً غير شعورى ، فلو كانت الجماعات تتعقل في أكثر الأوقات فتتنظرُ إلى الأمور من خلال مصالحها المباشرة ما تقدمت حضارة على وجه الأرض على ما يحتمل ولَعَطِلَتْ البشرية من التاريخ .

الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعلقاتها وخيالاتها

(١) أفكار الجماعات — الأفكار الأساسية والأفكار السابعة — كيف تجتمع الأفكار المتناقضة — ما يجب أن يعتور الأفكار العالية من التحول لتستمرها الجماعات — شأن الأفكار الاجتماعي مستقل عما تنطوي عليه هذه الأفكار من الحقائق — (٢) تعقل الجماعات — لا تتأثر الجماعات بالمعقولات — تعقل الجماعات منحط كثيراً على الدوام — ما تشترك فيه الجماعات من الأفكار لا يتشابه ولا يتوارد إلا في الظاهر — (٣) خيال الجماعات — قوة خيال الجماعات — تفكر الجماعات بالخيالات ، وتتوارد هذه الخيالات بغير رابطة — ناحية الأمور الباهرة هي التي تبهر الجماعات على الخصوص — الباهر والأسطوري هما ركنا الحضارات الحقيقيان — الخيال الشعبي كان أساس سلطان رجال السياسة على الدوام — كيف تبدو الأمور التي يمكنها أن تؤثر في خيال الجماعات .

١ — أفكار الجماعات

درّسنا في كتاب سابق شأن الأفكار في تطور الأمم فأثبتنا أن كل حضارة تُستق من أفكار أساسية قليلة يندُر أن تتجدد ، ومما عرضناه فيه كيفية استقرار هذه المبادئ في روح الجماعات ودرجة صعوبة نفوذها فيها وما يتفق لها من القوة بعد أن تنفذها ، ، ومما بيّناه فيه أيضاً أن أعظم الاضطرابات التاريخية تُستق في الغالب من تحوّل تلك الأفكار .

وقد عاجلنا ذلك الموضوع بما فيه الكفاية فلا نعود إليه مقتصرين على بضع

كلمات عن الأفكار التي تستمرها الجماعات وعن الأوجه التي تتمثلها بها .
يمكن تقسيم تلك الأفكار إلى قسمين ، فنضع في القسم الأول الأفكار العَرَضِيَّةَ
العابرة التي هي وليدة مؤثرات الساعة الزاهنة كالولوع بفرد أو بمذهب مثلاً ، ونضع
في القسم الثاني الأفكار الأساسية التي تمنُّ البيئة والوراثة والرأى عليها بثبات عظيم ،
كالأفكار الدينية فيما مضى والأفكار الديمقراطية والاجتماعية في الوقت الحاضر .

وقد تُشَبَّه الأفكارُ الأساسيةُ بمياه النهر التي تجري وئيدةً في مجراه وتُشَبَّه الأفكارُ
العَرَضِيَّةُ بالأمواج الصغيرة المتحولة دوماً المضطربة على سطحه والتي تكون باديةً
أكثر من سِرِّ النهر نفسه مع عدم أهميتها الحقيقية .

وفي أيامنا تظهر الأفكار الأساسية العظيمة ، التي عاش عليها أجدادنا ، مضطربةً
مقداراً فقداً كما تظهر النظم التي تقوم عليها مزلة زلزلة عميقة ، ويتألف في الزمن
الحالي كثير من تلك الأفكار الصغيرة العَرَضِيَّة التي تكلمت عنها منذ هُنيئة ،
بيد أن القليل منها يكتسب نفوذاً عظيماً كما يلوح .

ومهما تكن الأفكار التي تُلقنها الجماعات لا تكون مؤثرة إلا إذا اكتسبت شكلاً
بسيطاً جداً وتمثلت في نفسها على صورة خيالات ، ولا تجد أية رابطة تشابه منطقية
أو أية رابطة توارد بين هذه الأفكار الخيالية ، وبعض هذه الأفكار الخيالية قد
يقوم مقام بعض كزجاجات المصباح السحري التي يُخْرِجها المَشْعُودُ واحدة بعد
الأخرى من العلبة التي تكون مُنصَّدة فيها ، ويمكن أن يُرى في الجماعات ، إذن ،
تعاقبُ أشد الأفكار تناقضاً ، وتكون الجماعات بحسب مصادفات الحين تحت
تأثير أحد مختلف الأفكار المخزونة في ذهنها فتأني أشد الأعمال تبايناً ، وما تكون
عليه الجماعات من فُقدان روح النقد يحُول دون شعورها بالمتناقضات .

وليس ذلك الأمر خاصاً بالجماعات ، بل يُشاهد أيضاً لدى كثير من الأشخاص المنفردين ، لا بين الفطريين وحدهم ، بل عند جميع الذين يشابهون الفطريين وفق ناحية من روحهم كأشباع الإيمان الديني القوي مثلاً ، ومن ذلك أنى شاهدت هذه الظاهرة لدى الهندوس المثقفين الذين تَخَرَّجُوا في جامعاتنا الأوربية ونالوا جميع شهاداتها ، أى أنى وجدت طبقة من الأفكار الغربية تنضدت ، من غير إفساد ، على أساس مالا قرابة بينها وبينه من أفكارهم الدينية أو الاجتماعية ، فكلما الأفكار ينبدو في مَوْكَبِ خُطْبِ الهندوس الخاص بحسب مصادفات الوقت ، فيتجلى في الشخص نفسه أشدَّ المتناقضات وضوحاً ، وهذه المتناقضات هي في الظاهر أكثر مما في الحقيقة ، وذلك لأن الأفكار الموروثة وحدها هي من القوة في الشخص المنفرد ما تغدو به عوامل سَيْرِ حَقِيقَةٍ ، والأعمال لا تكون متناقضة في الحين بعد الحين تناقضاً تاماً إلا إذا وُجِدَ الإنسان بين اندفاعات وراثية مختلفة بفعل التوالد ، ومما لا طائل تحته أن أطيل القول هنا عن هذه الظواهر على ما لها من أهمية نفسية عظيمة ، وما على المرء إلا أن يقضي عشر سنوات في السياحة والملاحظة ليدركها على ما أرى .

والأفكار إذ لا تستمرُّها الجماعات إلا بعد أن تَلْبَسَ شكلاً بسيطاً إلى الغاية وجب أن تتغير تغيراً تاماً في الغالب لتصبح شعبيةً ، ونحن إذا رَجَعْنَا البصرَ إلى الأفكار الفلسفية أو العلمية التي هي على شيء من الشمو رأينا عمق ما تقتضيه من التغير لتَهَيِّطَ من طبقة إلى طبقة حتى تَبْلُغَ مستوى الجماعات ، وتلك التغيرات تتوقف ، على الخصوص ، على العرق الذي تنتسب إليه هذه الجماعات ، غير أن تلك التغيرات تكون مُقَلَّلةً مُبَسَّطَةً على الدوام ، ولو نُظِرَ إلى الأفكار من الناحية الاجتماعية ما وُجِدَتْ لها سلسلة مراتب ، أى لم يُوجَدَ منها ما هو أرق من غيره ، فالفكرُ بوصوله

إلى الجماعات وقدرته على تحريكها يكون قد عَطِلَ من كلِّ ما فيه رفَعته وعظُمته .
على أنه لا أهمية لقيمة الفكر المتسلسلة ، وتنتائج الفكر وحدها هي الجديرةُ بالاعتبار ،
فالحقُّ أن الأفكار النصرانية في القرون الوسطى والأفكار الديمقراطية في القرن
الأخير والأفكار الاجتماعية في الوقت الحاضر لم تَرْتَقِ كثيرًا ، ويمكن عَدُّها هزيلة
من الناحية الفلسفية ، وشأنها كان ، وسيكون ، عظيمًا مع ذلك ، وستَعُدُّ لطويل
زمنٍ بين العوامل الجوهرية في قيادة الدول

والفكرُ ، مع ما يعتوره من تغيرٍ تستمره الجماعات به ، لا يغدو مؤثرًا إلا إذا نَفَذَ
دائرةَ اللا شعور وأصبح من المشاعر بطرق مختلفة سندرسها في فصل آخر ، وهذا التحولُ
طويلٌ جدًا على العموم .

ولا نَظُنُّ أن صواب الفكر يكون ثابتًا بما يمكن أن ينشأ عنه حتى لدى ذوى
النفوس النيرة ، وهذا يبدو عند النظر إلى أن أوضح الأدلة ذو تأثير ضئيل في مُعْظَم
الناس ، نعم ، يمكن أن يَعْرِفَ الأمرَ البديهيَّ الساطعَ مستمعٌ مُتَقَفٌ ، غير أن هذا
المستمع لا يُعْتَمَدُ أن ينقاد غير شاعرٍ لمبادئه الأصلية ، فإذا ما لَقِيَتْه بعد بضعة أيام
وجدته يسوق إليك مجددًا براهينه القديمة بِصِيغَةٍ الأولى ، فالواقعُ أنه خاضعٌ لأفكار
سابقة أصبحت مشاعرَ ، وهذه الأفكار هي التي تَوَثَّرُ في عوامل أفعالنا وأقوالنا .

والفكرُ إذا ما انتهى بطرقٍ مختلفة إلى الرسوخ في روح الجماعات اكتسب قوةً
لا تقاوم وأسفر عن سلسلة من النتائج ، والأفكارُ الفلسفية التي نَجَمَتْ عنها الثورة الفرنسية
لم تتأصل في الروح الشعبية إلا بعد زمنٍ طويل ، وكلُّ ما كان لها من قوة قاهرة
عند ما استقرت بها ، وما كان من صَوْلَةِ شعبٍ بأشْرِهِ في سبيل المساواة الاجتماعية
وتحقيقِ الحقوق المجردة والحريات المِثَالِيَّة فقد ضعُف جميع العروش وقلَبَ العالمُ

الغربيَّ رأساً على عَقَب ، وفي عشرين سنة انقضَّ بعض الشعوب على بعض وعَرَفَتْ أوربة من المذابح ما يقاس بمذابح جنكيزخان وتيمورلنك ، وما كان لِيَبْدُو بأوضح من ذلك ما يُسْفِر عنه ثورانُ الأفكار القادرة على تغيير اتجاه المشاعر .

وإذا كان استقرار الأفكار بروح الجماعات يتطلب زمناً طويلاً فإن ما تتطلبه لتَخْرُجَ منها ليس أقلَّ طولاً من ذلك ، ولذا ترى الجماعات تتأخر عن العلماء والفلاسفة عِدَّةَ أجيال في ميدان الأفكار ، وجميع أقطاب السياسة يعلمون اليوم ما في الأفكار الأساسية المذكورة منذ هُنيئة من الخطأ ، غير أن هذه الأفكار لا تزال قوية إلى الغاية ، فترى هؤلاء الأقطاب مضطرين إلى الحكم وفق مبادئ عادوا لا يؤمنون بصحتها .

٢ — تَعَقُّلُ الجماعات

لا يجرى القول بأنه لا يُؤثِّرُ في الجماعات بالمعقولات على إطلاقه ، غير أن ما تتخذه الجماعات من البراهين وما تتأثر به منها يبدو من الناحية المنطقية من نوع هو من الانحطاط ما لا يُطْلَقُ به تعبيرُ المعقولات عليه إلا تَجَوُّزاً .

أَجَلْ ، يقوم ما لدى الجماعات من تَعَقُّلٍ منحطٍ على تناديات كالمعقولات الرفيعة ، بيد أنه ليس بين الأفكار المتنادية في الجماعات سوى روابط متشابهة أو متعاقبة في الظاهر ، فتسلسلُ هذه الأفكار كتسلسل أفكار الأسكيمة الذي يعلم بالتجربة أن الثلج وهو جسمٌ شفافٌ يذوب في القم فيَسْتَنْبِطُ من ذلك أن الزجاج وهو جسمٌ شفافٌ كذلك يجب أن يذوب في القم أيضاً ، أو كتسلسل أفكار الممجي الذي يُخَيَّلُ إليه أنه يَغْدُو شجاعاً إذا ما أكل قلبَ شجاع ،

أو كتسلسل أفكار العامل الذى يستغلُّ ربُّ العمل فيذهب إلى أن جميع أرباب العمل مُسْتَغْلُونَ .

وتقوم مُمَيِّزَاتُ المنطق الجمعى على تنادياتِ أمورٍ متباينة ليس بينها سوى صلات ظاهرة، وعلى التعميم الفُجائى لأحوال خاصة، وتنادياتٍ من هذا القبيل هى ما يوجبها فى الجماعات خطباء يَعْرِفُونَ قيادتها، وهؤلاء الخطباء وحدهم هم الذين يُؤَثِّرُونَ فيها، والجماعاتُ لا تُدْرِكُ سلسلةً وثيقة من المعقولات، ولذا يمكن القول بأن الجماعات لا تَتَعَقَلُ، أو أن تَعَقْلَهَا فاسدٌ، وأنه لا يُؤَثِّرُ فيها بالمعقول، نعم، إن ضَعْفَ بعض الخطب التى لها عظيمُ تأثيرٍ فى سامعيها يُشِيرُ الحَيِّرةَ أحياناً عند قراءتها، ولكنه يغيب عن البال أن تلك الخطبُ وُضِعَتْ لقيادة الجماعات، لا ليطالعبها الفلاسفة، والخطيبُ إذا ما كان وثيق الاتصال بالجماعة عِلِمَ كيف يُحْضِرُ من الصُّورِ ما يَفْتِنُهَا به، والخطيبُ إذا ما وُفِّقَ لذلك بَلَغَ غايته، ولا يَعْدِلُ مُجَلِّدٌ من الخطب بضعَ جُمْلَةٍ تُغْوِي ما يجب إقناعه من النفوس .

ومما لا طائل تحته أن نُضِيفَ إلى ما تقدم قولنا إن عَجَزَ الجماعات عن التعقل الصحيح يَنْزِعُ منها روح النقد، أى استعدادَ تمييز الخطأ من الصواب، أى صَوْنِ حُكْمٍ صحيح، وما تَرْضَى به الجماعات من الأحكام مفروضٌ غيرُ مُنَاقَشٍ فيه، والأفراد الذين لا يجاوزون مستوى الجماعات كثيرٌ، وتقوم السهولة التى تغدو بها بعض الآراء عامةً، على الخصوص، على عَجَزِ مُعْظَمِ الناس عن أن يكون لهم آراء خاصة قائمة على تَعَقُّلاتِهِم الذاتية .

٣ - خيال الجماعات

خيالُ الجماعات التصوريُّ ذو استعداد للتأثر العميق بجميع الموجودات التي لا أثر للتعقل فيها ، وللصور التي يُثيرها في روح الجماعات شخصٌ أو حادثٌ أو رُزءٌ من الأثر البعيد مالاُمور الواقعية ، والجماعاتُ تكون في حال النُّوم الذي يَقِفُ عقله لِحينٍ فتساور نفسه صورَ شديدة إلى الغاية فلا تُعَمُّ أن تتبدد عند التأمل ، والجماعاتُ إذ تُعْجِزُ عن التأمل والتعقل لا تُعرَفُ المستحيل ، والواقع أن أكثر الأشياء استحالةً أشدها وفقاً للنظر على العموم .

من أجل ذلك كان مافي الحوادث من النواحي الغريبة والأسطورية أشدَّ الأمور تأثيراً في الجماعات ، والغريبُ والأسطوريُّ بالحقيقة هما دعامتا الحضارة الحقيقيتان ، وفي التاريخ مثل الظاهريِّ دوراً أهمَّ من الحقيقيِّ على الدوام ، وفي التاريخ يفوق الوهميُّ الحقيقيَّ .

والجماعاتُ ، إذ لم تُقدِّرْ على التفكير بغير الخيالات ، لا يُؤثِّرُ فيها إلا بالخيالات ، والخيالاتُ وحدها هي التي تُرْهِبُها أو تُغْوِيها فتغدو عواملَ سَيْرٍ فيها .

ولذلك كان للتمثيل الروائيُّ الذي يُبرز الخيالَ على وجهه السافر تأثيرٌ عظيم في كل حين ، وكان للعاميُّ الرومانيُّ من الخبز والمشاهد مثلُ السعادة الأعلى ، ولم يتغير هذا المثل الأعلى مع الأجيال إلا قليلاً ، ولا شيء يَقِفُ الخيالَ الشعبيَّ أكثر من الرواية التمثيلية ، فتعترى البهوَ روعةً واحدة في آن واحد ، وإذا كانت هذه الرُّوعة لا تُخْرِجُ إلى حَيَزِ العمل من فَوْرها فلأن أكثر الحضور عَدَمَ شعورٍ لا يجهل أنه ضحية الأوهام وأنه ضَحِكَ أو بَكَى بفعل مغامرات خيالية ، ومما يحدث

أحياناً ، مع ذلك ، أن تكون المشاعر التي تُوحى بها الأُخيلة من القوة ماتنتقل به إلى العمل كما يؤدي إليه التلقين عادةً : ومما يُروى في الغالب قصّة ذلك المسرح الشعبيّ الفاجعيّ الذي كان يُضطرُّ إلى حماية الممثل الذي مثّل دورَ الخائن عند خروجه من المسرح إنقاذاً له من عُنْف الحضور الذين أغضبتهم جرائمه الخيالية ، وهناك أوضح الأدلة على حال الجماعات النفسية على ما أرى ، ولا سيما السهولة التي تُلقنُ بها ، فلو همى من الأهمية مالمحققٍ تقريباً ، والجماعات تميل ميلاً واضحاً إلى عدم التفريق بينهما .

وعلى الخيال الشعبيّ قامت سلطة الفاتحين وقوة الدول ، والجماعات تُقاد بالتأثير فيها ، وليست حوادث التاريخ العظيمة ، كظهور البُدْهِيَّة (البوذية) والنصرانية والإسلام والإصلاح الدينيّ والثورة الفرنسية والغزو الاشتراكيّ المتوعّد ، إلا نتائج قريبة أو بعيدة للتأثير القويّ في خيال الجماعات .

وكذلك عدّ أقطاب السياسة في جميع الأجيال والبلدان ، حتى أشدّهم استبداداً ، دِعامة سلطانهم في الخيال الشعبيّ ، وهم لم يحاولوا الحُكم بغيره قطّ ، ومن قول نابليون في مجلس شورى الدولة : « لقد أنهيتُ حربَ فائده بانتحالي الكشلكة ، واستوليتُ على مصر بانتحالي الإسلام ، واستملتُ قساوسةً إيطالية بانتحالي مبادئ البابوية ، ولو ملكتُ شعباً يهودياً لأعدتُ هيكل سليمان » ، ومن المحتمل أنه لم يظهر منذ الإسكندر وقيصر رجلٌ عظيمٌ أحسنُ من نابليون إدراكاً لما يجب أن يؤثّر به في خيال الجماعات ، وبهرُ هذا الخيال كان همّ نابليون الدائم ، وهذا ما كان يُفكر فيه في انتصاراته وخطبه وأحاديثه وجميع أفعاله ، وهذا ما كان يفكر فيه وهو على سرير موته أيضاً .

وكيف يُؤثّر في خيال الجماعات ؟ ذلك ماسنراه عما قليل ، وإنما نقول الآن إن البراهين المُعدّة للتأثير في الذكاء والعقل عاجزةٌ عن بلوغ تلك الغاية ، وما كان أنطونيوس محتاجاً إلى علم بيانٍ لثِيِيرِ الشعب على قاتلي قيصر ، بل قرأ على الشعب وصية قيصر وأراه جُثَّتَه .

ويبدو كلُّ شيء يَقِفُ خيال الجماعات على شكل صورة مؤثرة واضحة خالية من الشروح اللاحقة ، أو أنه لا يضاف إليها غيرُ الأمور العجيبة كالإشارة إلى انتصار بالغ أو معجزة باهرة أو جرم كبير أو أمل عظيم ، ويَحْسُنُ أن تُعرَضَ الأمور دفعةً واحدة من غير أن يشار إلى تكوينها أبداً ، وليس مما يَقِفُ خيال الجماعات مئةُ جرم صغير أو مئةُ رُزء صغير ، على حين يُؤثّر فيه تأثيراً بالغاً بجرم كبير أو بلاء عظيم ولو كانت نتائج هاتين الظاهرتين أقل فتكاً من نتائج مئات الأرزاء مجتمعة ، ومن ذلك أن الزَّكَمَةَ الوافدة الكبيرة (الأنفلونزا) أهلكت بياريس خمسة آلاف شخص في بضعة أسابيع فلم تَقِفْ خيال الشعب إلا قليلاً ، وذلك لأنه لم يُعَرَبْ عن هذه الملحمة ببعض الصور المنظورة في الحقيقة ، بل أُعَرِبَ عنها بإحصاءات أسبوعية ، ولو حدث أن هَلَكَ في ميدان عام خمسمئة شخص في يوم واحد بفعل بَلِيَّةٍ بَيِّنَةٍ كسقوط برج إيفل مثلاً ، وذلك بدلاً من تلك الآلاف الخمسة ، لاعتري الخيال أثرٌ هائل ، ومما حدث أن انقطعت أخبار إحدى بواخر الأطلنطي فافتُرض غَرَقُها في سَوَاءِ البحر فأثّر ذلك في خيال الجماعات تأثيراً عميقاً مدة ثمانية أيام ، ومما دلت عليه الإحصاءات الرسمية بالحقيقة غَرَقُ نحو ألف مركب كبير في تلك السنة فلم تَشْغَلِ الجماعات بالها ثانيةً بسبب هذه الرزايا التي هي في مجموعها أهمُّ من رَزِيَةِ غَرَقِ تلك الباخرة ، لو وَقَعَ ، هلاك أرواحٍ وضياع أموال .

إذن ، ليست الأمور نفسها هي التي تَقِفُ خيال الشعب ، بل الوجه الذي تبدو به هذه الأمور ، فعلى هذه الأمور أن تتكاثف ، إذا قَدَرْتُ بهذا على التعبير عما في نفسي ، فتُحْدِثُ صورةً مؤثرةً تساور النفس وتملؤها ، فمن يَعْرِفُ فنَّ التأثير في خيال الجماعات يَعْرِفُ فنَّ سياستها .

الفصل الرابع

الأصنعة الدينية التي تصطبغ بها عقائد الجماعات

من أى شيء يتألف الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبادة الألوهية — مميزات الشعور الدينى — قوة الاعتقادات التى تكتسب شكلاً دينياً — أمثلة مختلفة — الآلهة الشعبية لم تزل قط — الوجوه الجديدة التى تبث بها — أصنعة الإلحاد الدينية — أهمية هذه المبادئ من الوجهة التاريخية — الإصلاح الدينى ومذبحه سان بارثلمى والهول وجميع الحوادث المماثلة هى نتيجة المشاعر الدينية فى الجماعات ، لا نتيجة إرادة أشخاص منفردين .

بيّنا أن الجماعات لا تتعقل ، وأنها تقبل الأفكار أو ترفضها جملة واحدة ، وأنها لا تطبق الجدال ولا المناقضة وأن التلقين إذ يؤثّر فيها يستحوذ على قوة إدراكها فلا يلبث أن يتحول إلى عمل ، وبيّنا أن الجماعات إذا ما لقنت كما ينبغى استعدت للتضحية بنفسها فى سبيل ما لقنته من مثل عالٍ ، ثم بيّنا أن الجماعات لا تعرف سوى المشاعر الشديدة المتطرفة ، وأن الميل العاطفى لا ينسب أن ينقلب فيها إلى عبادة ، وأن النور لا يكاد يظهر فيها حتى يتحول إلى حقد ، فهذه البيانات العامة تُشعر بطبيعة عقائد الجماعات .

ونحن إذا ما بحثنا عن كسب فى عقائد الجماعات ، سواء أفى أدوار الإيمان أم فى الانقلابات السياسية العظيمة كالتى حدثت فى القرن السابق ، وجدناها ذات شكل خاص لم نرَ خيراً من تسميته بالشعور الدينى .

ولهذا الشعور مُمَيَّزَات بسيطة جداً ، وهي : عبادةٌ موجودٍ افترض سُموهُ ، وخَشْيَةُ ما يُعَزَى إليه من القدرة ، والانقيادُ الأعْمى لأوامره ، وتَعَدُّرُ الجِدال في تعاليمه ، والرغبةُ في نشر هذه التعاليم وعدُّ كلِّ من يرفض اعتناقها عدوًّا ، ويظلُّ ذلك الشعور الدينيُّ من جوهر واحد على الدوام ، سواء أُنْطَبِقَ على إله خَفِيٍّ أم على صنم حجريٍّ أم على بطل أو فكر سياسيٍّ ، وتَجِدُ في ذلك الشعور ما فوق الطبيعة وما هو مُعْجِزٌ على السواء ، والجماعاتُ تُلبَس مثل هذه القدرة الدينية ما يُغْرِيهَا على التعصب من صيغة سياسية أو زعيمٍ منصورٍ حيناً من الزمن .

ولا يكون الإنسان متديناً إلا إذا عَبَدَ إِلَهًا فقط ، بل يصبح متديناً أيضاً عندما يضع جميع منابع نفسه وجميع انقيادات إرادته وجميع إيجاج تعصبه في خدمة قضية أو موجودٍ غدا غايةَ المشاعر والأعمال ورائدَها .

والتعصبُ وعدم التسامح يلانزمان الشعور الدينيَّ ملازمةً دائمةً ، ولا مناص منهما عند من يعتقدون حيازتهم سرَّ السعادة الدنيوية أو الأبدية ، وتَجِدُ هاتين الصفتين في أفراد كلِّ جماعةٍ إذا ما أثارها معتقدٌ ما ، فكان يَعاقبُهُ الهول متدينين في الصميم كمتدين كاثوليك محاكم التفتيش وكانت حماسهم الجائرة تُشَقُّ من المصدر نفسه .

وتتصف عقائد الجماعات بما يلزم الشعور الدينيَّ من الخضوع الأعْمى والتعصب الشديد والإكراه في الدعوة ، ويمكن أن يقال ، إذن ، إن جميع المعتقدات ذاتُ صبغة دينية ، وعند الجماعات أن البطل الذي تُصَفِّقُ له هو إلهٌ في الحقيقة ، وذلك هو أمر نابليون مدة خمس عشرة سنة ، ولم يتفق لإله من العباد الخُلص ما اتفق لنابليون ، ولا ترى إلهًا استطاع أن يقود الرجال إلى الموت بسهولة كما استطاع ، ولم يكن لآلهة الوثنية والنصرانية من السلطان المطلق على النفوس أكثر مما كان له .

ولم يُقِمْ مؤسسو المعتقدات الدينية أو السياسية هذه المعتقدات إلا بعد أن عَرَفُوا أن يَفْرِضُوا على الجماعات مشاعر التعصب الديني التي يَجِدُهَا الإنسانُ سعادته في العبادة والتي تَحْفِزُهُ إلى التضحية بحياته في سبيل معبوده ، وهذا ما حدث في كلِّ دور ، ومن قول مسيو فُوسْتِل دُو كُولَنْج الصائب في كتابه المُمْتَع عن بلاد الغول الرومانية أن سلطان الإمبراطورية الرومانية لم يَدُم بِالْقَهْرِ قَطُّ ، بل دام بما كان يُوحِي به من الإعجاب الديني ، « فليس في تاريخ العالم مثالٌ على دوام نظام تَمَقُّته الشعوب خمسة قرون ... وإلا لم نُفَسِّرْ كيف أن فِرَق الإمبراطورية الثلاثين استطاعت أن تُكْرَهُ مئة مليون من الناس على الطاعة » ، وإذا ما أطاع مئة المليون هؤلاء فلأن عظمة رومة كانت تتجسد في القيصر فَيُعْبَدُ بالإجماع كإله ، فتَجِدُ لَهُ محارِبَ حتى في أخقر القرى ، « ومما ساور نفوسَ أهل ذلك الزمن في جميع أرجاء الإمبراطورية دينٌ جديد كان القياصرة أنفسهم آلهته ، وقبل التاريخ الميلادي يَبْضِعُ سنين أقامت جميع بلاد الغول المُمَثِّلَةَ بـستين مدينةً معبداً مشتركاً للقيصر أغسطس قريباً من مدينة ليون ... وكان كَهَنَةُ هذا المعبود الذين انْتُخِبُوا في مجلس المدن الغولية أعيانَ بلادهم ... ومن المستحيل أن تَفْرُو جميعَ هذا إلى الخوف والندالة ، فالندالة لا تكون في شعوب بأسرها ، وإذا وُجِدَتْ فلا تدوم ثلاثة قرون ، وليس أفراد الحاشية هم الذين كانوا يعبدون القيصر ، بل رومة ، وليست رومة وحدها هي التي كانت تَعْبُدُهُ ، بل بلادُ الغول وإسبانية واليونان وآسية أيضاً » .

واليوم لا ترى لِمُعْظَمِ فاتحي النفوس هياكلَ أبداً ، ولكنك تَجِدُ لَهُم تماثيلَ أو صُوراً ، وما يَتَّفِقُ لَهُم من عبادةٍ لا يختلف كثيراً عن عبادتهم في الماضي ، ولا يَدْرُكُ شيء من فلسفة التاريخ إلا بعد أن تُنْفَذَ هذه الناحية الأساسية من روح الجماعات ،

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَهًا لَدَى الْجَمَاعَاتِ فَلَا يَكُونُ شَيْئًا عِنْدَهَا .

وَلَا تَقُلْ إِنَّ هَذِهِ هِيَ خَرَافَاتُ جِيلٍ ماضٍ هَزَمَهَا الْعَقْلُ نَهَائِيًّا ، فَالْمُشَاعِرُ لَمْ تُغْلِبْ قَطُّ فِي صِرَاعِهَا الْأَزَلِيِّ ضِدَّ الْعَقْلِ ، أَجَلٌ ، إِنَّ الْجَمَاعَاتِ عَادَتْ لَا تُطِيقُ سَمَاعَ مَا كَانَ قَدْ هَيَمَنَ عَلَيْهَا طَوِيلَ زَمَنٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْأُلُوهِيَةِ وَالْدِينِ ، بَيْنَ أَنْهَا لَمْ تُقِمَّ فِي دَوْرٍ مِنَ التَّمَاثِيلِ وَالْهِيَائِ كُلِّ بِمَقْدَارِ مَا أَقَامَتْهُ مِنْذُ قَرْنٍ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْحَرَكَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْبَوْلَانِجِيَّةِ فَيُثَبِّتَ مَبْلَغَ اسْتِعْدَادِ الْغَرَائِزِ الدِّينِيَّةِ لِلظُّهُورِ ثَانِيَةً ، فَلَمْ يَحُلْ فَنَدَقٌ فِي قَرْيَةٍ مِنْ صُورَةِ الْبَطْلِ ، وَكَانَتْ تُعْزَى إِلَيْهِ قُدْرَةٌ عَلَى مَعَالِجَةِ ضُرُوبِ الْجَوْرِ وَجَمِيعِ الشُّرُورِ ، وَمَا كَانَ أُلُوفُ الرِّجَالِ لِيَصْنُوعُوا بِحَيَاتِهِمْ فِي سَبِيلِهِ ، وَمَا أَعْظَمَ الْمَقَامَ الَّذِي كَانَ يَحْتَلُّهُ فِي التَّارِيخِ لَوْ اتَّفَقَ لَهُ مِنَ السَّجِيَّةِ مَا تُدْعَمُ بِهِ أُسْطُورَتُهُ !

وَمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ أَنْ نُعِيدَ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْجَمَاعَاتِ مِنْ دِينٍ ، وَلَا تَسْتَقِرُّ الْمَعْتَقَدَاتُ السِّيَاسِيَّةُ وَالْإِلَهِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ بِالْجَمَاعَاتِ إِلَّا بِاِكْتِسَابِهَا شَكْلًا دِينِيًّا عَلَى الدَّوَامِ فَتَكُونُ بِهِ فِي حِمَى مِنَ الْجَدَلِ ، وَلَوْ أَمَكْنَ حَمْلُ الْجَمَاعَاتِ عَلَى الْإِلْحَادِ لَا كُنْتُ سَبَاحًا هَذَا الْإِلْحَادُ مَا فِي الشُّعُورِ الدِّينِيَّةِ مِنْ شِدَّةٍ تَعْصِبُ ، وَلَأَنْصَحِي فِي وَجْهِهِ الظَّاهِرَةِ ضَرْبًا مِنَ الْعِبَادَةِ بِسُرْعَةٍ ، وَلَنَا فِي تَطَوُّرِ الْمَذْهَبِ الْوَضْعِيِّ الصَّغِيرِ مِثَالٌ طَرِيفٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُشَابِهُهُ هَذَا الْمَذْهَبُ ذَلِكَ الْعَدَمِيُّ الَّذِي رَوَى الْعَلَامَةُ دُوسْتُوْفِيشْكِ لَنَا قِصَّتَهُ ، فَقَدْ سَطَعَتْ أَنْوَارُ الْعَقْلِ عَلَى هَذَا الْعَدَمِيِّ ذَاتَ يَوْمٍ فَحَطَّمَتْ صُورَ الْآلِهَةِ وَالْقَدِيسِينَ الَّتِي كَانَتْ تَزِينُ هَيْكَلَ مَعْبَدِهِ الصَّغِيرِ ، وَأَطْفَأَ الشُّمُوعَ وَلَمْ يُبَدِّدْ مِنَ الْوَقْتِ ثَانِيَةً فَأَحْلَى مَحَلَّ الصُّورِ الْمَحْطَمَةِ كُتِبَ بِعُضَى الْفَلَسَفَةِ الْمَلْحِدِينَ كَبُخْزَرٍ وَمُؤَلَّشُوتَ ، ثُمَّ أَشْعَلَ الشُّمُوعَ ثَانِيَةً بَوْرَعٍ ، أَجَلٌ ، لَقَدْ تَحَوَّلَ مَوْضُوعُ مَعْتَقَدَاتِهِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَكِنْ أَيْمَنُ أَنْ يَقَالَ إِنَّ مَشَاعِرَهُ الدِّينِيَّةَ تَغَيَّرَتْ ؟

الشُّعُورُ
الْإِلَهِيَّةُ

أقول مُكرِّراً إن بعض الحوادث التاريخية ، ولا سيما أهمها ، لا يُدرك أمره إلا بعد النظر إلى الشكل الديني الذي لا تلبث عقائد الجماعات أن تصطبغ به على الدوام ، ويتطلب كثير من الحوادث الاجتماعية دراسة على طريقة علماء النفس أكثر من تطلُّبه دراسة على نمط علماء التاريخ الطبيعي ، ولم يدرس مؤرخنا الكبير تايين الثورة الفرنسية إلا كعالم من علماء التاريخ الطبيعي فغاب عنه تكوين الحوادث في الغالب ، نعم ، إن ملاحظة هذا الكاتب الشهير للحوادث كاملة ، ولكنه إذ لم ينفذ في روح الجماعات لم يعرف أن يصل إلى عللها في كل وقت ، وإذا فرغته الحوادث من ناحيتها الدموية والقوضوية والوحشية فإنه لم ير في أبطال تلك الواقعة غير قوم من المصروعين السائرين وراء غرائزهم بلا رادع ، ولا يُفسر ما نشأ عن الثورة الفرنسية من أعمال العنف وسفك الدماء والاحتياج إلى الدعاية وشهر الحروب على جميع الملوك إلا إذا عُدَّت تلك الثورة وليدة معتقد ديني جديد في روح الجماعات ، وما ثورة الإصلاح الديني ومذبة سان بارتلمي والحروب الدينية ومحكم التفتيش والهول إلا حوادث من ينبوع واحد ، أي صادرة عن تلقين تلك المشاعر الدينية التي تقود بحكم الضرورة إلى إبادة من يعارض قيام المعتقد الجديد بالنار والحديد ، وما أساليب محكم التفتيش والهول إلا أساليب المؤمنين الحقيقيين ، وهؤلاء إذا ما اتخذوا أساليب أخرى لم يكونوا مؤمنين .

وانقلابات كالتي ذكرتها لا تكون ممكنة إلا إذا نبعت من روح الجماعات ، ويعجز أشد الطغاة استبداداً عن إثارتها ، والمؤرخون ، حين يُبينون أن مذبة سان بارتلمي هي من عمل أحد الملوك ، يدُّون على جهلهم روح الجماعات وروح الملوك ، وظاهرات مثل تلك لا تصدُر عن غير الروح الشعبية ، ولا يذهب سلطان

أكثر الملوك المطلقين طغياناً إلى أبعد من تعجيل وقوع تلك الانقلابات أو تأجيله قليل
 زمن ، ولم يكن الملوك هم الذين أحدثوا مذبحة سان بارتلمى والحروب الدينية ، كما أن
 رويسير ودانتون وسان جوست لم يحدثوا الهول ، فخلف مثل هذه الحوادث
 تجد روح الجماعات على الدوام .

البَابُ الثَّانِي

آراءُ الجماعاتِ ومعتقداتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ تَقَرَّرْنَا بِكَ يَا مَلِكُ الْإِسْلَامِ

الفصل الأول

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وآرائها

العوامل التمهيدية لمعتقدات الجماعات — نفتح معتقدات الجماعات هو نتيجة نضج سابق — دراسة مختلف العوامل في تلك المعتقدات — (١) العرق — ما للعرق من تأثير عظيم — العرق هو عنوان تلقينات الأجداد — (٢) التقاليد — التقاليد هي خلاصة روح العرق — ما للتقاليد من أهمية اجتماعية — التقاليد تصبح مضرة بعد أن كانت ضرورية — الجماعات هي أكثر المحافظين على الأفكار التقليدية عناداً — (٣) الزمان — الزمان يهيئ استقرار المعتقدات ثم يهيئ تقويضها — يمكن النظام أن يثبت من القوضى بفضل الزمان — (٤) النظم السياسية والاجتماعية — الرأي الخاطيء في شأنها — تأثيرها ضعيف إلى الغاية — هي معلومات لاعل — لا تستطيع الأمم أن تختار النظم التي يلوح لها أنها خير من سواها — النظم عناوين تطوى على أشد الأمور تباناً — كيف توجد النظم — ضرورة بعض النظم الرديئة نظرياً لبعض الأمم كالنظم المركزية — (٥) التعليم والتربية — خطأ الأفكار الحالية في تأثير التعليم لدى الجماعات — ما تشير إليه الإحصاءات — شأن التربية اللاتينية المفسد للأخلاق — النفوذ الذي يمكن أن يكون للتعليم — أمثلة عن أمم مختلفة .

بحثنا في مزاج الجماعات النفسى فَعَرَفْنَا طُرُزَ شعورها وتفكيرها وتعلقلها ، ولندرس الآن كيفية تَوَلَّدَ آرائها ومعتقداتها وكيفية استقرار هذه الآراء والمعتقدات .

إن العوامل التي توجب هذه الآراء والمعتقدات نوعان : العوامل البعيدة والعوامل القريبة .

فأما العوامل البعيدة فهي التي تجعل الجماعات قادرة على اتخاذ بعض المعتقدات

وغير مستعدة لتقبل معتقداتٍ أخرى ، وهذه العوامل تهيب البقعة التي تثبت فيها أفكار جديدة بغتة ، فتثير قوة هذه الأفكار ونتائجها الحيرة ، غير أن تلك الأفكار لا تكون طوعية إلا ظاهراً ، ومما يَفَاجِي كالصاعقة أحياناً انفجار بعض الأفكار لدى الجماعات والعمل بها ، مع أن هذا ليس في الغالب إلا نتيجة سطحية لعملٍ سابق طويل يجب أن يُبحث عنه .

وأما العوامل القريبة فهي التي تتنصّد فوق ذلك العمل الطويل الذي لا يمكنها أن تؤثر بغيره ، فيكون للجماعات بها مُقْنِعٌ مؤثّر ، أي أنها تُكسِبُ الفكر شكلاً وتُفَكِّه من عقّاله مع جميع نتائجها ، وينبثق بدفع من هذه العوامل القريبة عزائمُ تُثير الزمر بغتة ، وبهذه العوامل تشتعل فتنة أو يُقرَّر إضراب ، وبها ترفعُ جُمُومٌ غفيرة رجالاً إلى السلطة أو تُقلب حكومةً رأساً على عقب .

وفي جميع حوادث التاريخ الكبرى يُرى تأثير متعاقب لذينك النوعين من العوامل ، وإذا لم تتخذ من الأمثلة غير التي تشمل النظر فنظرنا إلى الثورة الفرنسية وجدنا بين العوامل البعيدة لهذه الثورة انتقادات الكتاب ومظالم العهد السابق ، فلما أُعِدَّت روح الجماعات على هذا الوجه سهّلت إثارته بالعوامل القريبة كخطب الخطباء ومقاومة البلاط للإصلاحات النافية .

وبين العوامل البعيدة تجد عواملَ عامةً في صميم جميع آراء الجماعات ومعتقداتها ، وهي : العرق والتقاليد والزمن والنظم والتربية ، وسنبحث الآن في شأن كل واحد منها .

١ - العِرْق

يجب أن يُوضَعَ عامل العِرْق في الصف الأول لما له من الأهمية البالغة أكثر من غيره بدرجات ، وقد درسنا هذا العامل في كتاب سابق بما فيه الكفاية فلا نرى فائدة في الكلام عنه مطولاً ، وفي ذلك الكتاب بيّنا ما هو العِرْقُ التاريخي ، فأوضحنا أن العِرْق بعد أن تتكون أخلاقه تغدو معتقداته ونظمه وفنونه، وإن شئتَ قلّ جميع عناصر حضارته ، عنوان روحه الظاهر ، ويبلغ عامل العِرْق من القوة ما لا ينتقل معه أيُّ عنصر من شعب إلى آخر من غير أن يعاني أعمق التحولات^(١).

وتمثّل البيئة والأحوال والحوادث تلقينات الزمن الاجتماعية ، وهي يمكنها أن تكون ذات تأثير مهمّ ، ولكنه مؤقت على الدوام ، إذا ما كان هذا التأثير مخالفاً لتلقينات العِرْق ، أي لسلسلة الأجداد .

وسيتاح لنا ، في غير فصل من هذا الكتاب ، أن نعود إلى تأثير العِرْق ، فنبيّن أن هذا التأثير يكون عظيماً ما سيطر على الأخلاق الخاصة بروح الجماعات ، فمن أجل ذلك تنمّ جماعات مختلفة البلدان بمعتقداتها وسلوكها على فروق بارزة جداً ، وعلى أنه لا يمكن أن يؤثّر فيها على نمط واحد .

(١) بما أن هذه القضية لاتزال حديثة ولا يدرك التاريخ غيرها فقد خصصت لإثباتها عدة فصول من كتابي « السنن النفسية لتطور الأمم » ، وفي هذا الكتاب يرى القاري ، على الرغم من الظواهر الخادعة ، أن اللغة والديانة والفنون ، أي كل عنصر من عناصر الحضارة ، لا يمكن أن تنتقل سليمة من أمة إلى أخرى .

٢ - التقاليد

تمثل التقاليد أفكار الماضي واحتياجاته ومشاعره ، والتقاليد خلاصة العرق ، وهي شديدة الوطأة علينا .

لقد تحوّلت علوم الحياة منذ أن أثبت علم الأجنّة تأثير الماضي العظيم في تطور الموجودات ، وستسير العلوم التاريخية على هذا النحو بعد أن ينتشر ذلك المبدأ أكثر من قبل ، ولما ينتشر ذلك المبدأ بما فيه الكفاية ، فظلّ كثير من رجال السياسة قائلين بمبادئ نظري القرن السابق ، فيُخيّل إليهم أن المجتمع يمكنه أن يقطع صلاته بالماضي وأن يتجدد بأسره متخذاً نور العقل دليلاً له .

إن الأمة نظامٌ أوجده الماضي ، وهذا النظام ، ككلّ نظام ، لا يمكنه أن يتحول إلا بترابكات وراثية بطيئة .

وقادة الأمم الحقيقيون هم التقاليد ، ولا يسهّل على هؤلاء القادة أن يُغيّروا منها غير الأشكال الخارجية كما قلت ذلك غير مرة ، ولا يمكن حضارة أن تقوم بغير تقاليد ، أي بغير روح قومية .

وشغلا الإنسان العظيان ، منذ وُجد ، هما إيجاد شبكة من التقاليد ثم نقض هذه الشبكة إذا اعترى الوهن نتائجها النافعة ، وإذا كانت الحضارة لا تقوم بغير تقاليد ثابتة فإنه لا تقدّم بغير إزالة هذه التقاليد ببطء ، والصعوبة هي في إيجاد توازن صحيح بين الثبات والتقلب ، وهذه الصعوبة كبيرة ، وإذا حدث أن أمة استقرت تقاليدها استقراراً متيناً في عدّة أجيال فإن هذه الأمة لا تقدر على التطور فتغدو عاجزة عن التكامل كالصين ، حتى إن الثورات العنيفة نفسها تصبح عاجزة ، وذلك لأن

الذى يقع هو أن قِطْعَ السلسلة المَحْطَمَةِ تُلَحَمُ مرةً أخرى فيستردُّ الماضى سلطانه بلا
تبديل ، أو أن تؤديَ تلك القِطْعُ المتفرقة إلى القوضى إلى الانحطاط السريع .

وعملُ الأمة الأساسى يجب أن يَهْدَفُ أيضاً إلى صيانة نُظْمِ الماضى مع
تعديلها شيئاً فشيئاً ، وهذا عمل صعب ، والرومانُ فى الأزمنة القديمة والإنكليزُ فى
الأزمنة الحديثة وحدهم هم الذين حققوا ذلك تقريباً .

وأشدُّ محافِظى الأفكار التقليدية عناداً وأكثرُ معارِضى تبدليها إصراراً هم الجماعات
على التحقيق ، ولا سيما نوعُ الجماعات التى تتألف الطبقات منها ، وقد سبق أن أسهبْتُ
الكلامَ عن هذه الروح المحافظة فَبَيَّنْتُ أن كثيراً من الثورات لا تؤدي إلى غير
تغيير الألفاظ ، ومن ذلك أن كان يوجد فى أواخر القرن الماضى ما يُسَوِّغُ الاعتقادَ
القائل بأن الأفكار القديمة خَسِرَت كلَّ قوة ، وذلك عند النظر إلى الكنائس
المهدومة ، وإلى القساوسة المطرودين أو الذين أُعْذِمُوا بالمِقْصَلَةِ ، وإلى ما أصيب به
المذهبُ الكاثوليكيُّ من الاضطهاد العام ، فلَمَّا مَضَتْ سنوات قليلة أدَّت احتجاجات
الناس العامة إلى إعادة ذلك المذهب المُلْقَى ^(١) .

ولا تَجِدُ مثلاً أوضح مما تقدم فى سلطان التقاليد على روح الجماعات ، ولا تَعْصِمُ
المعابدُ أشدَّ الأصنام رَهْبَةً ، ولا القصورُ أشدَّ الطُّغَاة استبداداً ، فمن السهل تحطيمُها ،

(١) إن تقرير عضو مجلس العهد القديم ، فوركروا ، الذى استشهد به تايين واضح من هذه الناحية ،
فقد جاء فيه :

« ثبت ما يرى فى كل مكان من تقديس يوم الأحد والتردد إلى الكنائس أن مجموع الفرنسيين
يريد العودة إلى العادات القديمة ، فلا تجدى مقاومة هذا الميل القومى . . . »

« ويحتاج معظم الناس إلى دين ومذهب وقسوس ، ومن خطأ بعض الفلاسفة المعاصرين الذى سرت
عليه بنفسى هو أن يعتقد إمكان نشر تعليم ، بدرجة الكفاية ، للقضاء على الأوهام الدينية ، فهذه
الأوهام منبع سلوان لأكثر النساء . . . »

« فيجب ، إذن ، ترك معظم الشعب وقسوسه وهياكله وعبادته . »

وإنما يَتَفَلَّت السادةُ غيرُ المنظورين الذين يهيمنون على نفوسنا من كلِّ مَسْمُوعٍ ،
وهم لا يدعونون لغيرِ بِلَى القرون البطيء .

٣ - الزمان

الزمانُ من العوامل الفعّالة في المسائل الاجتماعية كما في مسائل علم الحياة ، والزمانُ
يُمَثِّل الموجدَ الحقيقيَّ والهادمَ العظيم ، والزمانُ هو الذي أقام الجبال من ذرات
التراب ، وهو الذي رفع الخَلِيَّةَ الغامضة في العصور الجيولوجية إلى منزلة الإنسان ،
ويكفي لتحويل أية حادثة أن تنالها يدُ القرون ، ومن الصواب أن قيل إن النملة التي
يُمْتَدُّ أمامها الزمن يمكنها أن تُسَوِّيَ الجَبَلَ الأبيض ، ومن يَمْلِكُ قوة تصريف
الزمان كما يشاء يكنُ صاحبَ القدرة التي يعزوها المؤمنون إلى إلههم .

بَيِّنْدُ أننا لا نتكلم هنا عن غير تأثير الزمن في تكوين المعتقدات ، ويظهر أن عمل
الزمن من هذه الناحية عظيمٌ أيضاً ، والزمنُ يتصرف في القوى الكبيرة التي لا يمكن
أن تكون بغيره كالعرق مثلاً ، والزمنُ هو الذي يُحوِّل جميع المعتقدات ويُعيِّتها ،
وبالزمن تكتسب المعتقداتُ سلطانها ، وبالزمن تَخْسِر المعتقداتُ هذا السلطان .

والزمنُ يهيئُ آراء الجماعات ومعتقداتها ، أي التربةَ التي تَنَبُّت فيها ، ومن هنا
يبدو أن بعض الآراء التي يمكن تحقيقها في زمنٍ لا تُحَقِّق في زمنٍ آخر ، والزمنُ يَرَكِّمُ
راسبَ المعتقدات والآراء الكبيرة فتظهر عليه أفكارُ أحد الأدوار ، ولا تَنَبُّت هذه
الأفكار اتفاقاً وعَرَضاً ، فهي ذات جذور تُسُوخ في ماضٍ طويل ، وهي إذا أزهرت
وقع ذلك بعد أن يكون الزمن قد هَيَّأَ تَفْتَحَها ، وإلى الوراء يجب أن يُرْجَعَ لَتَبَيِّنِ
تكوينها ، وهي بنات الماضي وأمهات المستقبل وإماء الزمان على الدوام .

والزمانُ هو مولانا الحقيقيُّ إِذَنْ ، ويكفى أن يُترك الزمانُ يسيرُ ليُرى تَحَوُّلُ كلِّ شَيْءٍ ، وترى القلق يساورنا كثيراً لما يصدر عن الجماعات من رَعَبَاتٍ ذاتِ وعيدٍ ولما تَمَّ عليه هذه الرَّعَبَات من تخريبات وانقلابات ، والزمانُ وحده كفيلٌ بأن يعيد التوازن ، ومن الصواب قولُ مسيولافيس : « لا تَجِدُ نظاماً يقوم في يوم واحد ، وما تراه من نُظُمٍ سياسية واجتماعية فهو وليد أعمال تَمَّت في قرون ، وقد ظلَّ النظام الإقطاعيُّ مُشوَّهاً مضطرباً قروناً كثيرة قبل أن يَجِدَ قواعده ، وقد عاش النظام الملكيُّ المطلق عدَّة قرون قبل أن يَجِدَ وسائلَ منظمة للحكم فحدثت اضطراباتٌ عظيمة في أدوار الانتظار تلك » .

٤ — النُّظُمُ السياسية والاجتماعية

لا يزالُ منتشرًا ، إلى الغاية ، المبدأ القائل إن النُّظْمَ يمكن أن تعالج مساوئ المجتمعات وإن تَقَدَّمَ الأمم ينشأ عن كمال الدساتير والحكومات وإن التحولات الاجتماعية تَتِمُّ بقوة المراسيم ، وكان هذا المبدأ نقطة البداءة للثورة الفرنسية ، وإلى هذا المبدأ تستند النظريات الاجتماعية الحاضرة .

ولم تَوْفَقْ أكثر التجارب اتصالاً لزعة هذا الوهم الموهوب ، وما حاوله الفلاسفة والمؤرخون من إثبات فسادة فقد ذهب أدراج الرياح ، ولم يَعُسِرْ على هؤلاء أن يُبَيِّنُوا مع ذلك أن النُّظْمَ وليدة الأفكار والمشاعر والطبائع ، وأن الأفكار والمشاعر والطبائع لا تَجِدُّ بتجديد القوانين ، والأمة لا تختار نُظْمَهَا كما تشاء كما أنها لا تختار لون عيونها وشعورها ، والنُّظْمُ والحكومات ثَمَرَةُ العرق ، ولا تكون النُّظْمُ والمعتقدات مُوجِدَةً أَحَدَ الأدوار ، بل هي وليدة هذا الدور ، ولا تُحْكَمُ الأمم

وَفَقَّ هَوَاهَا فِي وَقْتٍ مَا ، بَلْ تُحْكَمْ كَمَا تَتَطَلَّبُهُ أَخْلَاقُهَا ، وَيَقْتَضِي تَكْوِينُ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ عِدَّةَ قُرُونٍ أَحْيَانًا ، وَيَقْتَضِي تَبْدِيلُهُ عِدَّةَ قُرُونٍ أَيْضًا ، وَلَيْسَتْ فِي النُّظْمِ فَضِيلَةٌ ذَاتِيَّةٌ ، وَلَيْسَتْ النُّظْمُ صَالِحَةً أَوْ طَالِحَةً فِي نَفْسِهَا ، وَإِذَا صَلَحَتْ النُّظْمُ لِأُمَّةٍ فِي زَمَنِ فَإِنَّهَا تَكُونُ كَرِيهَةً فِي زَمَنِ آخَرَ .

وَلَا تَقْدِرُ أُمَّةٌ عَلَى تَغْيِيرِ نُظْمِهَا تَغْيِيرًا حَقِيقِيًّا إِذَنْ ، أَجَلٌ ، تَسْتَطِيعُ الْأُمَّةُ أَنْ تَغْيِرَ اسْمَ النُّظْمِ بِفَعْلِ الثَّوَرَاتِ الْعَنِيفَةِ لَا رَيْبَ ، وَلَكِنْ الْأَسَاسَ لَا يَتَغْيَرُ أَبَدًا ، وَالْأَسْمَاءُ هِيَ عَنَاوِينُ فَارِغَةٌ لَا يُبَالِي بِهَا الْمُؤَرِّخُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى قِيَمَةِ الْأُمُورِ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَنْ إِنَّكَ لَتَرَى بِلَادَ الْعَالَمِ دِيمُوقْرَاطِيَّةً مَعَ أَنَّهَا خَاضِعَةٌ لِنِظَامِ مَلَكِيٍّ^(١) عَلَى حِينٍ تَرَى الْجُمْهُورِيَّاتِ الْإِسْبَانِيَّةَ الْأَمْرِيكِيَّةَ الَّتِي تَسُودُهَا نُظْمٌ جُمْهُورِيَّةٌ تَعَانِي اسْتِبْدَادًا شَدِيدًا ، فَأَخْلَاقُ الْأُمَّةِ ، لَا الْحُكُومَاتُ ، هِيَ الَّتِي تُعَيِّنُ مَقَادِيرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أَقَرِّرَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فِي كِتَابِ سَابِقٍ مُسْتَنَدًا إِلَى أَمْثَلَةٍ بَارِزَةٍ .

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ لَعَوِ فَارِسِ الْبَيَانِ وَعَبَّئِهِ أَنْ يُضَيِّعَ وَقْتَهُ فِي صَنْعِ الدِّسَاتِيرِ ، وَالضَّرُورَةُ وَالزَّمَانُ هُمَا الْكَفِيلَانِ بِإِعْدَادِهَا إِذَا مَا تُرِكَ هَذَانِ الْعَامِلَانِ يَفْعَلَانِ ، وَعَلَى هَذَا سَارَ الْأَنْغَلُوسَكْسُونُ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْمُؤَرِّخُ الْكَبِيرُ مَا كُولِي فِي صَفْحَةٍ يَجِبُ عَلَى مُحْتَرَفِي السِّيَاسَةِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ اللَّاتِينِيَّةِ أَنْ يَحْفَظُوهَا عَلَى ظَهْرِ الْقَلْبِ ، فَبَعْدَ أَنْ أَوْضَحَ مَا كُولِي مُحَاسِنَ الْقَوَانِينِ النَّاشِئَةِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ سُوءٍ وَتَنَاقُضٍ مِنْ حَيْثُ الْعَقْلُ الصَّرْفُ قَابِلٌ بَيْنَ دِسَاتِيرِ إِنَّكَ لَتَرَى الْبُضْعَةَ عَشَرَ دَسْتُورًا مُخْتَلَفَةً فِي

(١) ذَلِكَ مَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ الْجُمْهُورِيِّينَ تَقْدَمًا حَتَّى فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَحِدَةِ ، وَقَدْ أَعْرَبَتْ جَرِيدَةُ فُورُومِ الْأَمْرِيكِيَّةِ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ الطَّرِيفِ بِعِبَارَاتٍ أَثْقَلَهَا مِنْ عِدَّةِ مَجَلَّةِ الْمَجَلَّاتِ الصَّادِرِ فِي دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ١٨٩٤ ، وَهِيَ : « لَا يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ عَنْ بَالِ أَشَدِّ أَعْدَاءِ الْإِسْتِوَقْرَاطِيَّةِ حَمَاسَةٍ ، أَيْضًا ، أَنْ لَنْكَلْتَرَةَ أَشَدِّ بِلَادِ الْعَالَمِ دِيمُوقْرَاطِيَّةً فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، لِحَقُوقِ الْفَرْدِ فِي لَنْكَلْتَرَةِ مُحْتَرَمَةٍ أَكْثَرُ مِمَّا فِي غَيْرِهَا ، وَفِي لَنْكَلْتَرَةِ يَتَمَتَّعُ الْأَفْرَادُ بِخُرْيَةِ أَكْثَرُ مِمَّا فِي سِوَاهَا » .

اختلاجات الأمم اللاتينية بأوربة وأمريكة فأظهر أن دساتير إنكلترة لم تتغير إلا ببطء مقداراً فمقداراً ، وذلك بفعل الضرورات ، لا بفعل البراهين النظرية ، « وإذا سألت عن القواعد التي وجّهت مناقشات برلماننا ال ٢٥٠ منذ عهد حنّا حتى عهد فيكتورية وجدشها تقوم على عدم المبالاة بالمطابقة وعلى الاكثرث للمنفعة وعلى عدم إزالة الشذوذ لأنه شذوذٌ وعلى عدم الابتداع ما لم يَعدُ الانحراف محسوساً وعلى الابتداع بالمقدار الذي يُزال به هذا الانحراف وعلى عدم وضع اقتراح أوسع من الحال الخاصة التي تُعالج » .

ويجب أن يُبحث في قوانين كل أمة ودساتيرها على انفراد لإثبات درجة صدورها عن احتياجات عرقها وأنها لا تتغير بعنف لهذا السبب ، أجل ، يمكن أن يُجادل فلسفياً في منافع النظام المركزي ومساوئه مثلاً ، بيد أننا إذا ما أبصرنا أمة مؤلفة من عروق مختلفة تبذل جهوداً ألف سنة لتصل بالتدريج إلى هذه المركزية ، وإذا ما رأينا أن ثورة عظيمة اشتعلت لتحطيم جميع نظم الماضي فاضطرت إلى ضرورات الإفراط في تلك المركزية فضلاً عن احترامها ، أمكننا أن نستنبط أن المركزية وليدة قاهرة لها وشرط من شروط حياتها فنرثي لضعف نفسية رجال السياسة الذين يقولون بتقويضها ، ولو كتبت الفوز لرأى هؤلاء مصادفةً لكان هذا الفوز نذير فوزي عميقة^(١) تؤدي إلى نظام مركزي جديد أشدّ وطأً من النظام المركزي السابق .

(١) إذا أتمعنا النظر في الانقسامات الدينية والسياسية التي تفرق بين مختلف الأحزاب بفرنسة والتي هي مسألة عرق ومناع انفصالية تجلت أيام الثورة الفرنسية فرسمت مجدداً في أواخر الحرب الفرنسية الألمانية أبصرنا أن العروق المختلفة التي تسكن بلادنا لاتزال بعيدة من أن ينصهر بعضها في بعض ، ومن الحق أن يقال إن ما أسفرت عنه الثورة الفرنسية من المركزية الصارمة ومن إيجاد مديريات مصنوعة معدة لخلط الولايات القديمة هو أكثر أعمالها فحماً ، ولو أمكن انتحال نظام اللامركزية الذي يقول به كثير من ذوى الغفلة لأدى هذا النظام من فوره إلى أشد الفتن سفكاً للدماء ، فالغفلة عن هذا تعني نسيان تاريخنا نسياناً تاماً .

ومما تقدم نستنتج أنه لا ينبغي أن يُبحث في النُظم عن وسائل التأثير العميق في روح الجماعات ، فترى بعض البلاد ، كالولايات المتحدة ، تزدهر بنُظم ديمقراطية بما يُثيرُ العَجَب ، على حين ترى بلاداً أخرى ، كالجمهورية الإسبانية الأمريكية ، تعيش في فوضى محزنة على الرغم من نُظمها المشابهة لتلك ، وهذه النُظم هي غير ذاتِ دَخلٍ في عظمة الأولى كما أنها لا دَخلَ لها في انحطاط الأخرى ، والأممُ محكومةٌ بأخلاقها ، وكلُّ نظام لا يصدر عن هذه الأخلاق ليس إلا ثوباً مستعاراً ، ليس إلا تنكراً مؤقتاً ، ومما لا مراء فيه أن حروباً داميةً وثوراتٍ عنيفةً اشتعلت ، وستوقد نارها فيما بعدُ ، فَرَضاً لنُظم يُغزى إليها سلطانٌ خارق للعادة قادرٌ على إيجاد السعادة ، ويمكن أن يقال ، إذن ، إن النُظم تُؤثّر في روح الجماعات بمعنى لما تقتضيه من تلك الفن ، بيد أننا نعرف في الحقيقة أن النُظم ، منصورَةٌ كانت أو مقهورةٌ ، لا تنطوى في ذاتها على أية فضيلة وأن الناظر الذي يتتبع فتحها لا يتتبع سوى أوهام .

٥ — التعليم والتربية

تَجِدُ في الصف الأول من الأفكار التي تسود الدور الحاضر الفكر الآتي وهو : أن التعليم يؤدي ، لا ريب ، إلى إصلاح الناس وجعلهم متساوين ، ولم يُعمَّم هذا الزعم أن أصبح من عقائد الديمقراطية الراسخة بفعل التكرار ، وقد صار من الصعب أن يُمسَّ هذا الاعتقاد في زماننا كما كان يصُعب مَسُّ عقائد الكنيسة فيما مضى .

بيد أنك ترى اختلافاً شديداً بين الأفكار الديمقراطية ومُعْطَيَات علم النفس

والتجربة ، ولم يجد كثير من أفاضل الفلاسفة ، ولا سيما هربيرت سبنسر ، كبير
 عناء في إثباتهم أن التعليم لا يجعل الإنسان أكثر أخلاقاً ولا أعظم سعادةً وأنه
 لا يُغيّر غرائز الإنسان وشهوته الموروثة وأنه إذا ما أسىء توجيهه أمكن أن يكون
 ضرره أكبر من نفعه ، ثم جاء علماء الإحصاء فأيدوا ذلك بقولهم إن اقتراف الجرائم
 يزيد بتعميم التعليم ، أو نوع من التعليم على الأقل ، وإن الفوضويين الذين هم الدُّ
 أعداء المجتمع يُجمعون في الغالب من الفأزين في المدارس ، ومما أشار إليه القاضى
 المفضل ، مسيو أدولف غيُو ، أنه يُعدُّ في الزمن الحالى ثلاثة آلاف مجرم مُتَقَفَّ
 تجاه ألف مجرم أميٍّ وأن نسبة الجرائم في خمسين سنة صارت ٥٥٢ من كلِّ مئة ألف
 شخص بعد أن كانت ٢٢٧ ، أى بنسبة ١٣٣ في المئة ، ومما لاحظته ذلك القاضى مع
 زملائه أن الإجرام يزيد على الخصوص لدى الشبان الذين استبدلوا التعليم الإلزاميَّ
 مجاناً بالتعليم بأجرة .

ولاريب في أن أحداً لم يقل إن التعليم إذا ما أحسن توجيهه لا يؤدي إلى نتائج
 عملية مفيدة إلى الغاية في تنمية الأهليات المِهْنِيَّة على الأقل ، إن لم يرفع مستوى
 الأخلاق ، ومن المؤسف أن الأمم اللاتينية منذ ثلاثين سنة على الخصوص أقامت
 نظاما التعليميَّ على مبادئ مَعْيَبَةٍ جداً وأنها تُصرُّ على أضراليلها المحزنة على الرغم من
 الملاحظات التى يبديها أناس من ذوى الفضل ، مثل بريال وفوستيل دوكوننج وتاين
 وغيرهم ، ومما بيَّنته في كُتُب مختلفة^(١) أن تربيئنا الحاضرة تُحوِّل عدداً

(١) انظر إلى الطبعة السابعة من « روح الاشتراكية » ، وإلى الطبعة الرابعة عشرة من

« روح التربية » .

كبيراً ممن يَتَلَقَّونها إلى أعداء للمجتمع وأنها تَجْمَعُ كثيراً من التلاميذ لأسوأ طرق الاشتراكية .

وأولُ خطر في تلك التربية التي أُصِيبَ في وصفها باللاتينية هو في قيامها على خطأً نفسياً أساسياً ، هو في أن يُتَصَوَّرَ أن استظهار الكتب المختصرة يُنمِّي الذكاء ، ومن هنا جاء الجدُّ في حفظ أقصى ما يمكن أن يحفظ منها على ظهر القلب ، فلا يَصْنَعُ الشابُّ ، من المدرسة الابتدائية حتى الدكتوراه ، حتى الأستاذية ، سوى ابتلاع محتويات الكتب من غير أن يُعْمَلَ قوة التمييز والمبادرة فيه ، فالتعليمُ عنده يقوم على الاستظهار والإطاعة ، قال أحد وزراء المعارف العامة السابقين مسيو جُول سيمُون : « يتألف من استظهار الدروس وحفظ كتاب نحو أو موجز على ظهر القلب وإجادة التكرار وحسن التقليد تربية هزلية يَنِمُّ كلُّ جهد فيها على تسليم أمام عصمة المعلم ولا يؤدي إلى غير نقصنا وجعلنا من العاجزين » .

ولو اقتصر أمر تلك التربية على عدم فائدتها لا كُتِفِيَ بالثناء للأولاد التعماء الذين استُبدِلَ بتعليمهم الأمور الضرورية الكثيرة لتعليم سلسلة نسب أبناء كُوتير ووقائع نُسْتَرِيَّة وأُستَرازية وفصائل الحيوان ، ولكن تلك التربية تنطوي على خطر أعظم من ذلك ، تنطوي على تلقين من يتلقاها نفوراً شديداً من الحال التي وُلِدَ عليها ورغبة شديدة في الخروج منها ، فلا العاملُ يريد أن يكون عاملاً ، ولا الفلاحُ يريد أن يكون فلاحاً ، ولا آخرُ أبناء الطبقة الوسطى يرى لأولاده مهنة أصلح من مناصب الدولة ذوات الرواتب ، وهكذا ترى المدرسة لا تُعِدُّ رجالاً للحياة ، بل تُعِدُّ رجالاً للوظائف العامة التي لا يتطلب النجاح فيها أيُّ بصيصٍ من قوة المبادرة ، والمدرسة تُوجِدُ في أسفل السلم الاجتماعي تلك الجحافل من الصعاليك

المتعاضين من طالعهم والمستعدين للعصيان على الدوام ، وتُبصر في أعلى ذلك السُّلم طبقَتنا الوسطى الطائشة ، المرتابة الساذجة معاً ، والمُشرَّبة بآعتماد خرافى على قدرة الدولة ، مع أنها لا تنفك تُوجِّه سهام اللوم إليها مُجرِّمةً الحكومة بآئامها الخاصة عاجزةً عن إتيان شىء بغير تدخل السلطة .

والدولة التى تصنع بالكتب الموجزة سَحْلَةَ الشهادات أولئك لانستطيع أن نستخدم منهم غير عدد قليل فَنُضْطَرَّ إلى ترك الباقيين بلا وظائف ، فيجب أن نَسَلِّمَ ، إِذَنْ ، بإجراء الرزق على الأوَّلين ومعاماةِ عداوة الآخرين ، ولو نظرت إلى الهرَم الاجتماعى من أعلاه إلى أسفله لوجدتَ جَمْعَ سَحْلَةِ الشهادات الهائل يحاصر الوظائف فيه فى الوقت الحاضر ، وقد يَصْغُب على تاجر أن يَجِدَ له نائِباً يذهب إلى المستعمرات فيقوم فيها بأعماله ، مع أنك تَجِدُ أُلوف الطلاب الراغبين فى أحقر الوظائف العامة ، ومن ذلك أن مديرية السِّين وحدها تشتمل على عشرين ألف معلم ومعلمة بلا عمل فيخاطبون الدولة فى أمر معاشهم على حين يزدرون الحقول والمصانع ، وعددٌ من يُخْتَارُ من هؤلاء للوظائف إذ كان قليلاً يكون عدد الساخطين منهم عظيماً بحكم الضرورة ، فترى هؤلاء مستعدين لجميع الثورات مهما كان زعماء هذه الثورات وهدفها ، فالحق أن اكتساب معارف ضارة هو وسيلة مضمونة لتحويل الرجل إلى ثائر^(١) .

(١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالأمم اللاتينية ، فهى تشاهد أيضاً فى الصين ، فى هذا البلد الذى تقوده كذلك سلسلة من الموظفين ، ذلك البلد الذى تنال فيه الوظائف بالمسابقات القائمة على تلاوة كتب كثيفة عن ظهر القلب فقط ، واليوم يعد جفيل المتعلمين العاطلين من العمل فى الصين مصيبة قومية حقيقية ، وقل مثل هذا عن بلاد الهند حيث تألفت طبقة خاصة من المتعلمين منذ فتح الإنكليز مدارس فيها ، لا للثقافة كما فى إنكلترة ، بل لتعليم أبناء البلاد الأصليين ، فالمتعلم فى الهند إذا لم يستطع أن ينال وظيفة غدا عدواً شديداً للسلطة الإنكليزية ، وأول أثر للتعليم فى متعلمى =

ومن الواضح أن مقاومة ذلك السيل أصبحت بعد الأوان ، والتجربة وحدها ، وهي آخر مربية للأمم ، ستقوم بكشف الغطاء عن خطئنا ، والتجربة وحدها ستثبت لنا ضرورة استبدال تعليم مهني قادر على ردّ الشبهة إلى ما هو مهجور من الحقول والمصانع والمشاريع الاستعمارية بكتبنا الموجزة البغيضة وبمسابقاتنا التي يُرْتَفَى لها .

وذلك التعليم المهني الذي يطالب به جميع ذوى البصائر في الوقت الحاضر هو التعليم الذي تلقاه آبائنا فيما مضى ، وهو التعليم الذي عرّفت أن تحافظ عليه الأمم المسيطرة في الوقت الحاضر على العالم بإرادتها وقوة مبادرتها وروح الإقدام فيها ، وقد بين تانين في صفحات ممتازة سأنقلها بعد قليل أن تربيتنا الماضية كانت كالترية الإنكليزية أو الترية الأمريكية الحاضرة تقريباً ، وقد قابل تانين بين المنهاج اللاتيني والمنهاج الأنغلو سكسوني مقابلةً عجيبية فأبان نتائج هذين المنهاجين .

ولو كان اكتساب المعارف الكثيرة اكتساباً سطحياً واستظهار الكتب الموجزة الكثيرة استظهاراً كلياً يرفعان مستوى الذكاء لرّضينا بجميع مساوي تربيتنا المدرسية على ما يحتمل وإن لم تصنع غير منحطين وغير ساخطين ، ولكن أتبلغ تربيتنا هذه النتيجة ؟ كلاً مع الأسف ، فالتمييز والتجربة والمبادرة والخلق شروط للنجاح في الحياة ، ولا تُعلم هذه الشروط في الكتب ، أجل ، إن الكتب معاجم تفيد مراجعتها ، غير أن من الفضول شخن الدماغ بطويل الفصول .

= الهند هو خفض مستوى أخلاقهم خفضاً عظيماً ، موظفين كان هؤلاء أو لم يكونوا ، وقد أفضت في بيان هذا الأمر في كتاب « حضارات الهند » ، وقد أبصر جميع المؤلفين الذين زاروا شبه جزيرة الهند الواسعة مثل ما أبصرت .

وكيف تقدر التربية المهنية على إتمام الذكاء بما لا تؤدي إليه التربية المدرسية أبداً ؟
ذلك ما أجاد تانين بيانه في السطور الآتية ، قال تانين :

« لانتكُون الأفكار في غير بيئتها الطبيعية الاعتيادية ، والذي يُنبِت بذرتها هو ما لا يُحصى من المؤثرات المحسوسة التي يتلقاها الفتى في كل يوم من المصنع والمنجم والمحكمة والمكتب والمعمل والمشفى ومن منظر الأدوات والعُدَد والعمليات ومن حضور الزُّبُن والعمال ومن العمل ومن المصنوع الحسن أو الرديء والغالى أو الرخيص ، فهذه هي ما تتناولها العين والأذن واليدان ، حتى الشَّامَةُ ، من الأحاسيس الصغيرة الخاصة التي تلتقط التقاطاً غير مقصود والتي تنضج نضجاً غير منظور فتنتظم في الفتى لتوحي إليه ، عاجلاً أو آجلاً ، بتركيب جديد أو بتبسيط مركب أو باقتصاد أو تحسين أو اختراع ، والشابُّ الفرنسي محرومٌ من جميع هذه الملامسات الثمينة ومن جميع هذه العناصر الضرورية التي يسهل هضمها ، والشابُّ الفرنسي في السنَّ الخصيبة التي تدوم سبع سنين أو ثمانى سنين يُحجَز في مدرسة بعيداً من التجربة المستقيمة الذاتية التي كانت تمنُّ عليه ، لولا ذلك ، بفهم صحيح حارٍ للأشياء والناس ولأوجه التصرف فيها .

« ... وتجدُ تسعةً من العشرة على الأقل قد أضاعوا وقتهم وجهدهم وسنين كثيرةً من حياتهم وسنين فعالة قاطعة ، وأنتم عُدُّوا قبل كلِّ شيء نصفَ الذين يتقدمون إلى الامتحان أو ثلثيهم ، أى المرفوضين ، ثم عُدُّوا النصف أو الثلثين ، أى المنهوكين ، بين من كُتِبَ لهم النجاح من المُصنِّفين والمأذنين وحملة الشهادات ، ومن الإرهاق أن يُطالَبوا بأن يضعوا بيانات حية في طائفة من العلوم باحثة عن جميع المعارف البشرية في ساعتين من نهار مُعيَّن وهم جالسون على كرسى

أمام لَوْح ، والواقعُ أنهم كانوا في ساعتين من ذلك النهار كما ذَكَرْنَا أو كانوا قريباً مما ذَكَرْنَا، بَيَدَ أنهم لا يلبثون أن يصبحوا غير ما ذَكَرْنَا بعد شهر ، أى لا يَقْدِرُونَ على مجاوزة امتحان جديد ، أى إن ما اكتسبوه ، إذ كان كثيراً ثَقِيلاً ، يَزُولُ من نفوسهم فلا ينالونه مُجَدِّداً وقد ارتخى نشاطهم الذهنيُّ وقد جَفَّتْ عُصَارَتُهُم الخصبية ، والرجلُ يظهرُ إذ ذاك وهو ليس برجل ، وهذا الرجل المُصَنَّفُ المتزوج القانع بأن يدور في دائرة وضمن دائرة دَوْرَانَا لا حَدَّ له يَزُكُّ إلى عمله الضيق ، فيقوم بهذا العمل بانتظام ، ولا شئ بعد هذا ، هذا هو الدخل المتوسط ، ولا يوازن الدخلُ الخَرْجَ لاريب ، وعكسُ هذا يقع في إنكلترة وأمريكا ، وقبل سنة ١٧٨٩ في فرنسا ، حيث يُساوِي الدخلُ الخَرْجَ أو يزيد عليه .

وذلك المؤرخُ الشهيرُ يُثَبِّتُ لنا الفرقَ بين مِنهاجنا وَمِنهاج الأنغلو سكسون بعد ذلك ، وذلك أن التعليم لدى الأنغلو سكسون لا يَصْدُرُ عن الكِتَاب ، بل عن الشئ نفسه ، ومن ذلك أن المهندس يَتَخَرَّجُ في مصنع لا في مدرسةٍ بأى وجه فيمكن كلُّ واحد أن يَصِلَ هنالك إلى الدرجة التي تناسب ذكاهه ، فهو يكون فيه إما عاملاً وإما عريفاً إذا كان لا يستطيع أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو يكون مهندساً إذا كان ذا استعداد يَوْهَلُهُ لذلك ، تلك هي طريقة ديموقراطية مفيدة للمجتمع غيرُ التي تقوم بها مهنة الشخص على مسابقةٍ بضع ساعاتٍ في ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة ، قال تايين :

« يَتَخَرَّجُ التلميذ منذ صباه وَيَتَمَرَّنُ في المَشْفَى أو المَنجَمِ أو المصنع أو على المهندس المَعَارِيَّ أو رجل القانون كما يَتَدَرَّبُ عندنا الكاتب في مكتبه أو التلميذ في معمله تقريباً ، والتلميذُ في البَدَاءَةِ ، وقبل الدخول ، يكون قد تَلَقَّى بعض الدروس

العامة الموجزة لكي تكون لديه منطقة مُهيأة لتَقَبُّل ما يبدو له من الملاحظات على أثر دخوله ، على أن هنالك بضعة دروس فنية يمكنه أن يأخذها في ساعات فراغه فيُنظِّم بها ما يَتَّفَق له من التجارب اليومية شيئاً بعد شيء ، ونظام كهذا يوجب زيادة الاستعداد العملي ونُمُوّه من تلقاء نفسه إلى الدرجة التي تُتناسب ملكات التلميذ وفي الاتجاه الذي يتطلبه عمله القادم بصنع خاص يلائمه منذ الساعة الراهنة ، وهكذا ينتهي الفتى بانكسرة والولايات المتحدة إلى انتزاع جميع ما في نفسه بنفسه من قُوّره ، فإذا بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمره أو كاد يبلغها ، وكان لديه من الجوهر والمادة ما يكفي ، عاد لا يكون مُنفذاً نافعاً فقط ، بل ملتزماً من تلقاء نفسه أيضاً ، وعاد لا يكون عَجَلَةً فقط ، بل مُحَرِّكاً أيضاً ، وفي فرنسا حيث قيل بالطريقة المعاكسة ، وحيث صارت هذه الطريقة أشدَّ صِينِيَّةً مع الأجيال ، غدا مجموعُ القُوَى الضائعة عظيماً .

ويَصِلُ ذلك الفيلسوف الكبير إلى النتيجة الآتية في زيادة عدم مطابقة تربيتنا اللاتينية للحياة ، فقد قال :

« مُدٌّ وأَرْهَقُ الإعدادُ النظريُّ والمدرسيُّ على المقاعد وبالكُتُب في مراتب التعليم الثلاث : في الطفولة والمراهقة والفتُوّة ، وذلك في سبيل الامتحان والدرجة والشهادة والمأذونية ، في سبيل هذه الأمور فقط ، وبأسوأ الوسائل ، وبتطبيق نظامٍ مُضادٍّ للطبيعة مناقضٍ للاجتماع ، وبتأجيل مُفرطٍ للتَخَرُّج العمليِّ ، وبالدراسة الداخلية ، وبالاتِّجاذب المصنوع ، وبالحشو الآليِّ ، وبالإعياء ، من غير نظرٍ إلى الوقت الذي يأتي ، ومن غير نظرٍ إلى سنِّ الرشد وإلى ما سيقوم به الشابُّ من واجبات الرُّجولة ، ومن غَضِّ طَرَفٍ عن العالم الحقيقيِّ الذي سيخرج الفتى إليه بعد قليل ، وعن المجتمع

المحيط الذى يجب أن يُجعل ملائماً له أو مُسلماً به سلفاً ، وعن الصراع البشرى الذى لا بُدَّ للدفاع والوقوف فيه على الرّجلين من التّأهبّ والتسلّح والممارسة والصلابة مقدماً ، ولا تَمْنَحُ مدارسنا ذلك التّأهبّ الضرورى للفتى ، ولا تلك القُنية التى هى أهمُّ من الأمور الأخرى ، ولا تلك المتانة فى حسن الذوق والإرادة والأعصاب ، ويسير كلُّ شىء إلى العكس ، وتبتعد تلك المدارس عن إعداده فلا تجعله أهلاً لما ينتظره من حال قريب محتوم ، وهو يسير فيدخل العالم فلا يكون نصيبُ خطّاه الأولى فى معترك العمل غيرَ السقوط المتعاقب الأليم فيظلّ فيه مرضوضاً ، ويبقى فيه لطويل زمنٍ مُنْغَصّاً ، مُقْعِداً فى بعض الأحيان ، ألاّ إن هذا ابتلاءٌ كبيرٌ خِطَرُ ، ألاّ إن هذا ابتلاءٌ يَفْسُدُ فيه توازن الخلق والذهن فيُخْشَى ألا يعودَ هذا التوازن ، ألاّ إن تبدد الخيال جاء سريعاً كاملاً فكانت خيبة الأمل عظيمة والكروبُ شديدة^(١) .

وهل ابتعدنا بما تقدم عن روح الجماعات ؟ كلاً لا ريب ، فَمَنْ يَرْغَبُ فى فَهْمِ الأفكار والمعتقدات التى تَلَبَّتْ فيها اليوم وتَتَفَتَّحُ فيها غداً لا بدَّ له من معرفة الوجه الذى أُعِدَّتْ به التربة ، وما يَتَّفِقُ للشبيبة من التعليم فى بلد يساعد على تَبَيُّنِ مصائر هذا البلد ، وما كان من التريبة والجيل الحاضر فَيُسَوِّغُ أَقَمَ ما يُسْتَبْصَرُ ، وبالتعليم والتربية تَصْلُحُ روح الجماعات أو تَفْسُدُ من بعض الوجوه ، ومن الضرورى ، إِذَنْ ،

(١) انظر إلى الجزء الثانى من كتاب تان : « النظام الحديث » ، ١٨٩٤ ، وهذه الصفحات هى آخر ما كتبه تان تقريباً ، وهى خلاصة عجيبة لنتائج تجربته الطويلة ، والحق أن التربية هى وسيلتنا الوحيدة للتأثير فى روح الشعب بعض التأثير ، ومن دواعى الأسف الشديد أنك لا تكاد تجد فى فرنسا رجلاً قادراً على إدراك ما ينطوى عليه تعليمنا الحاضر من عناصر الانحطاط المرهوبة ، ذلك التعليم الذى يخفض الشبيبة بدلاً من رفعها .

أن تُشرح كيفية إعداد المنهاج الحاضر لها ، وكيفية تحوُّل جميع الأُخلاء والمحايدين بالتدريج إلى جيش الساخطين العظيم المستعدَّ لاتباع تلقينات ذوى الخيال ورجال البيان ، واليوم تصنع المدرسة ساخطين وفوضويين ، واليوم تُهيئُ المدرسة للأُمِّ اللاتينية ساعات الانحطاط .

الفصل الثاني

العوامل القريبة في آراء الجماعات

(١) الصور والألفاظ والصيغ — قوة الكلمات مرتبطة فيما تثيره من الصور المستقلة عن معناها الحقيقي — تختلف هذه الصور باختلاف الأزمان والعروق — بلى الكلمات — أمثلة مختلفة على تبدل معنى بعض الكلمات المستعملة تبداً عظيماً — الفائدة السياسية من إطلاق أسماء جديدة على أمور قديمة عند ما تحدث الكلمات التي تدل على تلك الأمور أثراً سيئاً في الجماعات — اختلاف معنى الكلمات باختلاف العرق — اختلاف معنى كلمة الديمقراطية في أوربة وفي أمريكا — (٢) الأوهام — أهميتها — هي موجودة في أساس جميع الحضارات — ضرورتها الاجتماعية — الجماعات تفضل الأوهام على الحقائق في كل وقت — (٣) التجربة — التجربة وحدها هي التي يمكنها أن تحدث في روح الجماعات ما أصبح ضرورياً من الحقائق وأن تقضي على ما أصبح ضاراً منها — لا تكون التجربة مؤثرة إلا إذا كررت كثيراً — قيمة التجارب الضرورية في إقناع الجماعات — (٤) العقل — عدم تأثيره في الجماعات — لا يسيطر على الجماعات إلا بالتأثير في عواطفها اللاشعرة — شأن المنطق في التاريخ — الأسباب الخفية للحوادث التي لا يحتمل تصديقها .

بحثنا في العوامل البعيدة والتمهيدية التي تمنح روح الشعوب استعداداً خاصاً للتقبل ، فتجعل من الممكن تفتح بعض المشاعر وبعض الأفكار لدى الجماعات ، والآن بقي علينا أن نبحث في العوامل ذات التأثير المباشر ، وسنرى في فصل قريب كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر نتائجها كلها .

وفي القسم الأول من هذا الكتاب درسنا مشاعر الجماعات وأفكارها ومداركها ، ومن هذه المعرفة يمكننا أن نطلع بوجه عام على وسائل التأثير في روحها ، ومما تقدم

عَرَفْنَا الَّذِي يَقِفُ خِيَالَ الْجَمَاعَاتِ وَقُدْرَةَ التَّلْقِينَاتِ وَعَدَوَاهَا ، وَلَا سِيَّامَا كَانَ مِنْ هَذِهِ التَّلْقِينَاتِ عَلَى شَكْلِ صُورٍ ، وَلَكِنْ إِذْ كَانَتْ التَّلْقِينَاتُ الْمُمْكِنَةُ مِنْ أَصْلِ مُخْتَلَفٍ أَشَدَّ الْاِخْتِلَافِ فَقَدْ تَكُونُ الْعَوَامِلُ الَّتِي يُؤَثِّرُ بِهَا فِي رُوحِ الْجَمَاعَاتِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْاِخْتِلَافِ ، وَمِنْ الضَّرُورِيِّ ، إِذَنْ ، أَنْ يُبَحِّثَ فِيهَا عَلَى انْفِرَادٍ ، وَالْجَمَاعَاتُ ذَاتُ شَبَهٍ بِأَبْنَى هَوْلِ الْقِصَّةِ الْقَدِيمَةِ ، فَيَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ حَلَّ الْأَلْفَازِ الَّتِي تَطْرَحُهَا عَلَيْنَا رُوحُهَا أَوْ أَنْ نُسَلِّمَ بِاِفْتِرَاسِهَا إِيَّانَا .

١ — الصُّورُ وَالْأَلْفَازُ وَالصَّيْغُ

رَأَيْنَا، حِينَمَا بَحَثْنَا فِي خِيَالِ الْجَمَاعَاتِ ، أَنَّ الْجَمَاعَاتِ تَتَأَثَّرُ بِالصُّورِ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَنَحْنُ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَدَيْنَا هَذِهِ الصُّورُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أُمْكِنُنَا أَنْ نَسْتَحْضِرَهَا بِاسْتِعْمَالِ الْأَلْفَازِ وَالصَّيْغِ اسْتِعْمَالًا بَارِعًا ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْأَلْفَازَ وَالصَّيْغَ إِذَا مَا اسْتُخْدِمَتْ بِحِذْقٍ اتَّفَقَ لَهَا مِنَ السُّلْطَانِ الْخَفِيِّ مَا عَزَاهُ إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالسَّحْرِ فِيمَا مَضَى ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا تُثِيرُ فِي رُوحِ الْجَمَاعَاتِ أَشَدَّ الْعَوَاصِفِ هَوْلًا كَمَا أَنَّهَا تَوْجِبُ سَكُونَهَا ، وَلَوْ جُمِعَتِ عِظَامُ مَنْ ذَهَبُوا ضَحِيَّةَ سُلْطَانِ الْأَلْفَازِ وَالصَّيْغِ لَأُمِكنَ أَنْ يَقَامَ مِنْهَا هَرَمٌ أَعْلَى مِنْ هَرَمِ خُوفِ الْقَدِيمِ .

وَسُلْطَانُ الْأَلْفَازِ مُرْتَبِطٌ فِي الصُّورِ الَّتِي تُثِيرُهَا ، وَهُوَ مُسْتَقِلٌّ عَنْ مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيِّ ، وَمِمَّا يَحْدُثُ أحيانًا أَنْ يَكُونَ لِلْأَلْفَازِ ذَاتُ التَّعْرِيفِ الرَّدِيءِ أَكْبَرُ تَأْثِيرٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْكَلِمَاتُ : الدِّيمُوقْرَاطِيَّةُ وَالْاِشْتِرَاقِيَّةُ وَالْمَسَاوَاةُ وَالْحَرِيَّةُ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْأَلْفَازِ الَّتِي بَلَغَ مَعْنَاهَا مِنَ الْغَمُوضِ مَا لَا يَكْفِي لِتَعْيِينِهِ مَجْلِدَاتُ ضَخْمَةٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجِدُ لِمَقَاطِعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقَصِيرَةِ قُدْرَةً سَحَرِيَّةً كَمَا لَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَقَاطِعُ

تنطوى على حلّ جميع المعضلات ، وبتلك الكلمات يُلخّص مختلف الرغبات
اللاشعورية وأمل تحقيقها .

ولا يستطيع العقل ، ولا البراهين ، مقاومة بعض الألفاظ وبعض الصيغ ،
والألفاظ والصيغ يُنطق بها أمام الجماعات نطقاً احترام فتغنوها الوجوه وتنحنى
أمامها الرؤوس ، ويُعدّها كثير من الناس كقوى الطبيعة وكأقدار خارقة للعادة ،
أجلّ ، إنها تُثير في النفوس صوراً عظيمة مبهمة ، غير أن الإبهام الذى يخالطها يزيد
في قوتها الخفية ، وهى تُشبّه بالآلهة المرهوبة المستترة خلف قبة العهد التى لا يدنو العابد
منها إلا مرتجفاً .

وإذا كانت الصور التى تثيرها الألفاظ مستقلة عن معناها فإنها تختلف بين جيل
وجيل وبين شعب وشعب مع اتحاد الصيغ ، وفي بعض الألفاظ يرتبط بعض الصور
ارتباطاً عابراً فيكون اللفظ كزرّ الاستغاثّة التى يُظهرها .

ومن الألفاظ والصيغ ما لا يستحضر صوراً ، ومنها ما يَبْلَى بعد أن يستحضر
فلا يُثير شيئاً في النفس ، وتغدو الألفاظ إذ ذاك أصواتاً فارغة فتكون فائدتها الرئيسة
في إعفاء من يستعملها من واجب التفكير ، ومن ذلك أن لدينا ، بما يُتعلّم في الصّغر
من الصيغ والعبارات الدارجة ، كلّ ما يجب لمجاوزة الحياة من غير احتياج مُجهّد
إلى التفكير .

ونحن إذا نظرنا إلى لغة من اللغات وَجَدْنَا أن الكلمات التى تتألف منها تتبدل
ببطء في غُصُون الأجيال ، غير أن ما تُثيره من الصور أو ما يرتبط فيها من المعنى
يتغير بلا انقطاع ، ولذلك ترانى قد انتهيت في كتاب آخر إلى النتيجة القائلة إن
الترجمة الصحيحة من إحدى اللغات ، ولا سيما لغات الأمم البائدة ، ضَرَبٌ من

المُحال ، وماذا نصنع بالحقيقة إذا ما استبدلنا عبارة فرنسية بعبارة لاتينية أو يونانية أو سنسكريتية أو حاولنا قهْم كتاب ألف بلغتنا منذ بضعة قرون ؟ إننا نكون قد استبدلنا ما أثارته الحياة العصرية في ذهننا من الصور والأفكار بما أوجبه الحياة القديمة من المبادئ والصُور في روح عروق خاضعة لأحوال معيشةٍ لا شَبَهَ بينها وبين أحوالنا المعاشية ، ومما حدث أن خُيِّلَ لرجال الثورة الفرنسية أن يَحْذُوا حَذَوُ الأغارقة والرومان فلم يصنعوا غيرَ مَنْحَمٍ لطائفة من الكلمات القديمة ما لم يكن لها من المعاني قِطٌ ، وأى شَبَهٍ يمكن أن يكون بين نُظُم الأغارقة والنظم التي يُعَبَّرُ عنها بالكلمات نفسها في أيامنا ؟ ألم تدلّ كلمة الجمهورية عندهم على نظام أريستوقراطية يقوم به لقيف من صِغار الطُغاة المسيطرين على جماعة من الأرقاء خاضعةٍ لأشدّ استعباد ؟ وما كان لتلك الأريستوقراطيات البلدية القائمة على الرِّق لتعيش ثانيةً بغير الرِّق .

وما هو الشَبَه الذي يمكن أن يكون بين معنى كلمة الحرية في الوقت الحاضر ومعناها في زمن لم تَخْطُرَ حرية الفكر فيه على قلب أحد ، وفي زمن لم يكن فيه جُرمٌ أعظم ولا أندرُ من الجِدال في آلهة المدينة وقوانينها وعاداتها ؟ وكانت كلمة الوطن في روح الأثينيين أو الإسبارطيين تدلُّ على عبادة أثينة أو إسارطة ، لا عبادة بلاد الإغريق المؤلفة من مدن متنافسة متحاربة على الدوام ، وماذا كان معنى كلمة الوطن نفسها لدى قدماء الغوليين المنقسمين إلى قبائل متخاصمةٍ منتسبة إلى عروق ذات لغات وديانات متباينة قسَّهَل على قيصر أن يَغْلِبها لما كان له بينها من حلفاء على الدوام ؟ ورومة وحدها هي التي أنعمت على بلاد الغول بوطنٍ حين مَنَّت عليها بالوحدة السياسية والدينية ، ونحن إذا لم نَعُدْ إلى ماضٍ بعيد جداً فرَجَعنا إلى نحو قرنين فقط سألنا : أَمِنَ المناسب أن يُعْتَقَد أن كلمة الوطن كانت لدى أمراء

فرنسة ، الذين كانوا يحالفون الأجنبيّ على مليكهم كما صنع كُونْدِه الكبير ، تدلُّ على مثل معناها في الوقت الحاضر ؟ ألم يكن لكلمة الوطن أيضاً معنى مختلفاً أشدَّ الاختلاف عن المعنى العصريّ ، وذلك لدى المهاجرين الذين كان يُخَيَّل إليهم أنهم يعملون بشرائع الشرف عند محاربهم فرنسة والذين كانوا يطيعون وجهه نظرهم بالحقيقة مادام النظام الإقطاعيّ يربط التابع بالأمير بالأرض وما دام الوطن الحقيقيّ هو المكان الذي كان يتقوده وليُّ الأمر ؟

وما أكثر الألفاظ التي تغيّر معناها تغيّراً عظيماً بين جيل وجيل على الوجه المذكور ، ونحن لانفهمها كما كانت عليه في الماضي إلا بعد جهد طويل ، وقد قيل بحق إنه لا بدّ من مطالعات كثيرة لتمثل ما كان يذهب إليه أجدادنا من معنى كلمة الملك والأسرة المالكة مثلاً ، وماذا يكون أمر التعابير التي هي أكثر تعقّداً ؟

إذن ، ليس للألفاظ سوى معانٍ متحوّلة موقّعة متغيرة بين جيل وجيل وبين أمة وأمة ، وإذا ما أردنا أن نوثّر بالألفاظ في الجماعة وجب أن نعرف ماذا يكون معناها لدى الجماعة في زمنٍ ما ، لا المعنى الذي كان لها في الماضي ، أو المعنى الذي يكون لها عند أفراد ذوى مزاج نفسيّ مختلف ، فالألفاظ تعيش كالأفكار .

ولذلك نقول إنه إذا ما حدثت انقلابات سياسية وتحولات في المعتقدات فأسفرت عن نفور عميق من الصوَر التي تُثيرها بعضُ الألفاظ وجب على القطب السياسيّ أن يُغيّر هذه الألفاظ من غير أن يمسّ الأمور نفسها ، وذلك لأن هذه الأمور هي من شدّة الارتباط في المزاج الموروث ما يتعذر معه تحويلها ، وما لاحظته العلامة توكفيل أن عمَل العهد القنصليّ والعهد الإمبراطوريّ قام بوجه خاصّ على إلباس مُعظَم نُظُم الماضي ألفاظاً جديدة ، ومن ممّ على انتحال ألفاظ تحوّل جذتها دون

إثارة تأثيره في الخيال ألقاظ أخرى من الصُّور المكروهة ، ومن ذلك أن غدا الخراج ضريبة عقارية ، واحتكار الملح ضريبة الملح ، والمَعُونَةُ ضرائب غير مُقرَّرة ومكوساً مُنظمة ، والعوائد المهنيَّة رسوم إجازات سنوية إلخ .

ومما تقدم ترى أن من أهم وظائف رجال الدولة أن يتخذوا من الألفاظ المقبولة عند الشعب ، أو المحايدة على الأقل ، ما يُطلقونه على أشياء تَمَقُّتها الجماعات بأسمائها القديمة ، وقدرة الألفاظ هي من العِظَم ما يكفي معه حسن اختيار في التعابير يُرَضَى به أشدُّ الأمور استكراهاً ، وقد أصاب تايين في ملاحظته أن اليعاقبة استطاعوا باستعانتهم بكلمتي الحرية والإخاء اللتين كانتا مألوفتين إلى الغاية في ذلك الحين : « أن يقيموا استبداداً خليقاً بالدَّاهُوميَّة ومحكمةً تُعَدِّلُ محكمة التفتيش ومذابح بشرية شبيهة بمذابح المكسيك الغابرة » ، وتقوم مهنة السَّاسة ، كما تقوم مهنة المحامين ، على معرفة استعمال الألفاظ على الخصوص ، والأمرُ صَعْبٌ ، ووجه الصعوبة في أن للألفاظ الواحدة في المجتمع الواحد معاني مختلفة في مختلف الطبقات الاجتماعية في الغالب ، فهذه الطبقات ، وإن كانت تستعمل ألفاظاً واحدة في الظاهر ، لاتتكلم بلغة واحدة .

وفي الأمثلة السابقة ذكرنا أن الزمان عامل رئيس في تغيير معاني الكلمات ، وإذا كنا قد ذكرنا العِرْق أيضاً فذلك لأن الألفاظ الواحدة تُقَابِلُ في الغالب أفكاراً متباينة أشدَّ التباين في الزمن الواحد لدى شعوب متماثلة تَمَدُّناً مختلفة عرقاً ، ولا يمكن تَبَيُّن هذه الفروق بغير رِخلات كثيرة ، ولا أخوض كثيراً في أمر العِرْق إِذْنُ ، بل أقصر على ملاحظتي أن أشدَّ الألفاظ استعمالاً بين أمة وأمة هي التي

تكون أشدَّ المعانى اختلافاً، وذلك كاللفظين : الديمقراطية والاشتراكية ، الكثيرى الاستعمال فى الوقت الحاضر .

تقابل ذينك اللفظين بالحقيقة أفكارٌ وصُورٌ مختلفة اختلافاً تاماً فى نفوس اللاتين ونفوس الأنغلو سكسون ، فكلمة الديمقراطية لدى اللاتين تعنى على الخصوص انزواء إرادة الفرد ومبادرته أمام إرادة الدولة ومبادرتها ، فتكلف الدولة بالتوجيه والحصر والاحتكار شيئاً فشيئاً ، وإلى الدولة يرجع جميع الأحزاب بلا استثناء وباستمرار ، جذرية كانت هذه الأحزاب أو اشتراكية أو ملكية ، وبالعكس تعنى كلمة الديمقراطية عند الأنغلو سكسون ، ولا سيما الأمريكى ، شدة نمو الإرادة والفرد وانزواء الدولة فلا يُترك للدولة شئٌ من التوجيه حتى التعليم ، وذلك خلا أمور الشرطة والجيش والصّلات السياسية ، ومن ذلك ترى أن للكلمة الواحدة معانى متناقضة تناقضاً مطلقاً لدى الشعبين المذكورين ^(١) .

٢ - الأوهام

عانت الأمم تأثير الأوهام منذ فجر الحضارات على الدوام ، وأقامت الأمم لموجدى الأوهام أكثر المعابد والتماثيل والهياكل ، والأوهام صاحبة السياسة الموهوبة ، دينية كانت كما فى الماضى أو فلسفية واجتماعية كانت كما فى الوقت الحاضر ، بدت على رأس جميع الحضارات التى أزهرت فى دنيانا ، وباسم الأوهام شيدت معابد كلدة ومصر والمباني الدينية فى القرون الوسطى وقلبت أوربة منذ قرن رأساً على عقب ، ولا تجدُ مبدأً من مبادئنا الفنية أو السياسية أو الاجتماعية لا يتخيل طابع الأوهام المؤثر ، والإنسان ، وإن هدم الأوهام أحياناً بفعل الفن

(١) فصلت الفرق بين المثل الديمقراطى اللاتينى الأعلى والمثل الديمقراطى الأنغلو سكسونى الأعلى فى كتابى « السنن النفسية لتطور الأمم » .

الهائلة ، يُعيد رقعها على الدوام كما يُلوح ، ولولا الأوهامُ ما استطاع الإنسان أن يَخْرُجَ من الهمجية الأولى ، ولولا الأوهامُ لعاد الإنسان إلى الهمجية من فَوْره ، أَجَلٌ ، إن الأوهامَ ظلال باطلة ، غير أن بَنَاتِ أحلامنا هذه هي التي حَفَزَت الأُم إلى ابتداء ما يوجب رَوْعةَ الفنون وعَظَمَةَ الحضارات .

قال مؤلفٌ مُلَخَّصٌ لآرائنا : « ماذا يبقى من أحلام البشر الكبيرة لو قُوضَ في المتاحف والمكتبات وهُدِمَ على بَلاط البَاحات جميعُ الآثار والمباني الفنيَّة التي أَوْحَتْ بها الأديان ؟ لقد أسفر ما في الناس من أُمَلٍ وأوهام لا كِيانَ لَهُم بغيره عن وجود الآلهة والأبطال والشعراء ، نَعَمْ ، ظهر العلمُ ذاتَ حينٍ قادراً على حمل ذلك العمل ، غير أن الذي أنزل منزلته في الأفتدة المتعطشة إلى المَثَلِ الأعلى هو أنه عاد لا يَجِرُّوْهُ على الوعد وأنه لا يَعْرِفُ الكَذِبَ بما فيه الكفاية » .

وَقَفَ فلاسفة القرن الماضي أنفُسَهُم بحِجارة على تبديد ما عاش عليه آباؤنا في قرون كثيرة من الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية ، وهم إذ بدَّدوا الأوهام استنزفوا منابع الأمل والتسليم فوجدوا خَلْفَ الأُخيلة التي قَضَوْا عليها قُوَى الطبيعة العُمى التي لا تَحْنُوْهُ على الضعف ولا تَعْرِفُ الرحمة .

وسارت الفلسفة قُدماً إلى الأمام ، ولكنها لم تَسْطِيعْ بَعْدُ أن تَعْرِضَ على الأُم أيَّ مَثَلٍ عالٍ قادرٍ على فَتْنِها ، وإذ كانت الأوهامُ أمراً ضرورياً للأُم فإنها تسير من تلقاء نفسها إلى فارس البيان الذي يَعْرِضُها عليها كما تسير الحشرة إلى النور ، أَجَلٌ ، إن الضلال ، لا الحقيقة ، هو أعظم عامل في تطور الأُم ، وإذا كانت الاشتراكية تزيد قوَّةً في الوقت الحاضر فلأنها لا تزال تنطوي على الوهم الحى الوحيد ، ولا تَعُوْهُ البراهين العلمية سَيَرُها التدريجيَّ أبداً ، وتَجِدُ سِرَّ قوتها في

الدفاع عنها من قِبَل أناس بلغوا من جهل حقائق الأمور ما يَجْرُؤُونَ معه على الاندفاع في وَعْد الناس بالسعادة ، واليوم يسود الوهمُ جميعَ أنقاض الماضي المُرَكَّمة ، والمستقبلُ للوهم ، ولم يَحْدُثْ أَنْ تَعَطَّشَتِ الجماعاتُ إلى الحقائق قَطُّ ، والجماعاتُ تَوَلَّى البديهيَّاتِ التي تَكَرَّهَها ظَهَرُها مفضلةٌ تَأْلِيهِ الضلال إذا ما أغواها ، ومن يَعْرِفُ أَنْ يُلْقَى الوهمُ فيها يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ سيدها بسهولة ، ومن يحاولُ تبديدَ وهما يذهبُ فحيتها على الدوام .

٣ — التجربة

التجربة هي الوسيلة الفعَّالة الوحيدة تقريباً لتقرير حقيقة في روح الجماعات وللقضاء على ماغدا خَطِراً من الأوهام ، والتجربة هي ما يجب أَنْ يُحَقَّقَ على مقياس واسع مع تَكَرُّرها في الغالب ، والتجربة التي يقوم بها جيلٌ لا تنفع الجيلَ القادم على العموم ، ولهذا لا تَصْلُحُ الحوادث التاريخية للاستشهاد بها ، وفائدتها الوحيدة هي في إثبات ما يجب من تَكَرُّر الحوادث بين جيل وجيل لممارسة شيء من النفوذ والنجاح في زعزعة خطأ متأصل .

وما لِمَرَأٍ فيه أَنْ مؤرخي المستقبل سَيَعُدُّونَ القرنَ الحالىَّ والقرنَ الماضىَ دوراً للتجارب الطريفة ، ولا تَجِدُ دوراً أبصر تجاربَ كثيرةً كهذا الدور .
والثورةُ الفرنسيةُ هي أعظمُ تلك التجارب خَطِراً ، فقد اقتضى الدليلُ على أَنْ المجتمعَ لا يُجَدِّدُ بَأْسَرَهُ وَفَقَ ما يشير به العقل الصُّرْفُ قَتْلَ ملايينَ من البشر وقلبَ جميعِ أوربة في عشرين سنة ، وقد اقتضى الدليلُ التجريُّ على أَنْ القياصرة يُكَلَّفُونَ الأُمَمَ التي تَهْتَفُ لهم عالياً حدوثَ تجرِبَتَيْنِ مُهْلِكَتَيْنِ في خمسين سنة ، ويلوحُ أَنْ

تَيْنِكَ التجريبتين غير مُفْنَعَتَيْن بما فيه الكفاية مع وضوحهما ، مع أن الأولى أوجبت هلاك ثلاثة ملايين من الرجال وغزو الأجنبي للبلاد ، ومع أن الثانية أوجبت اقتطاع ولاية وضرورة وجود جيوش دائمة ، وقد كادت تجربة ثالثة تقع منذ سنين قليلة ، ولا بُدَّ من حدوثها ذات يوم ، وقد وَجَبَ علينا فيما مضى أن نخوض غمار حرب طاحنة مُتَقَلَّة لكاهل ثروتنا حتى نُسَلِّمَ بأن الجيش الألماني ليس ضَرْباً من الحرس الوطني الذي لاخوف منه^(١) ، كما كان يُدَّكَر قبل سنة ١٨٧٠ ، ولا مَنَاصَ من القيام بتجارِبٍ مُضِرَّةٍ ليعُرف أن نظام الحماية يؤدي إلى خراب الأمم القائمة به ، ومن الممكن إيراد ما لا حَصَرَ له من الأمثلة التي هي من هذا القبيل .

٤ - العقل

كان يمكننا أن نستغنى عن ذِكْرِ العقل بين العوامل القادرة على التأثير في روح الجماعات لو لم يكن من الضروري أن نَذْكُر قيمة العقل السَّلبية .
لقد بَيَّنَّا أنه لا يُؤَثَّرُ في الجماعات بالمعقولات ، وأن الجماعات لا تَفْقَهُ ما غَلِظَ من الخواطر المتنادية ، والجماعاتُ هي التي يخاطب الخطباء مشاعرَها ، لا عقلَها أبداً ،

(١) كان الرأي العام في ذلك قائماً على اجتماع متباين الأمور التي عرضت تركيبها فيما تقدم ، فيما أن حرسنا الوطني السابق كان مؤلفاً من الباعة المسالين الذين لا أثر للنظام فيهم فلا يبال بهم لهذا السبب كان مثل ذلك الاسم يثير مثل هذا الخيال فيدل على ما لا يخفى ، ويقاسم الزعماء جوعهم خطأها وفق ما يتفق للرأي العام في الغالب ، ومن ذلك أن القطب السياسي ، مسيوتيار ، الذي كان يتبع رأي الجماعات كثيراً ألقى في مجلس النواب ، في ٣١ من ديسمبر سنة ١٨٦٧ ، خطبة قال فيها مؤكداً إنه ليس لدى بروسية غير حرس وطني مشابه للحرس الذي كان عندنا ، وإنه لا أهمية له لهذا السبب ، وذلك فضلاً عن جيش عامل لبروسية يعدل جيشنا جنوداً تقريباً ، فهذه المزاعم هي في صحتها كصائر هذا القطب السياسي في ضعف مستقبل الخطوط الحديدية .

والجماعاتُ هي التي لا تأثير لسنن المنطق العقليَّ فيها^(١) ، ومن يرغب في إقناع الجماعات فعليه أن يلتفت إلى ما يثيرها من المشاعر ، وأن يتظاهر بمشاطرتها هذه المشاعرَ ، وأن يحاول تعديل هذه المشاعر بإثارة بعض الصور التخيلية وفق تنادياتٍ بسيطة ، وأن يعرف كيف يرجع القهقري عند الضرورة ، وأن يتنبأ في كل ثانية بما يؤلّد من المشاعر ، وضرورة تبديله للهجته بحسب وحي الساعة التي يتكلم فيها تحكّم بضعف كل خطبة تُدرّس وتُهيأ مقدماً ، فانخطيب الذي يساير فكره ، لا سامعيه ، يخسر كل نفوذ لهذا السبب .

ولا يستطيع رجال المنطق الذين تعودوا البراهين المتسلسلة الوثيقة أن يعدلوا عن طراز الإقناع هذا حينما يخاطبون الجماعات ، وهم يحارون عندما يرون عدم تأثير أدلتهم على الدوام ، قال أحدُ المناطق : « إن النتائج الرياضية المعتادة القائمة على القياس المنطقي ، أي على اتحاد النظائر ، هي أمور لازمة ... والزموم يستوجب الموافقة حتى من الجسم غير العضوي لو كان هذا الجسم قادراً على تتبع اتحاد النظائر » ، ذلك أمر لا ريب فيه ، غير أن الجماعة ليست أكثر استعداداً من الجسم غير العضوي

(١) ترجع ملاحظاتي الأولى في فن التأثير في الجماعات وفي ضعف قواعد المنطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار باريس ، إلى اليوم الذي رأيت فيه سوق المريشال في ... إلى اللوفر حيث كانت الحكومة ، وذلك من قبل جماعة هائجة تزعم أن المريشال المشار إليه بوغت وهو يأخذ رسم الحصون لبيعها من البروسيين ، ويخرج أحد أعضاء الحكومة الخطيب الشهير ج . ب . . ليخطب في الجماعة التي تقابل بقتل الموقوف حالا ، وأنوقع أن يثبت الخطيب فساد التهمة بقوله إن المريشال المتهم هو من مهندسى تلك الحصون التي يباع رسمها لدى جميع باعة الكتب ، غير أنني بهت وقد كنت شاباً إذ أتت الخطبة على غير ما انتظرت ، إذ تقدم الخطيب إلى المتهم وقال بصوت عال : « سيأخذ العدل مجراه بلا هوادة ، فدعوا حكومة الدفاع الوطني تم تحقيقكم ، وسنجنن المتهم في تلك الأثناء » ، هنالك هدأ تأثر الجماعة بهذه المراساة الظاهرة ففرقت ، فلم يمض ربع ساعة حتى كان المريشال في منزله ، وقد كانت الجماعة الهائجة تمزق المريشال إربا إربا لو التجأ محاميّه إلى الأدلة المنطقية التي كنت أعلن ، وأنا الشاب أكثد ، أنها تكون مقنعة لو خاطب الجماعة بها !

لَتَتَّبِعَ ذَلِكَ الْإِتِّحَادَ وَلَا الْإِسْتِمَاعَ إِلَيْهِ ، فَاغْوِلُوا أَنْ تُقْنِعُوا بِالْبَرَهَانِ ذَوَى النُّفُوسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ مِنْ هَمَجٍ وَصَبِيَانٍ مِثْلًا لَتَرَوْا ضَعْفَ قِيَمَةِ طِرَازِ الْبَرَهْنَةِ هَذَا .

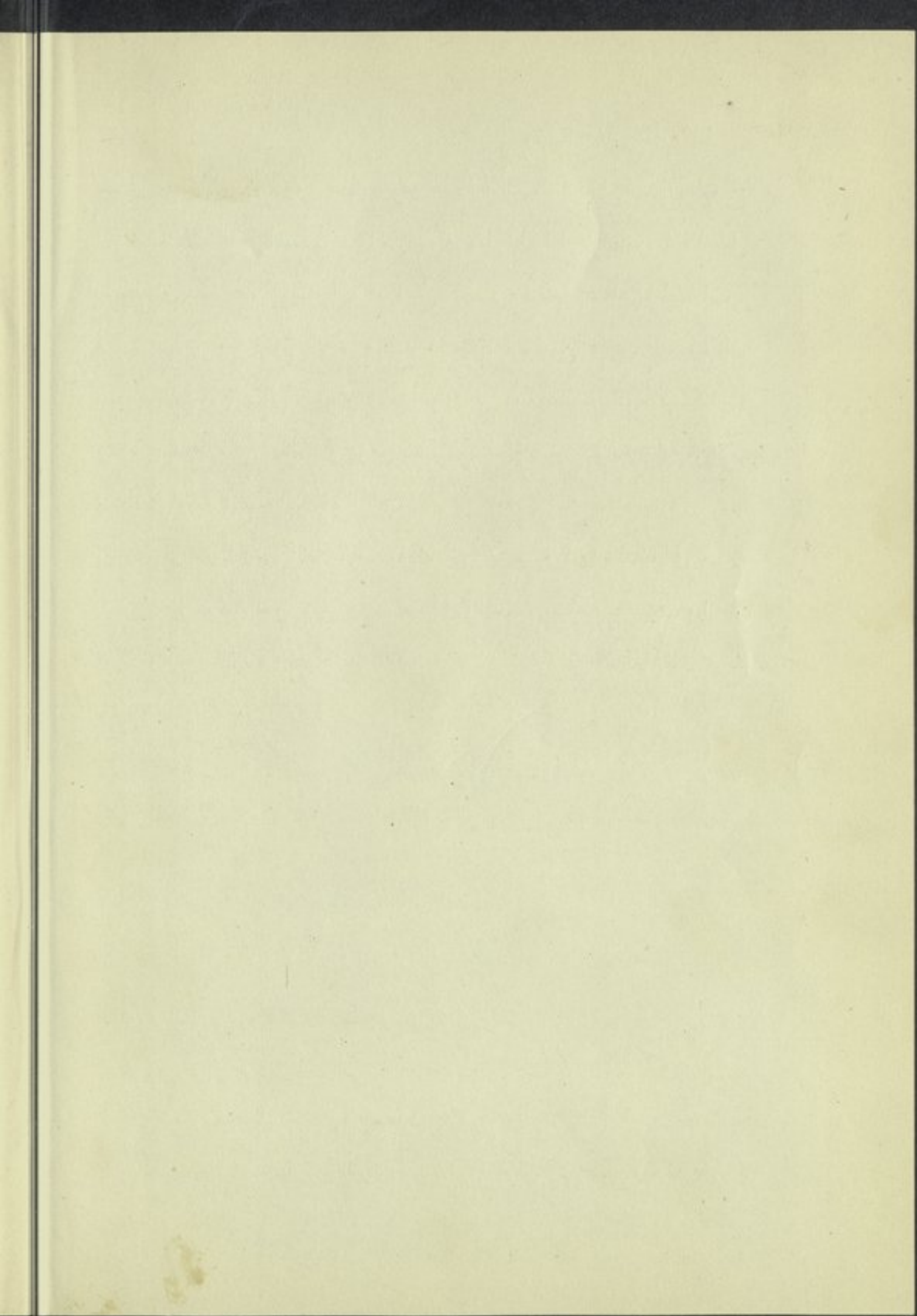
وَلَا اِحْتِيَاجَ إِلَى الْمَبْهُوطِ إِلَى الْفَطْرِيَّيْنِ لِتَحْقِيقِ عَجْزِ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ عَنْ مَعَارِضَةِ الْمَشَاعِرِ ، فَيَكْفِي لَتَبَيِّنَ ذَلِكَ أَنْ نُنْعِمَ النَّظَرَ فِي اسْتِعْصَاءِ الْخِرَافَاتِ الدِّينِيَّةِ عِدَّةَ قُرُونٍ مَعَ مَنَاقِضَتِهَا لِأَبْسَطِ قَوَاعِدِ الْمَنْطِقِ ، فَقَدْ حَنَّتْ تِلْكَ الْخِرَافَاتُ أَكْثَرَ الْعِبَاقَةِ بِصِيرَةٍ تَحْتَ أَحْكَامِهَا مَدَّةَ أَلْفِي سَنَةٍ تَقْرِيْبًا ، وَمَا كَانَ لِيَجَادَلَ فِي صَحَّتِهَا إِلَّا فِي الْأَزْمَنَةِ الْحَدِيثَةِ فَقَطْ ، وَعَلَى مَا كَانَ مِنْ كَثْرَةِ ذَوَى الْبَصَائِرِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى وَفِي عَصْرِ النَّهْضَةِ لَمْ تَجِدْ فِيهَا وَاحِدًا دَلَّ الْبَرَهَانَ عَلَى مَا فِي تِلْكَ الْخِرَافَاتِ مِنَ النَّوَاحِي الصَّبْيَانِيَّةِ فَيَشْكُ وَلَوْ قَلِيلًا فِي مَسَاوِي الشَّيْطَانِ أَوْ فِي ضَرُورَةِ حَرْقِ السَّحَرَةِ .

وَهَلْ يُؤَسِّفُ عَلَى أَنْ الْعَقْلَ لَيْسَ دَلِيلَ الْجَمَاعَاتِ ؟ لَا نَجْرُؤُ عَلَى الْقَوْلِ بِذَلِكَ ، وَمَا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ لَمْ يَكُنْ لِيُوقِّقَ لاجْتِنَابِ الْإِنْسَانِ إِلَى سُبُلِ الْحَضَارَةِ بِمِثْلِ النَّشَاطِ وَالْإِقْدَامِ الَّذِينَ أَوْجِبَتْهُمَا فِيهِ أَوْهَامُهُ ، وَإِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَوْهَامُ وَلِيدَةَ الْإِلَاشْعُورِ الَّتِي يَقُودُنَا فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى الرَّاجِحِ ، وَيَحْمِلُ كُلُّ عِرْقٍ فِي مَزَاجِهِ النَّفْسِيَّ سُنَنَ مَصَايِرِهِ ، وَمَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنَّهُ يَخْضَعُ لِهَذِهِ السُّنَنِ بِغَرِيزَةٍ مُقَدَّرَةٍ حَتَّى فِي أَشَدِّ انْدِفَاعَاتِهِ بُعْدًا مِنَ التَّعَقُّلِ فِي الظَّاهِرِ ، وَمَا يَلُوحُ أحيانًا أَنَّ الْأُمَّ تَنْقَادُ لِقُوَى خَفِيَّةٍ مُشَابِهَةٍ لِلْقُوَى الَّتِي تَحْمِلُ حَبَّةَ الْبَلُوطِ عَلَى التَّحَوُّلِ إِلَى سِنْدِيَانَةٍ أَوْ الَّتِي تَحْمِلُ النَّجْمَ الْمُذَنَّبَ عَلَى اتِّبَاعِ طَرِيقِهِ .

وَمَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ مِنْ قَلِيلٍ مِنْ هَذِهِ الْقُوَى فَيَجِبُ أَنْ يُبْحَثَ عَنْهُ فِي السَّيْرِ الْعَامِّ لِتَطَوُّرِ إِحْدَى الْأُمَمِ ، لَا فِي الْخَوَادِثِ الْمُنْفَرِدَةِ الَّتِي يَلُوحُ ظُهُورُ هَذَا التَّطَوُّرِ

منها في بعض الأحيان ، ولو لم ننظر إلى غير هذه الحوادث المنفردة لبدأنا أن التاريخ تابع لمصادقات مخالفة للصواب ، فما لا يُصدِّقه العقل أن نجاراً جاهلاً من بلاد الجليل استطاع أن يكون في أثنى سنة إلهاً قادراً على كلِّ شيء فتقام باسمه أهمُّ الحضارات ، ومما لا يصدِّقه العقل أيضاً أن تخرج بضعة عصابات عربية من صحاريها فتستطيع أن تفتح مُعظم العالم اليوناني الروماني القديم وأن تقيم دولة أعظم من دولة الإسكندر ، ومما لا يصدِّقه العقل كذلك أن يوفق ضابطٌ مدفعيٌّ صغيرٌ لسيادة طائفة من الأمم والملوك في أوربة المُسنَّة الكثيرة المراتب .

إذن ، نترك العقل للفلاسفة ، وذلك على ألا نطالبه كثيراً بالتدخل في حكم الناس ، فلم تتولد بالعقل ، بل خلافاً للعقل في الغالب ، مشاعر كالشرف وإنكار الذات والإيمان الديني وحبُّ المجد والوطن ، تلك المشاعر التي ظلت أعظم محرِّك لجميع الحضارات حتى الآن .



الفصل الثالث

زعماء الجماعات وطرقهم في الإقناع

- (١) زعماء الجماعات — احتياج الجماعة الغريزي إلى قائد تطيعه — روح الزعماء — هؤلاء الزعماء هم القادرون وحدهم على إيجاد إيمان وعلى وضع نظام للجماعات — استبداد الزعماء القسري — تقسيم الزعماء — شأن الإرادة — (٢) وسائل العمل لدى الزعماء — التوكيد والتكرار والعدوى — شأن كل واحد من هذه العوامل المختلفة — كيف تسرى العدوى من طبقات المجتمع الدنيا إلى طبقاته العليا — لا يلبث الرأي الشعبي أن ينقلب إلى رأى عام — (٣) النفوذ — تعريف النفوذ وتقسيمه — النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي — أمثلة مختلفة — كيف يزول النفوذ .

تَعْرِفُ الآنَ مزاج الجماعات النفسى، وَتَعْرِفُ أيضاً أىُّ العوامل تُؤَثِّرُ فى روحها، فَبَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَبْحَثَ فى كَيْفِيَّةِ تَطْبِيقِ هَذِهِ الْعَوَامِلِ وَفِي مَنْ يُمْكِنُهُ أَنْ يُحَسِّنَ اسْتِعْمَالَهَا .

١ — زعماء الجماعات

إِذَا اجْتَمَعَ عِدَدٌ مِنْ ذَوَاتِ الْحَيَاةِ، سِوَا أَقْطِيعِ حَيَوَانَاتٍ كَانَ أَمُّ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ، جُعِلَ بِالْغَرِيزَةِ تَحْتَ سُلْطَانِ رَئِيسٍ، أَى زَعِيمٍ .
وَيُمَثِّلُ الزَّعِيمُ فى الْجَمَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ دَوْرًا عَظِيمًا، وَتُعَدُّ إِرَادَتُهُ نَوَاةً تَتَكَوَّنُ الْآرَاءُ حَوْلَهَا وَتَتَّحِدُ، وَلَيْسَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَقْطِيعًا لَا غُنْيَةَ لَهُ عَنْ رَاعٍ .
وَيَكُونُ الزَّعِيمُ فى الْبَدَاةِ وَفِي الْغَالِبِ مَقُودًا نَوْمَهُ الْفِكْرَ الَّذِى يَصْبِحُ رَسُولَهُ بَعْدَئِذٍ،

ويستحوذ هذا الفكرُ عليه فيتوارى كلُّ فكرٍ غيرُهُ فيبدو كلُّ رأيٍ معاكسٍ له خطأً وخرافةً ، وذلك كما وقع لِرُؤسِيسير الذي نوَّمتَه أفكاره الوهمية فاتخذ لنشرها وسائلَ محاكم التفتيش .

وليس الزعماء رجالَ فكرٍ في الغالب ، بل هم من رجال العمل ، وهم قليلو الحذر ، وهم لا يكونون حذرين لما يؤدي إليه الحذر من الشكِّ فإلى السكون على العموم ، وهم يخرجون على الخصوص من بين ضعاف الأعصاب الهائجين المهوسين الذين هم على شفير الجنون ، فلا ينفعُ أيُّ برهان منطقيٍّ أمام اعتقادهم مهما كان فساد الفكر الذي يدافعون عنه أو الهدفُ الذي يَسْعَوْنَ إليه ، ولا ينشأ عن الازدراء والاضطهادات غيرُ إثارتهم أكثر من قبل ، وهم يُصَحَّحُونَ بالأُسرة وبكل مصلحة شخصية لهم ، حتى إنهم يَفْقِدُونَ غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون أجراً غير الشهادة في الغالب ، وما في إيمانهم من حرارة فيَمْنَحُ كلامهم قوة تلقينية عظيمة ، والجماعةُ تصْنَعُ دوماً إلى الرجل ذي الإرادة القوية ، والأفرادُ في الجماعة يَخْشَرُونَ كلَّ إرادة فيتوجهون بغريزتهم إلى مَنْ يَمْلِكُهَا .

والزعماء وُجِدُوا في الأُمم على الدوام ، غير أنهم ليسوا جميعاً من ذوى العقائد القوية التي تجعلهم من الرسل ، غير أنهم في الغالب من ذوى البيان الدقيق الذين لا يَتَّبِعُونَ سوى مآربهم الشخصية فتراهم يقومون بإقناع ذوى الغرائز المنحطة مُتَمَلِّقِينَ إياهم ، فيظلُّ ما يمارسونه من نفوذ مؤقتاً على الدوام ، وما اتفق لكبار المؤمنين الذين أثاروا روح الجماعات ، كبطرس الراهب ولوثِر وسافونارول ورجال الثورة الفرنسية ، من سحر النفوس لِيَمَّ إِلَّا بعد أن خضعوا لمعتقد ، فهناك استطاعوا أن يُوجِدُوا في النفوس تلك القوة الهائلة ، ذلك الإيمان الذي يجعل الإنسان عبداً لخياله .

وَيَتَجَلَّى شَأْنُ أَعَاضِمِ الزُّعَمَاءِ عَلَى الْخُصُوصِ فِي إِيجَادِ إِيمَانٍ فَعَّالٍ بِعَمَلٍ أَوْ بِشَخْصٍ أَوْ بِفِكْرٍ سِوَاهُ أَكَانَ هَذَا الْإِيمَانُ دِينِيًّا أَمْ سِيَاسِيًّا أَمْ اجْتِمَاعِيًّا ، وَكَانَ الْإِيمَانُ دَوَامًا مِنْ أَمْرِ جَمِيعِ الْقُوَى الَّتِي تَتَصَرَّفُ فِيهَا الْبَشَرِيَّةُ ، وَمِنْ الصُّوَابِ أَنْ عَزَا الْإِنْجِيلُ إِلَى الْإِيمَانِ قُدْرَةَ رَفْعِ الْجِبَالِ ، وَيَعْنِي مَنْحُ الْإِنْسَانِ إِيمَانًا جَعَلَ قُوَّتَهُ عَشْرَةَ أَمْثَالِهَا ، وَلَمْ تُحَقِّقْ حَوَادِثُ التَّارِيخِ الْعَظِيمَةِ فِي الْغَالِبِ إِلَّا مِنْ قَبْلِ مُؤْمِنِينَ مُبْهِمِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ سِوَى الْإِيمَانِ ، وَلَمْ تَقُمْ الدِّيَانَاتُ الَّتِي سَادَتْ الدُّنْيَا ، وَلَمْ تَقُمْ الدُّوَلُ الْوَاسِعَةُ الَّتِي امْتَدَّتْ سُلْطَانُهَا عَلَى جَمِيعِ الْأَرْضِ ، بِالْأَدْبَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ ، وَلَا بِالْمَلَاخِذَةِ عَلَى الْخُصُوصِ .

بَيِّدْ أَنْ أَمْثَلَةً كَتَلَتْكَ تُطَبِّقُ عَلَى أَعَاضِمِ الزُّعَمَاءِ ، وَهَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءُ هُمْ مِنَ الْقَلِيلَةِ مَا يَسْمَحُ بِهِ عَلَى التَّارِيخِ إِحْصَاؤُهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءُ هُمْ رَأْسُ سِلْسَلَةٍ مُتَّصِلَةٍ تَتَدَلَّى مِنَ الْمُتَصَرِّفِ فِي الرِّجَالِ إِلَى الْعَامِلِ الَّذِي يَسْتَحَرُّ رَفَقَاءَهُ بِيَطَاءٍ فِي فُنْدُقٍ دَخِنَ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَلُوكَ بِلَا انْقِطَاعٍ مَا لَا يَفْقَهُ مِنْ صَيِّغٍ قَلِيلَةٍ يَجِبُ أَنْ يُؤَدَّى تَطْيِيقُهَا ، كَمَا يُزْعَمُ ، إِلَى تَحْقِيقٍ أَكِيدٍ لِجَمِيعِ الْأَحْلَامِ وَالْأَمَالِ .

وَالْمَرَّةُ غَيْرُ الْمُنْفَرِدِ فِي كُلِّ بَيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مِمَّا عَلَتْ أَوْ دَنَيْتْ لَا يُعْتَمَدُ أَنْ يُخْضَعَ لَزْعِيمٍ ، وَأَكْثَرُ الْأَفْرَادِ فِي الْجَمَاعَاتِ الشَّعْبِيَّةِ عَلَى الْخُصُوصِ ، إِذْ لَيْسَ وَادِي فِكْرٍ وَاضِحٍ مَعْقُولٍ خَارِجَ دَائِرَةِ اخْتِصَاصِهِمْ ، يَفْجِزُونَ عَنْ قِيَادَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَالزَّعِيمُ هُوَ الَّذِي يَقُودُهُمْ ، وَالزَّعِيمُ قَدْ يُسْتَبَدَّلُ بِهِ غَيْرُهُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِدَرَجَةِ الْكِفَايَةِ ، وَذَلِكَ بِتِلْكَ النَّشْرَاتِ الدَّوْرِيَّةِ الَّتِي تَصْنَعُ آرَاءَ لِقَرَائِهَا وَتَصُوغُ لَهُمْ جُمْلًا تُغْنِيهِمْ عَنِ التَّأَمُّلِ .

وَسُلْطَانُ الزُّعَمَاءِ اسْتِبْدَادِيٌّ إِلَى الْغَايَةِ ، وَلَا يُفَرِّضُ هَذَا السُّلْطَانُ إِلَّا بَهَذَا الْاسْتِبْدَادِ ، وَمِمَّا لَوْحَظَ دَرَجَةَ السَّهُولَةِ الَّتِي يَطَاعُونَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِمْ مَعَ ذَلِكَ آيَةٌ وَسِيلَةٌ يَسْتَنْدُوا إِلَيْهَا سُلْطَانُهُمْ فِي أَشَدِّ طَبَقَاتِ الْعَمَالِ شَعْبًا ، وَالزُّعَمَاءُ هُمْ الَّذِينَ

يُحَدِّدُونَ سَاعَاتِ الْعَمَلِ وَمَقْدَارَ الْأَجُورِ وَيَقَرَّرُونَ الْإِضْرَابَاتِ ، وَيُعَيِّنُونَ سَاعَةَ الْبَدْءِ بِهَا وَسَاعَةَ انْتِهَائِهَا .

وَالْيَوْمَ يَهْدَفُ الزَّعْمَاءُ إِلَى قِيَامِهِمْ بِالتَّدْرِيجِ مَقَامَ السُّلْطَاتِ الْعَامَةِ كَمَا زَادَ الْجِدَالُ فِي هَذِهِ السُّلْطَاتِ وَضَعْفُ شَأْنِهَا ، وَأُولَئِكَ السَّادَةُ الْجُدُدُ يَتَّفِقُ لَهُمْ بِطُغْيَانِهِمْ مِنْ إِطَاعَةِ الْجَمَاعَاتِ مَا لَا تَنَالُهُ أَيْةُ حُكُومَةٍ كَانَتْ ، وَإِذَا حَدَثَ حَدَثٌ اخْتَفَى بِهِ الزَّعِيمُ فَلَمْ يُسْتَبَدَلْ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ فَوْرِهِ انْقَلَبَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى زَمْرَةٍ عَاطِلَةٍ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ وَالْمَقَاوِمَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ أَضْرَبَ عُمَالُ الْبَاصَاتِ بِيَارِيسَ عَنِ الْعَمَلِ ، فَكَفَى لِانْتِهَاءِ هَذَا الْإِضْرَابِ وَقَفُّ الزَّعِيمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُدِيرَانَهُ ، فَالْحَاجَتُ إِلَى الْخُضُوعِ ، لَا إِلَى الْحُرِيَةِ ، هُوَ الَّذِي يَسُودُ رُوحَ الْجَمَاعَاتِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَمَا فِي الْجَمَاعَاتِ مِنْ تَعَطُّشٍ إِلَى الْإِطَاعَةِ يَجْعَلُهَا تَنْقَادَ بَغْرِزَتِهَا لِمَنْ يُعْلِنُ أَنَّهُ سَيِّدُهَا .

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَأْتِيَ بِتَقْسِيمٍ بَارِزٍ فِي الزَّعْمَاءِ فَنَقُولُ : مِنَ الزَّعْمَاءِ أَنْاسٌ نَشِيطُونَ ذَوُو عَزِيمَةٍ قَوِيَةٍ ، لَكِنِهَا مُوقَّتَةٌ ، وَمِنَ الزَّعْمَاءِ فَرِيقٌ آخَرُ أَقْلٌ عِدْدًا وَذُو إِرَادَةٍ قَوِيَةٍ دَائِمَةٍ مَعًا ، وَالْفَرِيقُ الْأَوَّلُ يَبْدُو عَنِيفًا بَاسِلًا مَقْدَامًا ، وَهَذَا الْفَرِيقُ يَنْفَعُ عَلَى الْخُصُوصِ فِي تَوْجِيهِ أَمْرِ دُبَرٍ وَفِي سَوْقِ الْجَمَاعَاتِ مَعَ وَجُودِ الْخَطَرِ وَفِي تَحْوِيلِ جُنُودِ الْأَمْسِ إِلَى أَبْطَالٍ ، وَمِنْ هَذَا الْفَرِيقِ نَائِيٌّ وَمُورَا فِي الْعَهْدِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ الْأَوَّلِ ، وَمِنْهُ غَارِيْبَالْدِي فِي أَيَّامِنَا ، هَذَا الْمَغَامِرُ الْعَاطِلُ مِنَ الْمَوَاهِبِ ، وَلَكِنْ مَعَ نَشَاطٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَوِلِيَ بِهِ هُوَ وَفَرُّهُ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى مَمْلَكَةِ نَآپُولِي السَّابِقَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْجَيْشِ الْمُتَدَرَّبِ الَّذِي كَانَ يَدَافِعُ عَنْهَا .

غَيْرَ أَنَّ نَشَاطَ مِثْلِ أُولَئِكَ الزَّعْمَاءِ ، إِذَا كَانَ قَوِيًّا ، هُوَ مُوقَّتٌ ، فَلَا يَدُومُ أَكْثَرَ مِنْ دَوَامِ الدَّافِعِ الَّذِي أَوْجَبَهُ ، فَإِذَا مَا عَادَ الْأَبْطَالُ الَّذِينَ تَأَجَّجَ فِيهِمْ إِلَى مَجْرَى الْحَيَاةِ

العادية أظهروا من الضعف ما يُثير الحيرة ، شأن من ذكرتهم منذ هنيئة ، قبدوا عاجزين عن التأمل وعن قيادة أنفسهم في أبسط الأحوال بعد أن عرّفوا أن يتقودوا الآخرين ، وهؤلاء الزعماء لا يقدرّون على ممارسة عملهم بالحقيقة إلّا بعد أن يكونوا مقودين مُحَرَّضِينَ بلا انقطاع شاعرين على الدوام بوجود رجل أو فكر فوقهم مُتَّبِعِينَ لخطّة مرسومة من قبل .

ويتألف الفريق الثانى من زعماء ذوى عزيمة مستمرة ، فيمارس هذا الفريق نفوذاً أعظم من نفوذ ذلك الفريق بمراحل ، ومن هذا الفريق نَعُدُّ مؤسسى الأديان أو جليل الأعمال الحقيقيين كالقديس بولس ومحمد وكريستوف كولونب ودولسبس ، والدنيا هؤلاء على الدوام سواء أمن الأذكاء كانوا أم من الأغبياء ، وما عند هؤلاء من إرادة ثابتة فَمَلَكة نادرة إلى الغاية قوية إلى الغاية يَخْضَعُ لها كلُّ شىء ، وعلى الدوام لا يُقَدَّرُ بما فيه الكفاية ما تقدر عليه الإرادة المستمرة القوية ، وهذه الإرادة لا يَقِفُ شىء أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال .

وأحدثُ مثال على ذلك هو ما كان من أمر ذلك المهندس الشهير الذى فصل قَارَتَيْنِ وَحَقَّقَ عملاً حاوله كثير من الملوك منذ ثلاثة آلاف سنة على غير جدوى ، أَجَلٌ ، إنه أخفق بعد ذلك فى عمل مماثل ، غير أن ذلك وقع حين أدركته الشَّيْبَةُ فانطفأ أمامها كلُّ شىء حتى الإرادة .

وعلى من يرغب فى إثبات قوة الإرادة أن يَعْرِضَ بالتفصيل تاريخ المصاعب التى دُلِّلَتْ حين فَتَحَ قناة السويس ، ومع ذلك أَخْصَّ شاهدَ العيان الدكتور كَرَالِيسُ فى أسطر قليلة مؤثرة أمرَ ذلك العمل الجليل نقلاً عن صاحبه الخالد فقال : « كان دُولِيسْبِسُ يَقْصُ علينا حكاية القناة يوماً بعد يوم وحادثاً بعد حادث ، فَيُخْبِرُنَا

بما كان عليه أن يوطئه وبالمستحيل الذي جعله ممكناً ، وبمالاتي من مقاومات
وتحزبات ومشقات وخيبات ، ولكن من غير أن يُنهيه ذلك عن عمله ويقضي على
أمله ، وكان يذكّر إنكثرة وهي تناهضه وهي تهاجمه بلا إماله ، وكان يذكّر
مصر وفرنسة وهما مترددتان ، وكان يذكّر القنصل الفرنسي وهو يعارض الأعمال
الأولى أكثر من غيره فلم يُخجِم مع معارضته عن أخذ العمال بالعطش فمنع عنهم
الماء الفرات ، وكان يذكّر ما لقيه من مخالفة وزارة البحرية والمهندسين وذوى
الجِدِّ والتجربة والعلم من الرجال فكان هؤلاء جميعهم قانعين بحدوث الكارثة
حاسبين لها مُنبئين بوقوعها في يوم مُعيَّن وساعة مُعيَّنة كما يُنبأ بالخسوف والكسوف .
وإن الكتاب الذى يخبرنا بحياة جميع أولئك الزعماء العظماء لا يشتمل على غير
قليل من الأسماء ، ولكن هذه الأسماء كانت على رأس أهم حوادث الحضارة والتاريخ .

٢ - وسائل العمل لدى الزعماء :

التوكيد والتكرار والعدوى

إذا ما أريد سوق جماعة وحملها ذات ساعة على اقتراف عمل ما ، كحرق قصر
والاستماتة فى الدفاع عن مئراس ، وجب أن يؤثر فيها بتلقينات سريعة ، والمثال
أشد هذه التلقينات فعلاً ، على أنه لا بد من أن تكون الجماعة مستعدة للتأثر بفعل
بعض الأحوال ، ومن أن يكون الراغب فى سوقها متصفاً بصفة النفوذ التى سأبحث
فيها بعد قليل .

وإذا ما أريد أن يدخل على مهل بعض الأفكار والمعتقدات إلى روح الجماعات ،
كالنظريات الاجتماعية الحديثة مثلاً ، وجِد اختلاف أساليب الزعماء عما تقدم ،

والزعماء يَرَجِعُونَ إلى الطرق الثلاث الآتية على الخصوص ، وهي: التوكيد والتكرار والعُدْوَى ، وهذه الطرق تأثير بَطْءٍ ، ولكن نتائجها دائمة .

والتوكيدُ المَحْضُ البسيط الخالي من كلِّ تعقل وكلِّ دليل هو وسيلةٌ صادقة لبَثِّ الفكر في روح الجماعات ، والتوكيدُ كلما كان موجزاً عاطلاً من الدليل والبرهان كان عظيم السلطان ، والتوكيدُ البسيط هو ما استندت إليه الكتب الدينية والقوانين في جميع الأجيال على الدوام ، ويعرف قيمة التوكيد رجالُ الدولة الذين يُدْعَوْنَ إلى الدفاع عن أية قضية سياسية ورجالُ الصَّنَاعَةِ الذين يذيعون أمر إنتاجاتهم بالإعلان .

ومع ذلك لا يكون التوكيدُ ذا نفوذ حقيقٍ إلا إذا دام تكراره بعبارات واحدة ما أمكن ، وكان نابليون يقول إنه لا وَجْهَ جِدِّياً للبيان سوى التكرار ، والأمر إذا ما وُكِّد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ في النفوس على أنه حقيقة ثابتة .

وتأثيرُ التكرار في الجماعات يُفهم جيداً عند النظر إلى سلطانه الكبير على ذوى البصائر ، والأمرُ إذا كرُر لم يَلْبَث في الحقيقة أن يستقرَّ بمناطق اللاشعور العميقة حيث تنفّج عوامل سَيْرِنَا ، ونحن إذ ننسى مصدر الزعم المُكرَّر بعد انقضاء بعض الزمن فإننا لا نُفهم أن نؤمن به ، وبهذا تُفسَّر قوة الإعلان العجيبة ، فإذا ما قرأنا مثلاً مرةً أن الشكولانة (س) هي أطيبُ نوعٍ للشكولانة خُيِّلَ إلينا أننا سمعنا حديثاً متواتراً عنها فلا نَنسَبُ أن نعتقد صحة النباء ، وإذا ما اعتقدنا بألف شهادة أن الطحين (ى) قد شَقِيَ أكابر القوم من أشدِّ الأمراض استعصاء لم نتردد في تجربته عند ما نصاب بمرض من ذلك النوع ، وإذا كرُر في جريدة واحدة أن (أ) نَذَلْ وأن (ب) رجلٌ شريف فقرأنا ذلك آمناً به في نهاية الأمر على ألا نكون من

قرأء جريدة أخرى ذات رأيٍ معاكس ، وذلك لتهادم الوصفين ، فلا يَفْلُ التوكيد والتكرار إلا التوكيد والتكرار .

والتوكيد إذا ما كرّر بما فيه الكفاية مع إجماع عليه ، وذلك كما يَحْدُثُ في بعض المشاريع المالية التي تشتري كلَّ معونة ، تَكُونُ ما يُسمَّى بسرّيان الرأي فقام جهاز العدوى القويّ بعمله ، وفي الجماعات يكون للأفكار والمشاعر والعواطف والمعتقدات قدرةً سارية شديدة شِدَّةَ عدوى الجرائم ، وهذه الظاهرة تُشَاهَدُ في الحيوانات نفسها عندما تجتمع ، ومن هذا أن صهيل الفرس في إصْطَبَلٍ تُقْلَدُهُ خيل ذلك الإصْطَبَلِ حالاً ، ومن ذلك أن ثغاء شاةٍ أو جَفْلَهَا يَمْرِي من فَوْره إلى جميع القطيع ، وبعُدوى العواطف تُفسِّرُ فُجَاءةَ الذعر ، وبالعدوى تنتشر أيضاً اختلالات الدماغ كالجنون مثلاً ، وليست بخافية كثرةُ الجنون لدى أطباء المجانين ، ومما يُذَكِّرُنُونُ الجنون التي تنتقل من الإنسان إلى الحيوان كالاضطرابات العصبية المصحوبة بخفقانٍ في القلب ورعشةٍ في الأطراف .

ولا تقتضى العدوى وجودَ الأشخاص في مكان واحد ، فقد تَسْرِي العدوى عن بُعد بفعل بعض الحوادث الموجهة للنفوس إلى معنى واحد فتمنحها ما هو خاصٌ بالجماعات من الصفات ، ولا سيما عند ما تكون النفوس مُعدَّة بفعل العوامل البعيدة التي بحثت فيها آنفاً ، ومن الأمثلة على ذلك انفجار سنة ١٨٤٨ الثوري الذي بدأ في باريس فلم يَنْشَبْ أن امتدَّ إلى قسم كبير من أوربة فبرزَ كثيراً من العروش^(١) . وليس التقليد الذي يُعزَى إليه كثير من التأثير في الحوادث الاجتماعية إلا نتيجةً بسيطة للعدوى في الحقيقة ، وإنني إذ بَيَّنتُ شأن التقليد في كتاب آخر فإنتي

(١) انظر إلى كُتبي الأخيرة : روح السياسة والآراء والمعتقدات والثورة الفرنسية .

أ كُتِفِي بِنَقْلِ مَا قَلَّتْهُ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ فَشَرَحَهُ كُتَّابٌ آخَرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ :

« الْإِنْسَانُ شَبِيهِ بِالْحَيَوَانِ ، فَهُوَ مُقَلِّدٌ بِحَكْمِ الطَّبِيعَةِ ، وَالتَّقْلِيدُ فِي الْإِنْسَانِ وَلِيدُ الْاِحْتِيَاجِ ، وَذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّقْلِيدُ سَهْلًا ، وَمِنْ ذَلِكَ الْاِحْتِيَاجُ يَنْشَأُ نَفُوذُ الطَّرَازِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْخِلَاصِ مِنْ سُلْطَانِ الطَّرَازِ سِوَاهُ أَكَانَ الْأَمْرُ رَأْيًا أَمْ فِكْرًا أَمْ مَظْهَرًا أَدَبِيًّا أَمْ زِيَّيًّا ؟ وَبِالْأَمْثَلَةِ ، لَا بِالْأَدْلَةِ ، تُقَادُ الْجَمَاعَاتُ ، وَفِي كُلِّ دَوْرٍ يَطْبَعُ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ أَثَرَهُمْ فَيُقَلِّدُهُ الْجُمْهُورُ غَيْرُ الشَّاعِرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَنْبَغِي لِأُولَئِكَ النَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُوا كَثِيرًا عَنِ الْأَفْكَارِ الْمَالُوفَةِ لِمَا يُوْجِبُهُ خِلَافُ هَذَا مِنْ عُسْرِ تَقْلِيدِهِمْ وَضَعْفِ نَفُوذِهِمْ ، وَلِذَا لَا تَرَى لِلْأَشْخَاصِ الَّذِينَ هُمْ أَسْمَى مِنْ عَصَرِهِمْ أَى تَأْثِيرٍ فِيهِ فَتَبْعُدُ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمَا ، وَلِذَا تَرَى الْأَوْرَبِينَ ذَوِي نَفُوذٍ هَزِيلٍ فِي شُعُوبِ الشَّرْقِ مَعَ مَا فِي حَضَارَتِهِمْ مِنْ مَنَافِعِ .

« وَمَا لِلْمَاضِي وَالتَّقْلِيدِ مِنْ تَأْثِيرٍ مُضَاعَفٍ مُتَبَادِلٍ يُؤَدِّي فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى تَمَاطُلِ جَمِيعِ رِجَالِ الْبَلَدِ الْوَاحِدِ فِي الدَّوْرِ الْوَاحِدِ ، حَتَّى الَّذِينَ يَلُوحُ أَنَّهُمْ فِي مَعْرَلٍ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ سِوَاهُمْ كَالْفَلَّاسِفَةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ ، فَتَرَى عَلَى أَفْكَارِهِمْ وَأَسْلُوبِهِمْ صِبْغَةَ الْأُسْرَةِ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا زَمَنُ ظُهُورِهِمْ حَالًا ، وَلَا اِحْتِيَاجَ إِلَى طُولِ الْحَدِيثِ مَعَ شَخْصٍ لِنَعْرِفَ جَيِّدًا مَطَالَعَاتِهِ وَأَعْمَالَهُ الْمُعْتَادَةَ وَالْبَيْئَةَ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا ^(١) » .

وَالْعُدْوَى هِيَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا تَقْرِضُ بِهِ عَلَى النَّاسِ طُرُزًا لِلشُّعُورِ فَضْلًا عَنْ بَعْضِ الْأَرَءِ ، وَبِالْعُدْوَى اِزْدِرِيَّتْ رَوَايَةُ تَنْهَازِرِ ذَاتِ زَمَنِ ، ثُمَّ أُعْجِبَ بِهَا بَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَفَرُوا مِنْهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَالْأَرَءِ وَالْمُعْتَقَدَاتُ تَنْتَشِرُ بِالْعُدْوَى ، وَقَلَمًا تَنْتَشِرُ بِالْبَرْهَانِ ، وَبِالتَّوَكِيدِ وَالتَّكْرَارِ

(١) انظر إلى كتاب « الإنسان والمجتمعات » لمؤلفه غوستاف لوبون ، جزء ٢ ، ص ١١٦ ، سنة ١٨٨١ .

والعدوى تَوَلَّدَتْ في الحانَةِ مبادئُ العمالِ الراهنة ، ولم تَظْهَرْ معتقداتِ الجماعات في جميع الأجيال على غير هذا الوجه ، ومن الصواب أن شَبَّهَ رينانُ مؤسسى النصرانية الأولين « بالعمال الاشتراكيين الذين ينشرون أفكارهم في الحانَةِ بعد الحانَةِ » ، وكان فُولْتِير قد لاحظ في موضوع الدين النصراني « أنه لم يَدِنْ به في أكثر من مئة سنة غيرُ أسفل الناس » .

وفي الأمثلة الماثلة لِمَا تَقَدَّمَ تسرى العدوى إلى طبقات المجتمع العليا بعد أن تُجْرَى حُكْمُهَا في الطبقات الشعبية ، وعلى هذا الوجه تبدأ المذاهب الاشتراكية في أيامنا باجْتِنَاب من يكونون ضحاياها الأولين على الخصوص ، فتزول المصلحة الشخصية نفسها أمام عامل العدوى .

من أَجْلِ ذلك لا يَلْبِثُ كلُّ رَأْي يغدو شعبيًّا أن يُفْرَضَ على الطبقات الاجتماعية العليا منها كان الرأى الفأز فاسدًا ، وبما كان من رَدِّ فعل الطبقات الاجتماعية السُفْلَى في الطبقات العليا هو من الطرافة كاشتقاق معتقدات الجماعة دَوْمًا من فكر رفيع يَظَلُّ في الغالب غيرَ مُؤَثَّر في البيئة التي وُلِدَ فيها ، وبيانُ الأمر هو أن الزعماء ينتحلون هذا الفكر الرفيع بعد أن يَتِمَّكَن منهم ، وهم يُشَوِّهُونه فَيَكُونُونَ شِيعَةً تُشَوِّهُهُ مُجَدِّدًا ، ثم تَنْشُرُهُ هذه الشِيعَةُ مُشَوَّهًا في الجماعات ، وبعد أن يصبح ذلك الفكر حقيقةً شعبية يَصْعَدُ إلى مصدره كما يلوح ، وهنالك يُؤَثَّرُ في الطبقات العليا لدى الأمة ، وهكذا يكون العقل مُسَيَّرًا للعالم في نهاية الأمر ، ولكنه يُسَيَّرُهُ من أمد بعيد جدًّا ، أى إن الفلاسفة الذين أوجدوا الأفكار يكونون قد غَدَوْا رُفَاتًا منذ زمن طويل عند ما يُكْتَبَ النصر لفكرهم في نهاية الأمر وفق ذلك الجهاز .

٣ - النفوذ

إذا كنت ترى للتوكيد والتكرار والعدوى سلطاناً عظيماً فلأن هذه العوامل لا تلبث أن تكتسب تلك القوة الخفيمية المسماة بالنفوذ .

وكلُّ شيء ذى سيطرة في العالم ، أفكاراً كان أَوْ رجالاً ، فُرضَ على الخصوص بقوة قاهرة يُعَبَّرُ عنها بالنفوذ ، ونحن ندرك ما لهذه الكلمة من معنى ، ولكنها تطبق على وجه مختلف إلى الغاية فلا يَسْهُلُ تعريفها ، وقد ينطوى النفوذ على بعض المشاعر كالإعجاب والخوف ، وقد تكون هذه المشاعر أصلاً للنفوذ ، وقد يكون النفوذ بغير هذه المشاعر ، وهنالك مَنْ ماتوا فظلاً ذوى نفوذ عظيم مع أننا عُدْنَا لا نخشاهم كالإسكندرِ وقيصِرَ ومحمدٍ وبُدْهَةَ (بوذا) ، وتُبْصِرُ من ناحيةٍ أخرى بعضَ التصورات التي لا نقول بها كالألهة المُضَادَّةِ للذوق في معابد الهند القائمة تحت الأرض ، وتبدو هذه التصورات ذاتَ نفوذ عظيم مع ذلك .

والحقُّ أن النفوذ ضَرَبٌ من الرُّقِيَّةِ يُؤَثِّرُ بها في نفوسنا شخصاً أو عمل أو مذهب ، وهذه الرُّقِيَّةُ تُبْطِلُ ملكة النقد فينا وتَمَلُّ نفوسنا عَجَباً واحتراماً ، وما يُثارُ إذ ذاك من الشاعر فما لا يمكن شرحه ، شأنُ جميعِ المشاعر ، ومن المحتمل أن يكون هذا ضرباً من التلقين الذي يعاينه شخصٌ مُنَوَّمٌ ، والنفوذ أقوى عامل لكلِّ سلطان ، وما كان للآلهة والملوك والنساء سيطرةٌ بغيره .

ويمكن رَدُّ أنواع النفوذ إلى قسمين أساسيين : النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي ، والنفوذ المكتسب هو الذي يَصْدُرُ عن الاسم والثراء والشهرة ، والنفوذ المكتسب قد يكون مستقلاً عن النفوذ الشخصي ، والنفوذ الشخصي أمرٌ فرديٌّ

يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة أحياناً أو يتقوى بها ، ولكن مع إمكان استقلاله عنها استقلالاً تاماً .

والنفوذ المكتسب أو المصنوع هو أكثر أنواع النفوذ انتشاراً ، ومن ذلك أن شخصاً إذا غداً صاحبَ مَنْصِبٍ أو ثروة نال بعض الألقاب فصار ذا نفوذ مهما كان عاطلاً من أية قيمة ذاتية ، ويتمتع الجنديُّ اللابسُ بَرَّةً عسكرية والقاضي اللابسُ حُلَّةً حمراء بنفوذٍ على الدوام ، ومن الصواب أن أوصى بِسْكَالٍ بضرورة ارتداء القضاة حُللاً وشعوراً مستعارة ، ولولا هذه الأشياء لفقدوا قسماً كبيراً من نفوذهم ، حتى إن أشدَّ الاشتراكيين غِلظةً تأخذه رَوْعَةٌ عند رؤيته أميراً أو مربيّاً ، وألقابٌ كهذه تكفي لاختلاس ما يُراد من تاجر^(١) .

والنفوذ الذي تكلمت عنه هو الذي يزاوله الأشخاص ، ويمكن أن يوضع بجانبه ما يكون للآراء والآثار الأدبية أو الفنية أو ما إليها من النفوذ ، وهذا النفوذ ناشئ عن التكرار المتراكم في الغالب ، والتاريخ ، وتاريخ الآداب والفنون على الخصوص ، إذ كانا تكررّاً لأحكام لم يُحاولِ مراقبتها أحدٌ لم يلبث كل واحد

(١) يشاهد تأثير الألقاب والأوسمة والشارات في جماعات كل بلد ، حتى في البلدان التي تمت مشاعر الاستقلال فيها نمواً عظيماً ، وترانى أقل عبارة طريفة من كتاب وضعه أحد السياح عن نفوذ بعض العظماء في إنكلترة وإليتها :

« أبصرت ، غير مرة ، ما يعتري أكثر الإنكليز عقلاً من نشوة خاصة عند اجتماعهم بشريف إنكليزي أو نظيرهم إليه .

« والإنكليز يحبونه مقدماً إذا ما ناسبت حاله مقامه فيحملون عند المقابلة كل شيء منه مفتونين ، والإنكليز تحمر وجوههم فرحاً إذا ما دنا منهم ، وهو إذا ما خاطبهم أوجب فرحهم زيادة احمرارهم والتماع عيونهم التماعاً غير عادي ، ويمكن أن يقال إن اللوردية في دم الإنكليز كالرقص عند الإسباني والموسيقى عند الألماني والثورة عند الفرنسي ، وميل الإنكليز إلى الخجل وإلى شكسبير أقل منه إلى الشرفاء ، وما لديهم من اعتزاز بهما هو دون اعتزازهم بهؤلاء ، وكتاب الشرف ذو رواج عظيم ، وتجدّه في كل يد كما تجد التوراة مهما أغربت » .

أن يُكرَّر ما تعلَّمه منهما في المدرسة ، ومن الأسماء والأمور طائفة لا يَجْرُؤُ أحدٌ أن يَمَسَّها ، ومن ذلك أن القارئ العصريَّ يلاقي مَلَلًا عظيمًا لا شبهة فيه من مطالعة آثار أوميرس ، فمن ذا الذي يَجْرُؤُ على التصريح بذلك ؟ ومن ذلك أن البارتنون أصبح الآن طَلَلًا عاطلاً من أية فائدة ، غير أنه يتمتع بنفوذ يُرى معه في مَوْكِب من الذِّكْرَيَات التاريخية ، فأية النفوذ في أنه يَحُول دون رؤية الأمور كما هي وفي إبطال مَلَكَات التمييز فينا ، والواقعُ أن الجماعات على الدوام ، والأفراد في الغالب ، تحتاج إلى آراء مُعدَّة سلفاً ، ونجاح هذه الآراء مستقل عما فيها من حقيقة وخطأ ، ويقوم هذا النجاح على النفوذ وحده .

والآن أنتقل إلى النفوذ الشخصي ، وتتألف من هذا النفوذ ، الذي يختلف بطبيعته عن النفوذ المصنوع أو المكتسب اختلافاً كبيراً ، مَلَكة مستقلة عن كلِّ لقب وكلِّ سلطان ، وذلك أن للأشخاص الذين يتصفون به سِحْرٌ مُنَوَّم لجميع من يحيطون بهم وإن كانوا مساوين لهم ، وهم يُطاعون كما يُطيع الحيوان الضاري مُروَّضه مع قدرته على افتراس هذا المروَّض بسهولة .

وكان أعظم قادة البشر ، مثلُ بُدَّة و عيسى ومحمد وجان دارك وناپليون ، حازرين نفوذاً من هذا النوع إلى أعلى درجة ، وهم قد قَرَضُوا أَنفُسَهُمْ على الآخرين بفضل هذا النفوذ على الخصوص ، وتُفَرِّضُ الآلهةُ والأبطال والعقائد ولا يجادل فيها ، وهي تزول إذا ما غَدَّتْ موضعَ جدل .

وكان العظماء المشار إليهم يَمْلِكُون قدرة ساحرة قبل أن يشتهروا ، وهم لم يشتهروا إلا بهذه القدرة ، ومن ذلك أن ناپليون وهو فوق ذروة المجد كان يزاول نفوذاً عظيماً بفعل سلطانه ، وأن ناپليون كان متحلياً مع ذلك ببعض هذا النفوذ عند ما قَبَضَ

على مَنْصِبِهِ ، وناپليونُ هذا ، وقد كان جنرالاً مجهولَ الأمر ، أُرْسِلَ عن حماية ليقود الحملةَ الإيطالية ، فَوَجَدَ نفسه بين جنرالات عُتَاة وَطَنُوا أَنْفُسَهُمْ على استقباله بِغِلْظَةٍ ، وهو الدخيلُ الشابُّ الذى بعثت به إليهم حكومة الديركتوار (المديرين) ، غير أن أولئك قد غلبُوا على أمرهم بلا كلامٍ ولا إشارةٍ ولا وعيدٍ منذ الدقيقة الأولى ، منذ اللقاء الأول ، منذ أول نظرةٍ ألقاها رجلُ المستقبل العظيمُ هذا ، وإليك كيف يَقْصُ علينا تايْنُ خبرَ ذلك اللقاء الطريفِ مستنداً إلى مُذْكَرَاتِ المعاصرين :

« وَصَلَ إلى المعسكر العامِّ قُوَادُ الفرقة ، وكان منهم أُوجيروُ البطلُ القديمُ الفِظُّ الفخورُ بطول قامته وشجاعته ، وكان أولئك كثيرونَ الامتعاض من ذلك الحديث النعمة الصغير الذى أُرسل إليهم من باريس ، ويبدو أُوجيروُ مُنْشَتاً متمرداً مُقَدِّماً تَجَاهَ ما وُصِفَ به بوناپارت ، وَنُيْنَعْتُ بوناپارتُ بأنه صنيعة بَارَاسَ ، وبأنه قائد فَاَنْدِيمِير (الشهر الأول من السنة الجُمهورية) ، وبأنه قائد شارعٍ ، وبأن له منظر الذَّبِّ لتفكيره منعزلاً على الدوام ، وبأنه صغير الهيئة ، وبأنه رياضى خيالى ، وَيُدْخَلُونَ إليه ، وَيُبْطِئُ بوناپارت فى الدخول عليهم ، ثم يظهر متقلداً سيفه ، ويرتدى مِعْطَفَهُ ، وَيُنَبِّئُهُمْ بما عقد نِيَّتَهُ عليه ، وَيُلْقِي عليهم أوامره ويشير عليهم بالانصراف ، ويظلُّ أُوجيروُ صامتاً ، ولم يَرْجِعْ إلى نفسه ولم يَعُدْ إلى وعيده المعتاد إلا بعد خروجه ، ويعترف أُوجيروُ وَمَسِينَا بأن هذا القائد الصغير أفرعهما ، وَيَعْجِزُ أُوجيروُ عن إدراكِ سِرِّ ما أَخَذَ به عند أول نظرة . »

ويصبح ناپليون عظيماً ، ويزيده مجده نفوذاً فيساوى الآلهة لدى العابدين ، وعن ناپليون يقول الجنرال فَنْدَام ، الثورى القديم الذى هو أشدُّ عنفاً وَغِلْظَةً من أُوجيروُ ، مُحَدِّثاً المريشال أُوْرَنَانُو وهما يَصْعَدَانِ مِرْقَاةَ قِصْرِ التُوِيلْرِى فى سنة ١٨١٥ :

« إن لذلك الخبيث من السحر في نفسى ما لا أقدر على اكتناهه ، حتى إننى ، وأنا الذى لا يخشى الإله ولا الشيطان ، أشعرُ بارتجاف كالطفل إذا ما دَنَوْتُ منه فيستطيع أن يُوجِعَنى فى سَمِّ الخياط ليحرقَنى فى النار ^(١) » .

ولنا بليون سِحْرٌ كهذا فى جميع من يقتربون منه ، واسمع قولَ دافو مُخْبِراً بإخلاصه وإخلاص مارِه :

« لو أفضى الإمبراطور إلينا بقوله إن من مقتضيات سياستى أن أهدم باريس من غير أن يخرج منها أحد فراراً من الهلاك لكتمَ مارِه السرَّ كما أرى ، وذلك من غير أن يمنع نفسه من الإخلال به ، فيُخْرِجُ من باريس أسْرَتَه ، وأما أنا فأخشى أن يكتشف الإمبراطورُ الحقيقةَ فترانى أترك زوجى وأولادى بباريس إذ ذاك » .

وتوضح لنا قوة السحر الرائعة تلك ذلك الرجوع العجيب من جزيرة إلبَة وافتتاحِ فرنسة من قِبَل رجل وحيد ، ومكافحة هذا الرجل لجميع قُوَى ذلك البلد العظيم المنظمة ، ذلك البلد الذى كان يُظَنُّ نَصَبُه من جَبَرُوت ذلك الرجل ، فما كان على ذلك الرجل إلا أن ينظر إلى القادة الذين أُرْسِلُوا للقبض عليه حتى يخضعوا له بلا جدال ، قال الجنرال الإنكليزى وُلسلى :

« نَزَلَ نابليون من السفينة إلى فرنسة وحده تقريباً كهاربٍ من جزيرة إلبَة

(١) كان الإمبراطور كثير الشعور بنفوذه فيعلم أن يزيده بمعاملته من حوله من الكبراء معاملة تليق بسواس الدواب ، ومن أولئك الكبراء كثير من مشاهير رجال العهد الذين خافتهم أوربة كثيراً ، وترى أحاديث ذلك العصر مشحونة بالأمور ذات المعنى من هذه الناحية ، ومن ذلك أن نابليون انتهر بونيو فى مجلس شورى الدولة ذات يوم فنعته بالخدام غير المهذب ، فلما كان لهذا من الأثر ما كان دنا نابليون من بونيو وقال له : « والآن هل عاد إليك رشذك أيها الغي ؟ » ، وهناك انحنى بونيو كثيراً وهو الطويل كرئيس الطبالين ، فرفع نابليون ، وهو القصير ، يده وأمسك بأذن بونيو الطويل « فكانت هذه علامة رضا مسكرة ، كانت هذه حركة مألوفة من ذلك السيد عند تطلقه » كما قال بونيو ذلك ، فأمثلة مثل تلك تدلنا على درجة ما يمكن أن يؤدي إليه النفوذ من الغلظة ، وهى تفسر لنا عظم ازدياء ذلك الطاغية لمن حوله .

الصغيرة التي كانت مملوكة له ، فوق في بضعة أسابيع لأن يقليب من غير سفك
دماء نظام السلطة الفرنسية في عهد ملك شرعي ، وهل كان لأحد من النفوذ الذاتي
ما هو أكثر من ذلك إثارة للعجب ؟ وهل هنالك ما هو أدعى للذكر من النفوذ
الذي كان له في تلك الحرب التي هي آخر حروبه ، أي في الحلفاء مُكرهاً إياهم على
تتبع مبادراته التي كاد يسحقهم بها ؟ .

ونفوذ نابليون بقي بعد موته ، وما انفك يعظم ، وبفضل هذا النفوذ أصبح
ابن أخ لنابليون غامض الأمر إمبراطوراً ، واليوم حين نبصر بعث أسطوره نذكر
درجة قدرة ذلك الظل حتى الآن ، فاضطهد الرجال واقتلهم ملايين ملايين واجلب
إلى البلد غزواً بعد غزو تجد ذلك مباحاً لك إذا كنت ذا نفوذ كافٍ وحذقٍ لازم
لحفظ هذا النفوذ .

أجل ، إنني جئت هنا بمثال عزيز للنفوذ لا ريب ، غير أن هذا المثال نافع في
بيان تكوين الديانات العظيمة والمذاهب الكبيرة والدول الواسعة ، ولولا ما للنفوذ
من السلطان على الجماعات لظل هذا التكوين أمراً يتعذر إدراكه .

ولكن النفوذ لا يقوم على السلطان الشخصي أو على المجد الحربي أو الهول الديني
وحده ، فقد يمكن النفوذ أن ينشأ عن مصادر أصغر شأناً من تلك وأن يكون عظيماً مع
ذلك ، ولنا من القرن الحاضر عدة أمثلة ، ومن هذه الأمثلة ذلك المثال التي سنتناقله
الأجيال ، أي قصة الرجل الشهير الذي ذكرناه آنفاً قلنا إنه غير وجه الكرة الأرضية
والعلاقات التجارية بين الأمم بفضلُه بين قارتين ، ذلك الرجل الذي وفق في عمله
بفضل عزمته العظيمة وبماله من سحر لجميع من حوله ، ذلك الرجل الذي لم يكن
عليه سوى الظهور والكلام ثانية حتى يتغلب على ما يحيق به من معارضة إجماعية

فيصبح المعارضون أصدقاء بفعل فتنه ، وكان الإنكليز على الخصوص يناهضون خطة ذلك الرجل بعناد ، فلما بدا في إنكلترة كفى ظهوره فيها لنيله جميع الأصوات ، وهو لما مرَّ من سوثنتن بعد مدة دقت النواقيس إيذاناً بعبوره ، وهو إذ قهر كل شيء من رجال وغير رجال وعاد لا يؤمن بالعوائق أراد أن يصنع في بناما مثل ما صنع في السويس بالوسائل نفسها ، غير أن الإيمان الذي يزيل الجبال لا يزيلها إذا كانت عالية جداً ، فقد قاومت الجبال ، وما كان من بليّة فقد قضى على ما يكمل رأس ذلك البطل من المجد ، ولنا في حياة ذلك البطل مثال على الوجه الذي يعظم به النفوذ ويحول ، وهو بعد أن ساوى أشهر رجال التاريخ عظمت أنزله قضاءً بلده إلى أسفل دركات المجرمين ، وقد مرّت جنازته منفردة بين عدم اكتراث الجماعات ، ومولوك الأجانب وحدهم هم الذين أحاطوا ذكراه بالتسكيريم^(١) .

(١) نظرت جريدة نوفري برس الأجنبية التي تصدر في فينة إلى مصير دولسبس فانهتت إلى تأملات نفسية صائبة إلى الغاية فأقفلها لهذا السبب ، قالت تلك الجريدة :
« لا نجد ما يدعو إلى الحيرة في خاتمة كرسنوف كولونب المحزنة بعد أن حكم على فردينان دولسبس ، فلو كان فردينان دولسبس محتسباً لكان كل خيال نبيل جرماً ، ولو ظهر دولسبس في القرون الأولى لوضعت هذه القرون على رأسه تاجاً من الفخار ولسقت كؤس رحيق بين الآلهة لا غير به وجه الأرض وأتى من الأعمال ما يكمل به الوجود ، أجل ، لقد خلد رئيس محكمة الاستئناف نفسه بحكمه على فردينان دولسبس ، وذلك لأن الشعوب تسأل ، دوماً ، عن اسم الرجل الذي لم يخش أن يحط قدر عصره بوضعه خوزة المحكوم عليهم بالأشغال على رأس شيخ كانت حياته مجدداً لمعاصريه .
« ألا فليتكفوا بعد اليوم عن الكلام في العدل الثابت حيث يسود الحقد القرماسي على أعمال الإقدام العظيمة ، ألا إن الأمم محتاجة إلى هؤلاء الرجال المقادير المؤمنين بأنفسهم والمذللين لجميع العوائق غير ناظرين إلى أشخاصهم ، ألا إنه لا حذر مع العقوبة ، وبالخطر لا يمكن توسيع نطاق النشاط البشري .

« ... لقد ذاق دولسبس خمرة النصر ومرارة الغرة ، لقد أبصر السويس وبناما ، وهنا يشور القلب على أدب الفوز ، فلما وفق دولسبس لوصول بحرين حياه الأمراء والأقوام ، واليوم ، حين حبط عمله أمام صخر كورديلر ، عد لصاداً عادياً ... هنالك حرب بين طبقات المجتمع ، وهنالك سخط من القرماسيين والموظفين الذين ينتقمون بقانون العقوبات من كل من يود أن يسمو فوق الآخرين . . . وترى =

يَبْدُ أَنْ تِلْكَ الْأَمْثَلَةَ الْمُخْتَلِفَةَ تَتِمُّ عَلَى أَقْصَى مَا يَنْتَهَى إِلَيْهِ النَفُوذُ ، فَعَلَى مَنْ يَوَدُّ أَنْ يَعْرِفَ رُوحَ النَفُوذِ مَفْصَلاً أَنْ يَبْحَثَ فِي السَّلْسَلَةِ مِنْ مُؤَسَّسِي الدِّيَانَاتِ وَالِدُولِ إِلَى الشَّخْصِ الَّذِي يَحَاوِلُ أَنْ يَبْهَرُ حَيْرَانَهُ بِثُوبٍ جَدِيدٍ أَوْ وَسَامٍ .

وَتَجِدُ بَيْنَ طَرَفَيْ تِلْكَ السَّلْسَلَةِ وَجُوهاً لِلنَّفُوذِ فِي مُخْتَلَفِ عُنَاوِرِ الْحَضَارَةِ كَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْآدَابِ وَمَا إِلَيْهَا ، وَتَجِدُ أَنَّ النَفُوذَ عُنْصُرٌ أُسَاسِيٌّ لِلْإِقْنَاعِ ، وَالْإِنْسَانُ أَوْ الْفِكْرُ أَوْ الشَّيْءُ إِذَا مَا كَانَ ذَا نَفُوذٍ لَا يَنْشَبُ أَنْ يُقْلَدَ بِالْعُدْوَى فِي الْحَالِ وَأَنْ يَفْرِضَ عَلَى جِيلٍ بَأْسَرَهُ طُرُزاً لِلشُّعُورِ وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْأَفْكَارِ ، عَلَى أَنْ التَّقْلِيدُ هُوَ غَيْرُ شُعُورِيٍّ فِي الْغَالِبِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُ تَامَماً ، وَالْمُصَوِّرُونَ الْمُعَااصِرُونَ حِينَ يَقْتَبِسُونَ الْأَلْوَانَ الطَّامِسَةَ وَالْأَوْضَاعَ الْمُتَشَدِّدَةَ لَدَى بَعْضِ الْفُطْرِيِّينَ لَا يَرْتَابُونَ فِي مَصْدَرِ وَحْيِهِمْ فَيَعُزُّونَ ذَلِكَ إِلَى صِفَاتِهِمْ مَعَ أَنَّهُ لَوْلَا بَعْثُ ذَلِكَ الشَّكْلِ الْفَنِيِّ مِنْ قَبْلِ أَسْتَاذٍ لَا سَتَمَرَّ النَّاسُ عَلَى رُؤْيَا نَوَاحِيهِ السَّاذِجَةِ الْمُنْحَطَّةِ ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ سَارُوا عَلَى غِرَارٍ مُبْتَدِعٍ شَهِيرٍ فَاغْرَقُوا مَصُورَاتِهِمْ بِالظَّلَالِ الْبِنَفْسِجِيَّةِ وَجَدَّتْهُمْ لَمْ يَرَوْا فِي الطَّبِيعَةِ مِنَ الْبِنَفْسِجِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا يَرَوْنَ مِنْذَ خَمْسِينَ سَنَةً ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ لِذَلِكَ الْمَصُورِ مِنَ النَّفُوذِ الْكَبِيرِ مَا اسْتَطَاعَ بِهِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِمْ تَأْثِيراً شَخْصِيّاً خَاصَّافَصَدَرَ عَنْهُمْ مَا عَلِمْتَ ، وَيَسْهَلُ إِيرَادُ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فِي كُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ عُنَاوِرِ الْحَضَارَةِ .

وَمَا تَقْدَمُ تَرَى إِمْكَانَ دُخُولِ كَثِيرٍ مِنَ الْعَوَامِلِ فِي تَكْوِينِ النَفُوذِ ، وَالنَّجَاحِ مِنْ أَهْمِّ هَذِهِ الْعَوَامِلِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَلَا يَجَادَلُ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يَنْجَحُ وَالْفِكْرُ الَّذِي يُفْرَضُ لِهَذَا السَّبَبِ .

== الْمُشْتَرَعِينَ الْمُعَااصِرِينَ حَيَارَى أَمَامَ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْأَفْكَارِ الْعَالِيَةِ ، وَتَرَى الْجُمْهُورَ أَقْلَ إِدْرَاكِ لَهَا مِنْ أَوْلَئِكَ ، وَمَا يَسْهَلُ عَلَى النَّائِبِ الْعَامِ أَنْ يَثْبِتَ أَنَّ سَتَانِي مِنَ الْقَاتِلِينَ وَأَنَّ دُولِسْبِسَ مِنَ الْخَادِعِينَ » .

وعدمُ النجاحِ نذيرُ زوالِ النفوذِ دوماً ، والبطلُ الذي تَهْتَفُ له الجماعةُ لا يُعْتَمَدُ أن يصيرَ غُرُضَةً لِإِهَاتِهَا غَدَاةَ نَكْبَتِهِ ، وردُّ الفعلِ يشتدُّ بنسبةِ عِظَمِ النفوذِ ، وهنالكُ تُعَدُّ الجماعةُ البطلَ الساقطَ نِدَاءً لها فتنتقمُ من هذا الذي خضعت لسلطانه فعادت لا تَعْرِفُهُ ، ومن ذلك أن رُوَيْسِيْرَ كانَ يَضْرِبُ رِقَابَ زَمَلَانِهِ وَرِقَابَ كَثِيرٍ مِنْ مَعاصِرِيهِ فَيُنَالُ بِذَلِكَ نَفُوذاً وَاسِعاً ، فلما خَسِرَ بعضُ الأصواتِ أضاعَ نفوذه من فوره فشَيَّعَتِهِ الجماعةُ إِلَى المِقْصَلَةِ لِاعْنَةِ إِيَّاهُ بِمِثْلِ اللَّعْنَةِ الَّتِي كَانَتْ تَصُبُّهَا عَلَى ضَحَايَاهُ ، فَاَلْمُؤْمِنُونَ يَكْسِرُونَ تَمَائِيلَ آلِهَتِهِمُ السَّابِقَةَ بِمَجَاسَةٍ عَلَى الدَّوَامِ .

والنفوذُ الذي يَذْهَبُ بِهِ الْإِخْفَاقُ يَزُولُ بَغْتَةً ، وَقَدْ يَبْلَى النُّفُوذُ بِالْجِدَالِ ، وَلَكِنْ هَذَا الْبَلَى يَتِمُّ بِيَطْءِ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ هِيَ أَقْوَمُ الطَّرِيقِ لِانْدِثَارِهِ مَعَ ذَلِكَ ، وَالنُّفُوذُ الَّذِي يُجَادَلُ فِيهِ لَا يَعُودُ نَفُوذاً ، وَالْأَلْهَةُ وَالرِّجَالُ إِذْ كَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ تَحَافُظَ عَلَى نَفُوذِهَا زَمَناً طَوِيلاً لَمْ تُطِيقِ الْجِدَالَ ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ يَرْتَضِيبُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ إِعْجَابِ الْجَمَاعَاتِ أَنْ يَتَرَفَعَ عَنْ مَنْزِلِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ .

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وآرائها

(١) المعتقدات الثابتة — ثبات بعض المعتقدات العامة — هذه المعتقدات هي أدلاء الحضارة — صعوبة استئصالها — كيف يكون عدم التسامح فضيلة لدى الأمم — فساد المعتقدات العامة فلسفياً لا يعوق انتشارها — (٢) تقلب الآراء في الجماعات — تقلب الآراء التي لا نشق من المعتقدات العامة — التقلبات الظاهرة في الأفكار والمعتقدات في أقل من قرن — الحدود الحقيقية لهذه التقلبات — العناصر التي تتغير — زوال المعتقدات العامة في الوقت الحاضر ، وإطراد الآراء في التقلب بفعل شدة انتشار الصحافة في أيامنا — كيف تميل آراء الجماعات إلى عدم الاكتراث للموضوعات الكلية — عجز الحكومات عن توجيه الرأي كما في الماضي — تفتت الآراء في الوقت الحاضر يحول دون طغيانها .

١ - المعتقدات الثابتة

ترى بين الصفات التشريحية في الموجودات والصفات النفسية شبيهاً وثيقاً ، فتجد الصفات التشريحية بعض العناصر الثابتة ، أو القليلة التغير ، التي لا بد من انقضاء أجيال جيولوجية لتحويلها ، وتجد بجانب هذه الصفات الثابتة التي لا تبدل لها صفات أخرى كثيرة التقلب فبلغت البيئة والتربية والبسنة من تبدلها ما تخفى معه صفاتها الأساسية على الناظر القليل التأمل .

وتلاحظ تلك الظاهرة في الصفات الخلقية أيضاً ، فتجد بين عناصر العرق النفسية الثابتة عناصر متقلبة متحولة ، وفي هذا سر ما نراه دوماً عند البحث في

معتقدات إحدى الأمم وفي آراء هذه الأمة من أساس ثابت تثبت عليه آراء متقلبة
كتقلب التراب الذي يستر الصخرة .

وهكذا تنقسم المعتقدات والآراء إلى قسمين مختلفين ، فمن جهة تُبصر المعتقدات
الكبيرة الثابتة التي تدوم عدة قرون فتقوم عليها إحدى الحضارات بأجمعها ، شأن
المبادئ الإقطاعية والأفكار النصرانية والآراء الإصلاحية فيما مضى ، وشأن مبادئ
القوميات والأفكار الديمقراطية والاشتراكية في أيامنا ، ومن جهة أخرى تُبصر
الآراء الموقته المتحولة المشتقة في الغالب من المبادئ العامة ، فيرى كل جيل
ظهورها وزوالها ، شأن النظريات التي توجّه الفنون والآداب ذات حين والتي
نذكر منها مثلاً ما يُستفّر عن المذهب الروائي والمذهب الطبيعي إلخ ، وهذه الآراء ،
وهي سطحية كالزئى ، تتغير كتغير الأمواج الصغيرة الناشئة فتزول باستمرار فوق
بحيرة ذات مياه عميقة .

وعدد المعتقدات الكبيرة العامة قليل جداً ، ويتألف من تكوينها وزوالها في كل
عرق تاريخي أبرز أدوار تاريخ هذا العرق ، فهي قوام الحضارات الحقيقي .
ومن السهل أن يستقر رأي عابر في روح الجماعات ، ولكن من الصعب جداً
أن يرسخ في تلك الروح معتقد دائم ، كما أن من الصعب جداً أن يهدم هذا المعتقد
بعد تكوينه ، ومعتقد كهذا لا يمكن تغييره إلا بالثورات العنيفة وقما يكون قد خسر
جميع سلطانه على النفوس تقريباً ، وهناك تنفع الثورات في نبذ ما كان قد هجر
من المعتقدات نبذاً كاملاً فتحول العادة دون إهماله إهمالاً تاماً ، والحق أن الثورات
التي تُقبل هي معتقدات تُدبر .

واليوم الذي تبدو فيه علامة الزوال على المعتقد الكبير هو اليوم الذي تغدو فيه

قيمة هذا المعتقد موضع جدال، وإذا لم يكن كلُّ معتقد عامٍّ غير افتراضٍ فإنه لا يدوم إلا إذا تَقَلَّتْ من سلطان البحث .

يَبْدُو أن النُّظْمَ التي تُشْتَقُّ من المعتقد تحافظ على قوتها مع ارتجاج ذلك المعتقد ، فلا تَمَجِّي تلك النُّظْمَ إلا ببطء ، والمعتقد إذا ما قَدَّ جميعَ سلطانه في نهاية الأمر انهار جميعٌ ما يُبْنِيهِ .

ولم تُوفِّق أمةٌ لتغيير معتقداتها من غير أن يُقْضَى عليها من قُوَّرها بتحويل عناصر حضارتها ، وتلك الأمة تُسير في تحويل هذه العناصر حتى الزمن الذي تعتق فيه معتقداً جديداً عامًّا ، وتلك الأمة تعيش في الفوضى حتى ذلك الزمن ، فالمعتقدات العامة هي دعائمُ ضروريةٌ للحضارات ، وهي التي تُوجِّه الأفكار ، وهي التي توحى بالإيمان وتوجد الواجب .

والأُمُّ شَعَرَتْ على الدوام بفائدة اكتساب معتقدات عامة ، والأُمُّ أدركت بغريزتها أن زوال هذه المعتقدات هو نذير انحطاط لها ، وقديماً كان يتألف من عبادة رومة بتعصبٍ ذلك المعتقد الذي جعل الرومان سادة الدنيا ، فلما مات ذلك المعتقد هَلَكَتْ رومة ، وانظُرْ إلى حال البرابرة الذين قَضَوْا على حضارة الرومان تَحِيذُ أنهم لم ينالوا شيئاً من الالتحام فيخرجوا من الفوضى إلا عند اكتسابهم بعض المعتقدات العامة .

إذن ، ليس من غير سببٍ أن دافعت الأُمُّ عن معتقداتها بتعصب على الدوام ، ويبدو هذا التعصب فضيلةً في حياة الأُمِّ ، وإن كان موضع انتقاد شديد من الناحية الفلسفية ، وفي سبيل إقامة معتقداتٍ عامة أو تأييدها أقيمت المحارق في القرون الوسطى ومات كثير من المخترعين والمبتدعين قانطين عند ما لا تصيبيهم ضروب التعذيب ،

وفي سبيل الدفاع عن المعتقدات قَلِبَت الدنيا غير مرة وسقطت ملايين البشر في ميادين القتال كما أنها ستسقط .

ومما قلناه ان هنالك مصاعبَ كبيرةً تحول دون قيام معتقد عام، ولكن هذا المعتقد إذا ما قام أضحى ذا سلطان لا يُقهرُ زمنًا طويلاً، وهذا المعتقدُ يفرضُ حكمه على ذوى البصائر مهما كان فاسداً من الوجهة الفلسفية، أفلمْ تَعُدُّ أُمُّ أوروَبة منذ خمسة عشر قرناً من الحقائق الثابتة تلك الأساطير الدينية التي تَبْلُغُ في غِلظِها^(١) أساطيرَ مَولك إذا ما بُحِثَ فيها عن كَثَبٍ ؟ لم يُبصر أحدٌ في عِدَّة قرونٍ هَوَلَ فساد تلك الأسطورة القائلة إن إلهاً انتقم من ابنه بأقسى العذاب تكفيراً عن عصيان أحد خلقه، حتى إن أحداً من أقوى العباقرة، كغليلو ونيوتن وليبنيتز، لم يفترض إمكانَ الجِدال في حقيقة مثل تلك الأساطير ولو ثانية واحدة، ولا شيء أحسنَ من ذلك يُثَبِّت ما يَنْجُمُ عن المعتقدات العامة من التنويم، ولكنك لا تَجِدُ شيئاً أحسنَ من ذلك يدلُّ على ما لروحنا من الحدود المخزية .

والعقيدة الجديدة إذا ما رَسَخَتْ في روح الجماعات أوحَت إلى هذه الروح بُظْمُها وفنونها وسلوكها، وهنالك يغدو سلطان العقيدة على النفوس مطلقاً، فيُفَكِّرُ رجال العمل في تحقيقها، ويُفَكِّرُ المشترعون في تطبيقها، ويفكر الفلاسفة والمتفنون والأدباء في التعبير عنها بمختلف الوجوه .

أَجَلْ، يمكن أن ينشأ عن المعتقد الأساسي أفكار موقته ثانوية، غير أن هذه الأفكار تَحْمِلُ على الدوام طابعَ الإيمان الذي صدرت عنه، وقد اشْتُقَّت الحضارةُ

(١) هي غليظة من الناحية الفلسفية، وأما من الناحية العملية فقد أوجدت حضارة تامة الجدة أبصر الإنسان من خلالها في قرون طويلة تلك الجنات التي سحرت خياله وذلك الأمل الذي لن يعرفه بعد اليوم .

المصرية وحضارة القرون الوسطى الأوربية وحضارة العرب الإسلامية من عدد قليل من المعتقدات الدينية التي طبعت طابعها على أدق عناصر هذه الحضارات فأسفر ذلك عن سهولة معرفتها من قِوَرها .

ويحاط رجال كل جيل بفضل المعتقدات العامة بشبكة من التقاليد والآراء والعاتات التي لا يَقْدِرُونَ على التخلص منها والتي تجعلهم متشابهين بعض الشَّبه على الدوام ، ولا يفكر أكثر النفوس استقلالاً في التفلت من نيرها ، ولا طغيان حقيقياً غير الذي يعتري النفوس على وجه لا شعورى ، وذلك لأنه الطغيان الوحيد الذي تتعذر مكافحته ، أَجَلْ ، كان طَيْرُ يوس وجنكيزخان ونابليون طُغاةً مرهوبين لا ريب ، غير أن ما لموسى وبُدْهَة (بوذا) وعيسى ومحمد ولُوثر من تَحَكُّمٍ في النفوس صادرٍ عن أعماق قبورهم فذو أثرٍ أبعد مما لأولئك ، وقد تَقَضَى مؤامرة على جَبَّار ، ولكن ماذا يستطيع أن يصنعه مثل هذه المؤامرة في معتقد مستقرٍ بالنفوس ؟ وانظر إلى الثورة الفرنسية الكبرى تَجِدُ أنها هي المغلوبة في مقاتلتها العنيفة للكتلة على الرغم من مؤازرة الجموع لها في الظاهر وعلى الرغم مما اتخذته من وسائل الإبادة التي تشابه في قسوتها وسائل محاكم التفتيش ، فلقد كانت ظلال الأموات أو الأوهام التي أوجدها الإنسان لنفسه جبابرة البشر الحقيقيين في كل زمن .

ولم تكن استحالة بعض المعتقدات العامة من الناحية الفلسفية لتعوق انتصار هذه المعتقدات كما قلت ذلك غير مرة ، حتى إن هذا الانتصار لا يكون ممكناً كما يلوح إلا إذا اشتمل على شيء من المُحال الخفى ، ولن يحول ضَعْف المعتقدات الاشتراكية الحاضرة الواضح دون رسوخ هذه المعتقدات في روح الجماعات ، والذي يجعل هذه المعتقدات أقل مرتبة من جميع المعتقدات الدينية هو أن هذه المعتقدات

الدينية تَعِدُّ بسعادة لا تُحَقِّقُ في غير حياةٍ ثانية لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أن يُمارِيَ في أمرٍ تحقيقها ، وأن السعادة الاشتراكية إذ كان عليها أن تتحقق في الدنيا لا يُعَمُّ بُطْلانُ الوعود بها أن يَبْدُو منذ البدء بتحقيق هذه الوعود فَيَفْقِدُ المعتقد الجديد كلَّ نفوذ له ، فسلطانُ الخيال الاشتراكي لا يَعْظُمُ إلا إلى يوم تحقيقه إِذَنْ ، ولذلك نقول إذا كان هذا الدين الجديد في البداءة ذا عمل مخرب لجميع الأديان التي ظهرت قبله فإنه لن يكون ذا شأن مُبْدَع .

٢ -- تَقَلُّبُ الآراء في الجماعات

تَجِدُ فوق المعتقدات الثابتة التي كَيْنَّا مالها من سلطانٍ طبقةً من الآراء والأفكار والتصورات التي تُولَدُ وتموت دوماً ، ومنها ما يدوم قليلاً جداً ولا يجاوز دوامُ أهمِّها حياةَ جيل واحد ، ومما أشرنا إليه أن التغيرات التي تعتور تلك الآراء تكون في بعض الأحيان سطحيةً أكثر من أن تكون حقيقيةً فتَحْمِلُ سِمَةَ صفاتِ العرق على الدوام ، ونحن حين نظرنا إلى نُظُمِ بلدنا السياسية مثلاً كَيْنَّا أن أشدَّ الأحزاب اختلافًا في الظاهر ، كالمليكيين والجدريين والإمبراطوريين والاشتراكيين إلخ ، ذاتُ خيالٍ متماثل تماماً ، وأن هذا الخيال يعود إلى مزاج عرقنا النفسى وحده ما دمت ترى لدى أممٍ أخرى خيالاتٍ معاكساً وإن تماثلت الأسماء ، وليس من شأن الاسم الذي يُطْلَقُ على الآراء ، ولا من شأن المطابقات الخادعة ، أن يُغَيِّرَ أساسَ الأمور ، ومن ذلك أن أبناء الطبقة الوسطى أيام الثورة الفرنسية كانوا مُشَبَّعين من الآداب اللاتينية وكانت عيونهم شاخصة

إلى الجمهورية الرومانية فانتحلوا قوانينها وقضبانها السَّندرية وحلَّها فلم يصبحوا من الرومان مع ذلك إما كان من خضوعهم لسلطان مؤثراتهم الموروثة القوية .

ويقوم شأن الفيلسوف على البحث عما يَبْقَى من المعتقدات القديمة تحت ستار التحولات الظاهرة ، وأن يُمَيِّز من خلال أمواج الآراء المتقلبة تلك الحركات التي تُعَيِّنُ المعتقدات العامة وروح العرق .

ولولا ذلك المقياس لأمكن القول بأن الجماعات تُغَيِّرُ من المعتقدات السياسية أو الدينية كثيراً كما تريد ، ويظهر أن التاريخ بأسره سياسياً كان أو دينياً أو فنياً أو أدبياً يؤيد هذا القول بالحقيقة .

ولنتخذَ دَوْرًا قصيراً مثلاً ، أى الدور الممتد من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٨٢٠ ، وهو يَعْدِلُ جِلاً لدوامه ثلاثين سنة ، ففي هذا الدور نرى الجماعات ، وقد كانت مَلَكيَّةً في البداية ، أصبحت ثوريةً فإمبراطورية ، ثم عادت إلى الملكية ، وفي ذلك الدور نرى الجماعات قد تطورت في الدين فانتقلت من الكاثوليكية إلى الإلحاد فإلى الاعتقاد بوجود الإله مع إنكار الوحي ، ثم رَجَعَتْ إلى أشدَّ وجوه الكاثوليكية مغالاةً ، وليست الجماعات وحدها هي التي عانت تلك التحولات ، بل عاناها زعماء هذه الجماعات أيضاً ، ومن هؤلاء كبار رجال العهد الذين كانوا أعداء الملوك الزُرُوق ولم يريدوا إلهاً ولا رؤساء فقدوا خُذَّاماً خُضَعاً لنابليون ثم حَمَلُوا بخشوع شموعاً في الاحتفالات أيام لويس الثامن عشر .

وما أكثر ما حَدَّث من تحول في آراء الجماعات في السنوات السبعين التي عَقَبَتْ ذلك الدور ، فقد أصبح ألبون الغدَّار (إنكلترة) حليفاً لفرنسة في عهد وارث

نابليون منذ أوائل هذا القرن ، وحرار بنا روسية مرتين فُسِّرَتْ كثيراً بما أُصِبنَا به من الانكسار الأخير ، ثم غَدَتْ صديقةً لنا لغتة .

وأُسْرِعُ من ذلك أيضاً ما يتجلى في الآداب والفنون والفلسفة من تعاقب الآراء ، فقد ظهر المذهب الروائي والمذهب الطبيعي والمذهب التصوفي إلخ ، وماتت هذه المذاهب بالتتابع ، والمفنفن والكاتب اللذان يُهْتَفُ لهما اليوم يُزْدَرِيَانِ في الغد ازدراءً عميقاً . ولكن إذا ما حللنا هذه التحولات العميقة في الظاهر فماذا نرى ؟ نرى أن جميع ما هو مخالف من تلك التحولات للمعتقدات العامة ولمشاعر العِرْق لا يَتَصِفُ بغير ديمومة موقته ، فلا يلبث النهر المنحرف أن يعود إلى مجراه ، وتكون الأفكار التي لا ترتبط في أيِّ معتقد عام ولا في أيِّ من مشاعر العِرْق والتي لا تتصف بالثبات لهذا السبب خاضعةً لجميع المصادفات ، وإن شئت فقلْ خاضعةً لأقلِّ تحول في البيئة ، وتكون تلك الأفكار موقته دوماً لأنها وليدة التلقين والعدوى ، وهي تولد وتزول بسرعة كأكتبة الرمال التي تُكْوِنُها الرياح على شاطئ البحر .

ومقدارُ ما في الجماعات من آراءٍ متقلبةٍ في أيامنا أعظمُ مما في أيِّ زمن ، ولهذا ثلاثة أسبابٍ مختلفة :

فالسببُ الأول هو أن المعتقدات القديمة تفقد سلطانها بالتدريج ، فعادت لا تؤثر كما في الماضي في الآراء العابرة فتمنحها بعض التوجيه ، وما كان من أمحاء المعتقدات العامة فإنه يفسح في المجال لطائفة من الآراء الخاصة التي لا ماضى لها ولا مستقبل . والسببُ الثاني هو أن سلطان الجماعات يزيد فيتنقص ما يوازنه مقداراً فقديراً فنستطيع أفكارها الشديدة التقلب أن تبدؤ طليقة .

والسببُ الثالث هو ما اتفق للمطبوعات حديثاً من انتشار ، فأُسْفِرَ هذا الانتشارُ

عن عرض أكثر الآراء تناقضاً على الأعين ، وما يصدر عن كل واحد من تلك الآراء من تلقين لا يلبث أن تقضى عليه تلقينات معاكسة ، ولا يتفق لأى رأى من الانتشار ما يهدف إليه إذن ، وترى جميع الآراء محكوماً عليها بالأقول إذن ، وهي تموت قبل أن يتم لها من الذبوع ما تصبح به عامّة إذن .

وتنجّم عن تلك العلل المختلفة ظاهرة حديثة في تاريخ العالم ينفرد بها الجيل الحاضر ، وتلك الظاهرة هي تجزؤ الحكومات عن توجيه الرأى العام .

كان تأثير الحكومات وبعض الكتّاب وعدد قليل من الجرائد في الماضى ، وفي الماضى غير البعيد ، ناظماً حقيقياً للرأى العام ، واليوم أضاع الكتّاب كل نفوذ ، وعادت الجرائد لا تفعل غير ترديد صدى الرأى العام ، وصار رجال الدولة لا يرون غير اتباع الرأى العام بدلاً من قيادته ، ومما يحدث أحياناً أن ينقلب خوف رجال الدولة من الرأى العام إلى هول فيذهب هذا بكل ثبات في سيرهم .

ومن ثم ترى أن رأى الجماعات يتدرج إلى أن يكون ناظم السياسة الأعلى ، واليوم يبلغ هذا الرأى من القوة ما يفرض به محالفات كمحالفتنا للروس التى نشأت عن حركة شعبية كما رأينا .

ومن أطرف ما يقع فى أيامنا ما نبصره من خضوع البابوات والملوك والقيصرة لبدأ التزاور فيقرضون رأيهم فى الموضوع وفق حكم الجماعات ، وسابقاً أمكن القول بأن السياسة ليست أمراً عاطفياً ، فهل يمكن أن يقال ذلك فى هذا الزمن الذى تهتدى فيه السياسة باندفاعات الجماعات المتقلبة الجاهلة للعقل والتابعة للعاطفة فقط ؟

وانظر إلى الصحافة ، وهى التى كانت دليل الرأى العام فيما مضى ، تجدها مكرّهة على الانزواء أمام سلطان الجماعات كما تنزوى الحكومات ، وللصحافة قدرة

عظيمة في الحقيقة ، وهي صاحبة هذه القدرة لأنها مرآة للآراء الشعبية ولما لا ينقطع من تقلب هذه الآراء ، وهي لأنها عَدَّتْ وكالة استخبار بسيطة عَدَلَتْ عن فرض أى فكرٍ أو أى مذهب ، وهي تتبّع كلَّ تحول في رأى العام ، وما كان من ضرورة المزاجية فيَقْضِي عليها بذلك حَذَرُ افتقاد قرائها ، وتوارت الصحف القديمة العظيمة التي كانت ذات نفوذ بالغ فكان الجيلُ الماضي يُصْنَعِي إليها بخشوعٍ إصغاءه إلى الآيات ، أو أصبحت وَرَيْقاتِ أنباءٍ مُحاطَةً بالنوادر المُسَلِّيَّةِ واللطائفِ المُحَبِّبَةِ والإعلانات المالية ، واليومَ ماذا يصبح أمرُ جريدة تكون من الثراء ما تُفَسِّحُ معه لكتّابها مجالاً يُبْدُونَ فيه آراءَ شخصية ؟ وماذا يكون لهذه الآراء من التأثير في قُرّاء لا يطالبون بغير الأنباء والفكاهات ولا يُبْصِرُونَ خَلْفَ كُلِّ نصيحة سوى المساومة ؟ حتى إن النقاد أنفسهم أصبحوا غيرَ قادرين على عَرْضِ كتاب أو رواية تمثيلية ، وذلك لما يَجْلِبُهُ من ضرر ولا يُوجِبُهُ من نفع ، والجرائدُ قد بلغت من الشعور بعدم فائدة كلِّ رأى شخصيٍّ ما ألْفَتْ معه النقدَ الأدبيَّ على العموم مقتصرةً على ذكر اسم الكتاب وعلى نُشْرِ سطرين أو ثلاثة أسطر كإعلان عنه ، وقد يَقَعُ مثلُ ذلك بعد عشرين سنة في أمر النقد التمثيلي .

وترصدُّ الرأى العام أصبح في أيامنا شُغْلُ الصَّحَافَةِ والحكوماتِ الشاغل ، فَعَدَّتْ لا ترى غيرَ معرفة ما يكون من تأثير هذه الحادثة أو تلك الخِطَطِ الاشتراكية أو تلك الخُطْبَةِ فيه ، وليس هذا بالأمر السهل لما ليس هنالك من رأى أشدَّ ثِقَلًا وأعظم تحولاً من رأى الجماعات ، والجماعاتُ تُسْقِطُ في المساء من هتفت له في الصباح . ونشأ عن فَقْدان توجيه الرأى العام وعن انحلال المعتقدات العامة تَفَتَّتْ تامٌّ في ضروب اليقين وعدمِ اكتراثٍ زائدٍ في الجماعات والأفراد لما لا يَمَسُّ مصالحها

المباشرة مسأ ظاهراً ، وما كان للمسائل المذهبية ، كالأشتركية مثلاً ، أن تَجْمَعَ
مُحَمَّاتِهَا الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مِنَ الطَّبَقَاتِ الْجَاهِلَةِ كَعَمَالِ الْمَنَاجِمِ وَالْعَامِلِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ ابْنُ
الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى وَالْعَامِلُ الَّذِي هُوَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الثَّقَافَةِ مِنَ الْمَرْتَابَيْنِ .

والتطورُ الَّذِي تَمَّ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ جَالِبٌ لِلنَّظَرِ ، وَكَانَتْ الْآرَاءُ
فِي الدَّوْرِ السَّابِقِ ، أَى فِي ذَلِكَ الدَّوْرِ الْبَعِيدِ مِنْهُ قَلِيلاً ، ذَاتَ وَجْهِةٍ عَامَةٍ لِاشْتِقَاقِهَا
مِنْ بَعْضِ الْمَعْتَقَدَاتِ الْأَسَاسِيَةِ ، وَكَانَ الْمَبْدَأُ الْمَلَكِيُّ يَمْنَحُ حَتَّى بَعْضَ الْأَفْكَارِ
الْمُقَرَّرَةِ فِي التَّارِيخِ وَفِي الْعُلُومِ بِسَبَبِ مَلَكيَّتِهِ فَقَطْ ، وَكَانَ الْمَبْدَأُ الْجُمْهُورِيُّ
يَمْنَحُ حَتَّى أَفْكَاراً مُنَاقِضَةً لِذَلِكَ مُنَاقِضَةً تَامَةً ، وَكَانَ الْمَلَكِيُّ يَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ
غَيْرُ مَنْحَدَرٍ مِنَ الْقَرْدِ ، وَكَانَ الْجُمْهُورِيُّ يَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَنْحَدَرٍ مِنَ الْقَرْدِ ،
وَكَانَ عَلَى الْمَلَكِيِّ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مُغَاضِباً ، وَكَانَ عَلَى الْجُمْهُورِيِّ
أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْهَا مُحْتَرِماً ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يُذَكَّرَ بَعْضُ الْأَسْمَاءِ بِخُشُوعِ كَلِمِ
رُؤُوسِيَّيْنِ وَاسِمَ مَارَا ، وَكَانَتْ أَسْمَاءُ أُخْرَى لَا تُذَكَّرُ إِلَّا مَعَ الشَّتَائِمِ كَأَسْمَاءِ
قَيْصَرَ وَأَغُسْطُسَ وَنَآپِلْيُونِ ، حَتَّى إِنْ هَذَا الطَّرَازُ الْوَضِيعُ فِي التَّارِيخِ سَرَى إِلَى كَلِيَّةِ
السُّورُبُونِ نَفْسَهَا .

وَالْيَوْمَ يَفْقِدُ كُلُّ رَأْيٍ نَفُوذَهُ بِفَعْلِ الْجَدَلِ وَالتَّحْلِيلِ ، وَلَا تَلَبَّثُ أَرْكَانُهُ أَنْ
تَتَدَاعَى فَلَا يَبْقَى مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَسْتَهْوِينَا سِوَى الْقَلِيلِ إِلَى الْغَايَةِ ، وَصَارَ عَدَمُ
الْإِكْتِرَافِ يَسْتَحْذِ عَلَى الرَّجُلِ الْمَعَاصِرِ شَيْئاً فَشِئاً .

وَلَا نَاسَ عَلَى مَا تُصَآبُ بِهِ الْآرَاءُ مِنْ تَفَتُّتٍ شَامِلٍ ، وَلَا مِرَاءٍ فِي أَنَّ ذَلِكَ عَلَامَةٌ
اِنْخِطَاطٍ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ ، أَجَلٌ ، إِنْ لِلْعَرَّافِينَ وَالرُّسُلِ وَالزُّعَمَاءِ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ
لِلْمُؤَقِّنِينَ ، مِنَ الْقُدْرَةِ مَا لَيْسَ لِلْمَلَا حِدَةٍ وَالنُّقَادِ وَالْأَخْلِيَاءِ ، وَلَكِنْ لَا نَنْسَ أَنَّهُ إِذَا مَا

تَسَنَّى لرأى من النفوذ ما يستطيع به أن يُفرض بفعل سلطان الجماعات العتيد لم يُعَمِّ هذا الرأي أن يكتسب من الجبروت ما ينحني أمامه الجميع ، وهناك يُفلق دور الجدال الحرّ لطويل زمن ، والجماعات ، وإن أمكن أن يكون لها سادةٌ مسلمون في بعض الأحيان كهليوغابال وطيرير يوس في ساعاتٍ لهم ، تراها مثلها ذات أهواء شديدة أيضاً ، وإذا قُدِّرَ حضارةٌ أن تصبح قبضةً الجماعات وَقَعَتْ هذه الحضارةُ تحت رحمة كثيرٍ من المصادفات فلا تدوم زمناً طويلاً ، وإذا حدث ما يؤجِّل وقت انهيار هذه الحضارة فإن ذلك لا ينشأ إلا عن قلب الآراء الكثير وعدم اكتراث الجماعات الزائد لجميع المعتقدات العامة .

البَابُ الثَّالِثُ

تَقْسِيمُ أَنْوَاعِ الْجَمَاعَاتِ وَوَصْفُهَا

لَوْ فَتَحَتْ لَدُنِي بَابُ الْمَيْمَنَةِ

الفصل الأول

تقسيم الجماعات

تقسيم الجماعات — (١) الجماعات الثابتة — كيف تختلف هذه الجماعات —
تأثير العرق — تكون روح الجماعة ضعيفة بمقدار ما في روح العرق من قوة —
تمثل روح العرق حال الحضارة وتمثل روح الجماعة حال الهمجية —
(٢) الجماعات المتجانسة — تقسيم الجماعات المتجانسة — الفرق
والطوائف والطبقات .

نبينا في هذا الكتاب الصفات العامة للجماعات ، وبقي علينا أن ندرس ما هو
منصود فوق هذه الصفات العامة من الصفات الخاصة بمختلف أنواع الجماعات .
ولنأت بتقسيم مختصر للجماعات في بدء الأمر .

والزمرة البسيطة هي أول ما نتناوله ، ويتجلى أدنى طور لهذه الزمرة عند ما تكون
مؤلفة من أشخاص منتسبين إلى عروق مختلفة ، وما في تلك الزمرة من رابطة
وحيدة مشتركة فيقوم على إرادة رئيسها المحترمة بعض الاحترام ، ويمكننا أن نعدّ
البرابرة المختلفي الأصول الذين أغاروا على الدولة الرومانية في عدّة قرون أمثلة على
تلك الزمر .

وتبدو فوق تلك الزمر غير المتحمة زمرًا اكتسبت بفعل بعض العوامل صفات
عامة فألفت عرقًا ، وهذه الزمر ، وإن كانت تتجلى فيها مُميّزات الجماعات ،
تهيمن عليها مُميّزات العرق في كل وقت .

وما يلاحظ في كل أمة من أنواع الجماعات فيمكن تقسيمه كما يأتي :

- ١ — الجماعات المتباينة
- ١ — الجماعات المُعَقَّلة (كجماعات الشوارع مثلاً) .
- ٢ — الجماعات غير المُعَقَّلة (كالمُحَلِّقِينَ والمجالس البرلمانية إلخ) .

- ١ — الفِرَق (كالفرق السياسية والفرق الدينية إلخ) .
- ب — الجماعات المتجانسة
- ٢ — الطوائف (كالمقاتلة والكهنوت والعمال إلخ) .
- ٣ — الطبقات (كالطبقة الوسطى وطبقة الرُّعَاة إلخ) .
- وإليك بضع كلمات عن الصفات الفارقة بين أنواع الجماعات^(١) .

١ — الجماعات المتباينة

هذه الجماعات هي التي درسنا صفاتها فيما تقدم ، وهي تتألف من أفراد أيًا كانوا وكيفما كانت مهنتهم وذكاؤهم .

ومما أثبتناه في هذا الكتاب أن نفسية الناس في الجماعة تختلف عن نفسياتهم وهم منفردون اختلافًا جوهريًا وأن الذكاء لا يحول دون هذا الاختلاف ، ومما رأيناه أن الذكاء لا يُعَمِّلُ أيَّ دورٍ في الجموع ، وأن المشاعر اللا تَنَبُّهِيَّةَ وحدها هي التي تستطيع أن تُؤثِّرَ فيها إذ ذاك .

وهناك عامل أساسي ، أي العِرْقُ ، يؤدي إلى تقسيم الجماعات المتباينة تقسيمًا واضحًا ، وإلى شأن العِرْقِ رَجَعْنَا غَيْرَ مَرَّةٍ قَبْلُنَا أنه أقوى عامل في صدور أفعال الناس ، وتأثيرُ العِرْقِ يَتَجَلَّى في أخلاق الجماعات أيضًا ، فإذا ما تألفت جماعة من أفرادٍ أيًا كانوا ، على أن يكونوا كلُّهم من الإنكليز أو الصينيين مثلاً ، اختلفت

(١) تجد تفصيلًا لاختلاف أنواع الجماعات في كتيبي الأخيرة : روح السياسة والآراء والمعتقدات وروح الثورات .

هذه الجماعة اختلافاً تاماً عن جماعة أخرى مؤلفة من أفراد أياً كانوا ، على أن يكونوا من عروق مختلفة كالروس والفرنسيين والإسبان إلخ .

ويبدو الاختلاف العميق الذي هو وليد المزاج النفسى الموروث فى طراز شعور الناس وتفكيرهم عندما تجتمع بعض الأحوال النادرة أناساً من أمم مختلفة فى جماعة واحدة على نسب متساوية تقريباً مهما كانت المصالح التى تجمع بينهم مُتَّحِدَةً ، وما بذله الاشتراكيون من المساعى فى صَهْرٍ مُمَثِّلٍ فريق العمال من كل بلد فى مؤتمرات كبيرة فقد أدَّى إلى أشدَّ الاختلافات على الدوام ، فالجماعة اللاتينية ، مهما كانت ثَوْرِيَّةً أو محافظة ، تلجأ إلى الحكومة تحقيقاً لمطالبها ، وهى تسير إلى المركزية وإلى القيصرية فى كلِّ وقت ، والجماعة الإنكليزية أو الأمريكية هى بالعكس لا تعرِّف الحكومة ، وهى لا تعتمد على غير المبادرة الشخصية ، والجماعة الفرنسية تبغى المساواة قبل كلِّ شئ ، والجماعة الإنكليزية تبغى الحرية ، وعن فروق العروق تنشأ جماعاتٌ مُنَوَّعةٌ تنوع الأمم .

إذن ، تسيطر روح العرق على روح الجماعة سيطرةً تامة ، وروح العرق هى الرُّكنُ المتين الذى يُحدِّد تقلبات الجماعة ، وروح العرق كلما كانت قوية كان أخطأ أخلاق الجماعات أقلَّ بروزاً ، وهذه هى سُنَّةُ جوهرية ، وبيان الأمر أن الهمجية أو العودة إلى الهمجية تتألف من حال الجماعة ومن سلطان الجماعات ، وأن العرق باكتسابه روحاً متينة يتفقت بالتدريج من سلطان الجماعات العاطلة من التبصر ويخرج من طور الهمجية .

وإذا عدَّوت العرق وجدت التقسيم المهم للجماعات المتباينة يقوم على تفريق هذه الجماعات إلى جماعات مُغفلة كجماعات الشوارع وإلى جماعات غير مُغفلة كالمجالس

النيابية وكالمُحَلِّفِينَ مثلاً ، وإذ كان الشعورُ بالمسؤولية صِفراً لدى الأولى ونامياً لدى الثانية كان لأعمال كلتا الجماعات اتجاهاتٌ مختلفة في الغالب .

٢ — الجماعات المتجانسة

تشتمل الجماعات المتجانسة على الفِرَق والطوائف والطبقات .

فأما الفِرقة فهي الدرجة الأولى في نظام الجماعات المتجانسة ، وهي تحتوى أفراداً مختلفين تربيةً ومِهناً ، وبيئاتٍ في بعض الأحيان ، فلا يربط بينهم سوى وحدة المعتقدات ، كالفرق الدينية والسياسية مثلاً .

وأما الطائفة فهي تُمثِّل أعلى درجة في نظام الجماعات ، فبينما ترى الفِرقة تتألف من أفراد مختلفين مِهناً وتربيةً وبيئاتٍ في الغالب فلا يَجْمَع بينهم غيرُ وحدة المعتقدات ترى الطائفة لا تشتمل على غير أفراد ذوى مِهنة واحدة ومن ثمَّ ذوى تربية وبيئات واحدة تقريباً ، كالطوائف المقاتلة والكنهوتية مثلاً .

وأما الطبقة فتتألف من أفراد مختلفي الأصول جَمَعَت بينهم بعض المصالح وبعض طُرُق الحياة والتربية المتشابهة كالطبقة الوسطى وطبقة الزُّراع إلخ ، لا وُحدة المعتقدات كما بين أعضاء الفرقة ، ولا وُحدة المِهَن كما بين أعضاء الطائفة .

وإذ اننى لا أبحث في هذا الكتاب عن غير الجماعات المتباينة فإننى لا أفرد كلاماً لغير بعض أنواع الجماعات المتجانسة التى اخترتها كمنهج .

الفصل الثاني

الجماعات الجارمة

الجماعات الجارمة — قد تكون الجماعة جارمة قانوناً ، لا نفسياً —
اللاشعور الصرف في أعمال الجماعات — أمثلة مختلفة — روح السبتمبرين —
تعلمهم وشعورهم ووحشيتهم وأخلاقهم .

يظهر أن من الصعب أن تُوصف الجماعة بالجرمة بعد أن يمضي وقتٌ هياج تكون قد انقلبت فيه بفعل بعض التلقينات إلى آلات غير شاعرة ، وترانى أحافظ على هذا الوصف الخاطئ مع ذلك لما كان من اتخاذ بعض المباحث النفسية له ، أجل ، إن بعض أعمال الجماعات جرمٌ من حيث هو لا ريب ، ولكن على أن تُعدَّ هذه الأعمال كافتراس النمر للهندوسى بعد أن يكون قد تركه لصغاره يتلهون بتمزيقه .

تنشأ جرائم الجماعات على العموم عن تلقين قوى ، ويعتقد الأفراد الذين اشتركوا في اقترافها أنهم قاموا بواجب ، وغيرُ هذا هو حال المجرم العادى .
وتاريخ ما ارتكبه الجماعات من الجرائم يُوضح ما تقدم .

ومن الأمثلة البارزة على ذلك قتلُ محافظ سجن الباسيل مسيو دُولُوناي ، فبعد أن تمَّ الاستيلاء على هذا الحصن أحاطت جماعةٌ شديدة الهيجان بذلك المحافظ ، فصار يتلقى الضربات من كلِّ جانب ، وقد اقترح أن يُشنق أو أن يُضرب عنقه

أو أن يُرَبَّطَ بِذِيلِ فَرَسٍ ، وفيما كان محافظ السجَن يدافع عن نفسه رَكَلَ أَحَدَ الحُضُورِ خطأً فَاقْتَرَحَ بعضهم أن يَقطَعَ المِضْرُوبُ عُنُقَهُ فهِتَفَتِ الجَمَاعَةُ لذلك الاقتراح في الحال .

« كان المِضْرُوبُ طاهِيًا بلا عَمَلٍ ، وكان شَبَّهَ أَبْلَهَ فذهب إلى الباسْتِيل ليرى ماذا يقع هنالك ، ويَجِدُ أن الفعلَ وَطَنِيٌّ ويعتقد أنه يستحقُّ وِسَامًا بقتله ذلك الوحشَ ما دام هنالك رَأْيٌ أَجْمَعَ عليه ، وَيُسَلِّمُ سيفٌ إليه فيضْرِبُ العُنُقَ العارى ، ولكن السيف لم يَقْطَعْ لأنه غيرُ مُرْهَفٍ ، فيُخْرِجُ من جيبه سكينًا صغيرةً ذاتَ مِقْبَضٍ أَسْوَدَ ، فيُمِمْ بها عَمَلَهُ مُوقَفًا لِمَا كان من خِبْرَتِهِ في تقطيع اللحم كطَبَّاحٍ » .

وهنا يَتَبَيَّنُ لك النظام المذكور آنفًا ، وهو قائم على الخضوع لتلقين قوى صادرة عن جماعة وعلى اعتقاد القاتل أنه أتى عملاً يُؤْجِرُ عليه لِمَا كان من إجماع بنى وطنه على استحسانه ، فعملٌ كهذا وإن أمكن نَعْتُهُ بِالْأَثَمِ قانونًا ، ليس إثماً من الناحية النفسية .

والصفاتُ العامة للجاعات الجارمة هي عين الصفات التي أبصرناها لدى جميع الجاعات ، وهي قابلية التَلَقُّن وسرعة التصديق والتقلب والتطرف في المشاعر الطيبة والمشاعر السيئة وإظهار بعض الأطوار الخَلْقِيَّةِ إلخ .

وَتَجِدُ جميع تلك الصفات مجتمعة في إحدى الجاعات التي تَرَكَتْ أَشْأَمَ ذكر في تاريخنا ، أى في جماعة شهر سبتمبر ، وتَجِدُ كبيرَ شَبَّهٍ بين هذه الجماعة والجاعات التي قامت بمذبحة سان بارتلمى مع ذلك ، ومن تالين أَقْتَبَسَ تفصيلَ قِصَّةِ تلك الجماعة ، فهو الذى استنبطها من مُدَّ كُرَّاتِ ذلك الزمن .

لَا نَعْرِفُ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ مَنْ الَّذِي أَمَرَ أَوْ حَرَّضَ عَلَى إِخْلَاءِ السَّجُونَ بِقَتْلِ السَّجْنَاءِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمَهْمِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ هُوَ دَانْتُونُ كَمَا يَحْتَمِلُ أَوْ غَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَهْمُنَا هُوَ أَنَّهُ وَجِدَ تَلْقِينَ قَوِيَّ تَلَقَّتهِ الْجَمَاعَةُ الَّتِي وَكَلَّ إِلَيْهَا أَمْرَ الْقَتْلِ .

كَانَ جَيْشُ الْقَتْلَةِ مُؤَلَّفًا مِنْ نَحْوِ ثَلَاثِمِئَةِ شَخْصٍ ، وَكَانَ هَذَا الْجَيْشُ عُنْوَانَ الْجَمَاعَةِ الْمُتَبَايِنَةِ الْكَامِلِ ، وَإِذَا عَدَوَتْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُحْتَرِفِينَ الْقَلِيلِينَ وَجَدَتْهُ مُؤَلَّفًا عَلَى الْخُصُوصِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَوَانِيتِ وَمِنْ صُنَّاعِ مُخْتَلَفِ الْحِرَفِ ، أَيْ مِنَ الْحَدَّائِينَ وَالْقَفَّالِينَ وَالْحَلَّاقِينَ وَالتَّبَّانِينَ وَالْمُسْتَخْدِمِينَ وَالْعُمَّالَةَ الْخِ ، وَيُلَقَّنَ هَؤُلَاءِ وَيَعْدُّونَ بِفِعْلِ هَذَا التَّلْقِينَ كَذَلِكَ الطَّاهِي فَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ بِوَجِبِ وَطَنِيٍّ ، وَيَنْتَحِلُونَ وَظِيفَتَيْنِ : وَظِيفَةَ الْقَضَاةِ وَوِظِيفَةَ الْجَلَّادِينَ ، وَلَا يَعْدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْمَجْرِمِينَ أَبَدًا .

وَيَشْعُرُونَ بِعِظَمِ شَأْنِهِمْ ، وَيَبْدَعُونَ بِتَأْلِيفِ ضَرْبٍ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَتَتَجَلَّى رُوحُ الْبَسَاطَةِ وَالْإِنْصَافِ الْبَسِيطِ فِي الْجَمَاعَةِ ، وَيُبْصِرُ عِدَدُ الْمُتَهَمِينَ الْكَبِيرُ وَيُحْكَمُ أَوَّلًا بِقَتْلِ الْأَشْرَافِ وَالْقُسُوسِ وَالضَّبَاطِ وَخُدَّامِ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ، أَيْ بِقَتْلِ جَمِيعِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ تُتَّخَذُ مِنْهُمْ وَحْدَهَا دَلِيلًا عَلَى الْإِجْرَامِ فِي نَظَرِ كُلِّ وَطَنِيٍّ صَادِقٍ ، وَذَلِكَ جُمْلَةً مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى قَرَارِ خَاصٍّ ، وَيُحْكَمُ عَلَى الْآخَرِينَ بِالسِّيمَى أَوْ بِالشَّهْرَةِ ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ شُعُورُ الْجَمَاعَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ لَهَا أَنْ تَبْدَأَ بِالْقَتْلِ قَانُونًا ، وَأَنْ تُطْلِقَ الْعِزَّانَ لِفَرَاغِ التَّوْحِشِ الَّتِي أَوْضَحَتْ تَكْوِينَهَا فِي مَكَانٍ آخَرٍ وَالتِّي يُمَكِّنُ الْجُمُوعَ وَحْدَهَا أَنْ تُنْمِيَهَا إِلَى أَقْصَى حَدٍّ ، وَتَلِكِ الْفَرَاغُ لَا تَحُولُ مَعَ ذَلِكَ دُونَ اقْتِرَانِهَا فِي الْجَمَاعَاتِ بِمَشَاعِرٍ مُنَاقِضَةٍ أُخْرَى كِمَاطِفَةِ التَّأَثُّرِ الَّتِي تَبْلُغُ فِي تَطَرُّفِهَا تِلْكَ الْقِسْوَةَ .

« كَانَ لِأَوَّلِكَ مَا لِلْعَامِلِ الْبَارِئِ مِنْ عَطْفٍ وَسَّيْعٍ وَإِحْسَاسٍ سَرِيعٍ ، وَمِنْ

ذلك أن أحد المتعاهدين عَلمَ في السجن أن الموقوفين تركوا بلا ماء منذ ست وعشرين ساعة فأراد أن يُبيد البوّاب المُهمل، وكاد يفعل ذلك لولا شفاعَةُ الموقوفين أَنفُسِهِمْ ، وإذا ما بُرئ سجينٌ (من قِبل المحكمة المُرتَجَلَة) قَبْلَهُ جميع الناس من حَرَس وقَتْلَة بجماعة وهتفوا له هُتافاً شديداً « ، ثم عادوا يقتلون الآخرين وما انفكَّ السرور يلازمهم في أثناء الذبح ، فيرقصون ويُغنّون حول الجُثث مُعِدِّين مقاعدَ « للسيدات » اللاتي يُسَعِدُهُنَّ الحظُّ بمشاهدة قتل الأشراف ، ولم يفتأوا يُظهرون إنصافاً خاصاً أيضاً ، وآية ذلك أن قاتلاً تَوَجَّع في السجن من أن السيدات لا يُشَاهِدُنَّ القتلَ لوضعهن في مكان غير قُرْبٍ منه ، وَمِنْ أن بعض الحضور وحده يتمتع بضرب الأشراف ، فرُئِيَ صوابُ هذه الملاحظة ، وقُرِّرَ أن يَمْشِيَ الضحايا الهويناً بين صفّين من القَتْلَة فلا يستطيع هؤلاء أن يَضْرِبُوا بغير مَتْنِ السيفِ مَدّاً لأمَدِ التعذيب ، وتُنَزَّع ثياب الضحايا فيغدّون عُراةً تماماً فيمَرَّقون في نصف ساعة ، ثم يُجهِّز عليهم ببقرة بطونهم بعد أن يكون الجميع قد رأى ما حَدَثَ جيداً .

وكان القَتْلَة شديدي الأمانة مع ذلك ، فيُظهِرون من الفضائل ما ذكرنا وجوده في الجماعات آنفاً ، فيأتون إلى مِنْضَدَات اللجان بنقود الضحايا وحُلِيِّهِمْ .

وعلى الدوام كُنْتُ تَجِدُ في أفعالهم ما تتصف به الجماعات من وجوه التعقل الساذجة ، ومن ذلك أن أولئك لم يكادوا يَفْرَغون من ذَبْحِ الألف والمئتين أو الألف والخمسة من أعداء الوطن حتى رأى أحدهم ، وقد قُبِلَ رأيه حالاً ، أن السجن الأخرى تشتمل على أناس من السائلين المُسِنَّين ومن الأفاقين ومن الأحداث الموقوفين ، أى تشتمل على أفواه لا خَيْرَ فيها ، فيَحْسُنُ التخلصُ منهم ، وذلك إلى أنه كان يوجد بين هؤلاء أعداء للشعب بالحقيقة كأرملة أحد الداعفين المدعوّة

دُولَارُو ، « فهِى لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ حَاقَّةً مِنْ سَجْنِهَا ، وَهِيَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَحْرَقَ بَارِيسَ لَوْ اسْتَطَاعَتْ ذَلِكَ ، وَهِيَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ قَدْ قَالَتْ هَذَا ، وَهِيَ قَدْ قَالَتْهُ لَا رَيْبَ ، فَوَجِبَ أَنْ تُكَنَسَ إِذْنُ » ، وَيَبْدُو الدَّلِيلُ وَاضِحًا وَيُقْتَلُ الْجَمِيعُ جُلَّةً ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ نَحْوُ خَمْسِينَ غُلَامًا كَانَتْ أَعْمَارُهُمْ تَتَرَجَّحُ بَيْنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَالسَّنَةِ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ ، فَذُبُّوا لِمَا قِيلَ مِنْ إِمْكَانِ ظُهُورِهِمْ أَعْدَاءَ لِلْأُمَّةِ ذَاتِ يَوْمٍ وَوَجُوبِ إِبَادَتِهِمْ لِهَذَا السَّبَبِ .

وَيَدُومُ الذَّبْحُ أُسْبُوعًا ، فَلَمَّا تَمَّ فَكَّرَ الْقَتْلَةَ فِي الرَّاحَةِ ، وَهُمْ إِذَا اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَامُوا بِأَحْسَنِ خِدْمَةٍ لِلْوَطَنِ طَالَبُوا السُّلْطَاتِ بِأَنْ تَكْفِيَهُمْ ، حَتَّى إِنْ أَكْثَرَهُمْ غَيْرَةٌ رَغِبَ فِي نَيْلِ أَوْسَمَةٍ .

وَفِي تَارِيخِ ثَوْرَةِ سَنَةِ ١٨٧١ الْمَعْرُوفَةِ بِالْكُومُونِ أَمْثَلَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ ذَلِكَ الطَّرَازِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنْ نُمُوَّ سُلْطَانِ الْجَمَاعَاتِ وَاسْتِخْدَاءِ السُّلْطَاتِ لَهَا سَيُؤَدِّيَانِ إِلَى حَدُوثِ وَقَائِعٍ كَثِيرَةٍ كَالَّتِي ذَكَرْنَا .

الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دلالة على قدرته وقوته
وأنه لا اله الا هو
الذي لا يوصف بصفات
المخلوقين ولا يقاس
بمقاييسهم ولا يحاط
بحدوده ولا يحصى
تعالى عما يشركون
والله اعلم بالصواب

الفصل الثالث

مُحَلِّفُو مُحْكَمَةِ الْجَنَائَاتِ

محلفو محكمة الجنایات — صفات المحلفين العامة — يدل الإحصاء على أن أحكامهم مستقلة عن تأليفهم — كيف يتأثر المحلفون — ضعف تأثير البرهان — طرق الإقناع التي يتخذها المحامون المشهورون — طبيعة الجرائم التي يبدو المحلفون أشدء أو متساهلين أمامها — فائدة نظام المحلفين والضرر الذي ينجم عن استبدال نظام القضاة به .

لا نستطيع أن ندرس في هذا الكتاب جميع أنواع المُحَلِّفِينَ ، فترانا نَبَحَثُ في أهمِّها : نَبَحَثُ في مُحَلِّفِي مُحْكَمَةِ الْجَنَائَاتِ ، ومن المُحَلِّفِينَ يتألف أحسن مثال للجماعات المتباينة غير المُعْفَلَةِ ، وفي المُحَلِّفِينَ تتجلى قابلية التلقن وهيمنة العواطف اللاشعورية وُضْعُفُ التَّأَثُّرِ بِالْمَقُولِ ونفوذُ الزعماء إلخ ، ونحن إذ نَبَحَثُ في أمر المُحَلِّفِينَ يكون لدينا من الفرصة ما نلاحظ به نماذج الأغاليط التي يمكن أن يقترفها أناسٌ غيرُ عارفين بروح الجماعات .

وأولُ ما نَحِدُهُ في المُحَلِّفِينَ من حيث الأحكامُ هو الدلالة على ضَعْفِ أهمية المستوى النفسي لمختلف العناصر التي تتألف منها الجماعة ، ومما رأيناه أن العقل لا يُمَثِّلُ أَىَّ دور في المجالس الشُّورِيَّةِ التي يُطَلَّبُ منها أن تُبْدِيَ رأيها في مسألةٍ غير ذات صبغة فنية ، وأنه لا يَصْدُرُ عن اجتماع مؤلف من علماء ومتفنين أحكامٌ في الموضوعات العامة أرقى من أحكام أناس من البَنَّائِينَ ، وفي مختلف الأدوار كانت الإدارة تُعَنَّى

باختيار الأشخاص الذين يتألف المُحَلَّفون منهم فكانت تَجْمَعهم من بين الطبقات المَنَوَّرَة كالأساتذة والموظفين والأدباء إلخ ، واليوم يتألف المُحَلَّفون على الخصوص من صِغار الباعة وصِغار المستصنعين والمستخدمين ، ومن دواعي دَهْشة الكُتَّاب المتخصصين أن دَلَّ الإحصاء في الحقيقة على أن أحكام المُحَلَّفين متشابهة مهما كانت العناصر التي يتألفون منها ، حتى إن القضاة أنفسهم اضطُرُّوا إلى الاعتراف بصحة هذا الأمر مهما بلغوا من مناصبة نظام المُحَلَّفين العِدَاء ، وإليك كيف يُعَبَّر رئيس محكمة الجنايات السابق مسيو بيراردى غلاجو عما في نفسه حَوْلَ هذا الموضوع ، وذلك في مُذَكِّراته ، فقد قال :

« اليومَ يَتِمُّ اختيار المُحَلَّفين بالحقيقة من قِبَل أعضاء المجالس البلدية الذين يوافقون على هذا أو يرفضون ذلك تَبَعاً لِمَنَازِعهم السياسية والانتخابية ... واليومَ يتألف مُعْظَم المختارين من تجار أَقْلٍ أَهميَّةٍ مِمَّنْ كانوا يُخْتَارون وأدنى شَأْنًا من موظفي بعض الدوائر ... وإذ كانت جميعُ الآراء تَمُزجُ بِجميعِ المِهَن في مَنَصِبِ القاضي ، وإذ يحمل كثيرٌ من المُحَلَّفين حرارةَ حديثي العهد بالإيمان ، وإذ يَتَلَاقِي طَيِّبُو النِّيَّةِ في أدنى المواضع ، فإنك تَجِدُ روح المُحَلَّفين لم تتغير ، فظلت أحكامهم كما كانت عليه » .

والذي نُنسِكُ به من تلك العبارة هو النتائجُ الصحيحة ، لا الشروحُ التي هي ضعيفة إلى الغاية ، ولا عَجَبَ من مِثْل هذا الضَّعْف ما لاح لنا أن روح الجماعات ، ومن شَمَّ روح المُحَلَّفين ، أمرٌ يجهله المحامون والقضاة في الغالب ، ودليلي على ذلك ما ذكره ذلك المؤلف من أن أحد مشاهير المحامين لدى محكمة الجنايات ، لاشو ، كان يستعمل بانتظام حَقَّه في رَدِّ جميع الأذكياء من المُحَلَّفين ، والحقُّ

أن التجربة ، والتجربة وحدها ، هي التي دلت على عدم فائدة رَفْض القضاة في نهاية الأمر ، فترى النائب العام والمحامين يباريس على الأقل قد عدلوا اليوم عن ذلك عدولاً تاماً ، والواقع هو أن أحكام المحلفين لم تتغير كما لاحظ ذلك مسيو دى غلاجو ، « وهذه الأحكام ليست بالمثلى ولا بالسوءى » .

والمحلفون كجميع الجماعات يؤخذون بالعواطف ، وقلما يؤثر فيهم بالمعتولات ، ومن قول أحد المحامين : « إنهم لا يثبتون أمام امرأة تُرَضِع أو أمام صِغار يتامى » ، ومن قول مسيو دى غلاجو : « انه يكفي المرأة أن تكون مليحة ليعطف عليها المحلفون » .

والمحلفون لا يعرفون الرحمة تجاه الجرائم التي يلوح إمكان إصابتها لهم ، وهي التي تكون شديدة الخطر على المجتمع مع ذلك ، والمحلفون يبدون بالعكس رُحماء تجاه الجرائم العاطفية ، ومن النادر أن يبدوا أشداء على الأمهات اللاتي يقتلن أطفالهن ، وأندر من ذلك أن يتسوا على فتاة هجرها غاويها فرمتها بالزاج ، فالمحلفون يشعرون بغريزتهم أن هذه الجرائم قليلة الخطر على المجتمع وأن نفع انتقام الفتاة المهجورة أكبر من ضرره في بلد لا يحصى قانونه الفتيات المهجورات فيكون بذلك زجر مُقَدَّم للغواة في المستقبل ^(١) .

(١) نلاحظ هنا أن هذا التفريق الذي أتاه المحلفون بغريزتهم بين الجرائم المضرّة بالمجتمع والجرائم الأخرى لا يخلو من صواب ، ومع أن من الواجب أن تهدف قوانين العقوبات إلى حماية المجتمع من المجرمين ، لا إلى الانتقام له ، نجد قوانيننا ونفوس قضائنا لاتزال مشبعة من روح الانتقام التي كانت سائدة للعقوبات القضائية ، وترى كلمة الانتقام دارجة على الألسنة ، ودلينا على تلك الروح في القضاة ما نبصره من امتناعهم عن تطبيق قانون بيرانجه الرائع الذي يسمح بالحكم مع وقف التنفيذ مالم يرجع المحكوم عليه إلى الإجرام ، والواقع أنك لا ترى قاضياً يجهل أن فرض العقوبة الأولى يؤدي إلى عودة المحكوم عليه إلى الإجرام حتماً كما يدل عليه الإحصاء ، وإنما يخيل إلى القاضي أنه لا يكون قد انتقم للمجتمع إذا ما خلى سبيل المتهم فتراه يفضل إيجاد أناس من ذوي السوابق الخطرين على ألا ينتقم للمجتمع .

والمُحَلِّفُونَ يَنْهَرُهُمُ النُّفُوذُ كَثِيرًا كَمَا يَنْهَرُ كُلُّ جَمَاعَةٍ ، وَالْمُحَلِّفُونَ يَبْذُونَ ، كَمَا لَاحَظَ دِي غَلَاخُو ، شَدِيدِي الْأَرِيسْتُوقَرَاتِيَّةِ فِي عَوَاطِفِهِمْ وَإِنْ كَانُوا كَثِيرِي الدِّيمُوقَرَاتِيَّةِ فِي تَرْكِيبِهِمْ ، « فَيَتَأَلَفُ مِنَ الْأَسْمِ وَالنَّسَبِ وَالغِنَى الْكَبِيرِ وَالشُّهْرَةِ وَالِاسْتَعَانَةِ بِمَحَامٍ بَعِيدِ الصِّيتِ وَالْأُمُورِ الْمُمَيَّزَةِ وَالْأُمُورِ الزَّاهِيَةِ عُدَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي يَدِ الْمُتَهَمِينَ » .

وَعَلَى الْمَحَامِي الْأَرِيبِ أَنْ يَجْعَلَ هَمَّهُ مَصْرُوفًا إِلَى التَّأْثِيرِ فِي مَشَاعِرِ الْمُحَلِّفِينَ ، كَمَا يُؤَثِّرُ فِي كُلِّ جَمَاعَةٍ ، فَلَا يَسْتَنْدِ إِلَى الْمَقُولِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَا يَأْتِي بِغَيْرِ الْبَرَاهِينِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ، وَقَدْ أَجَادَ مُحَامٍ إِنْكِلِيزِيٌّ اشْتَهَرَ بِنَجَاحِهِ أَمَامَ مَحْكَمَةِ الْجَنَايَاتِ تَحْلِيلَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَقَالَ :

« إِنَّهُ يَرْقُبُ الْمُحَلِّفِينَ بِدَقَّةٍ وَهُوَ يَرَافِعُ ، وَهَذَا هُوَ الْحَيْنُ الْمُنَاسِبُ ، وَفِي الْوَجْهِ يَتَوَسَّمُ عَنْ حِذْقٍ وَعَادَةٍ بِمَا يَكُونُ لِكُلِّ جُمْلَةٍ وَكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ أَثَرٍ فَيَسْتَنْبِطُ نَتَائِجَهُ ، وَفِي الْبَدَاءَةِ يُمَيِّزُ الْأَعْضَاءَ الَّذِينَ أَصْبَحُوا بِجَانِبِهِ ، وَيَأْتِي مِنَ الْحَرَكَاتِ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ إِلَى انْخِيَاظِهِمْ إِلَيْهِ تَمَامًا ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْأَعْضَاءِ الَّذِينَ يُلَوِّحُ لَهُ إِعْرَاضُهُمْ فَيَسْمَعِي فِي اكْتِنَاهِ سَبَبَ اذْوَارِهِمْ عَنِ الْمُتَهَمِ ، وَهَذَا أَشَقُّ مَا فِي عَمَلِهِ ، فَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَثِيرَةِ ، الْخَارِجَةِ عَنْ حِسِّ الْعَدْلِ ، مَا يُؤَدِّي إِلَى الْحُكْمِ عَلَى الْمُتَهَمِ » .

وَفِي تِلْكَ الْأَسْطَرِ خِلَاصَةٌ صَائِبَةٌ لِهَدَفِ فَنِّ الْخُطَابَةِ ، وَهِيَ تَدُلُّنَا عَلَى عَدَمِ فَائِدَةِ الْخُطْبِ الَّتِي تُعَدُّ مُقَدِّمًا لِمَا يَجِبُ أَنْ يُغَيَّرَ مِنْ عِبَارَاتِهَا فِي كُلِّ ثَانِيَةٍ وَفَقْ مَا يَكُونُ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ .

وَلَيْسَ عَلَى الْخُطِيبِ أَنْ يَسْتَمِيلَ جَمِيعَ الْمُحَلِّفِينَ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ رُؤُسَاءَهُمُ الَّذِينَ يُوجَّهُونَ الْآخَرِينَ ، قَالَ الْمَحَامِي الَّذِي ذَكَرْتَهُ آتِفًا : « دَلَّتْنِي التَّجَارِبُ

على أنه يكفي اثنان أو ثلاثة من ذوى النشاط ليجذب الباقين عند إصدار الحكم ، وهذان الاثنان ، أو الثلاثة ، هما اللذان يجب إقناعهما بتلقيينات لبقة ، وأول ما يجب أن يُصنع هو أن يُوقع منهما موقع الرضا ، فالرجل في الجماعة إذا ما اكتسب إعجابه ظفر بقناعته تقريباً ، فغدا مستعداً لعدا ما يُعرض عليه من الأسباب أمراً مقبولاً ، وإليك الحكاية الآتية التي اقتبسها من كتاب مُمتع عن مسيولاشو :

« من المعلوم أنه كان في مرافعاته أمام محكمة الجنايات لا يُحوّل نظره عن مُحلفين ، أو ثلاثة مُحلفين ، يَعْرِفُ أو يُحْسُ نفوذهما مع صعوبة مراسهما ، فكان يَصِلُ على العموم إلى التغلب على هذين الجامحين ، ومما حدث ذات مرة أن وُجد في الرّيف فأبصر مُحلفاً لا تَلِينُ له قناةٌ تجاه ما كان يُلقى عليه من برهانه في ثلاثة أرباع الساعة ، وكان هذا المُحلف جالساً في أول الصفّ الثاني وكان السابع من المُحلفين ، وكان الوضّع جالباً لليأس ، وفيما كان الأمر كذلك إذ قطع لاشو برّهنته الحارّة وخاطب رئيس المحكمة بقوله : « ألاّ تستطيعون ياسيدى الرئيس أن تسدّوا السّتار هنالك حيثُ الشمسُ قد أَعْشَت سِيدى المُحلف السابع ؟ » ، فهناك احمرّ وجه المُحلف السابع وتبسّم وشكّر فصار من أنصار الدفاع .

ومن الكُتّاب فريقٌ كبيرٌ ، ومنهم النوايغُ ، قد هاجم نظام المُحلفين بِشِدَّة في الزمن الأخير ، مع أن المُحلفين هم الموثّل الوحيد الذى يَبْقَى من أغاليط كثيرةٍ تقترفها طائفة لا رقيبَ عليها^(١) ، ومن أولئك الكُتّاب من يودّون جمع المُحلفين

(١) حقاً أن القضاء هو السّلطة الوحيدة التى لا تخضع أعمالها لأية رقابة ، وما اشتعل في فرنسا الديموقراطية من ثورات فلم ينعجها مثل حق تخلية السبيل الذى تباهى به إنكثرة ، نعم ، إننا أفضينا الطغاة عنا ، غير أن القاضى في كل مدينة يتصرف في شرف أهل الوطن وحرّيتهم كما يشاء ، ومن ذلك ترى أن قوضى التحقيق ، الذى لم يكد يخرج من مدرسة الحقوق ، يتمتع بسلطة عاتية =

من الطبقات المُنَوَّرة ، ولكننا أثبتنا أن الأحكام في مثل هذه الحالة لا تكون إلا مماثلة لما يَصْدُر في الوقت الحاضر ، ومن أولئك الكتّاب من يستندون في دعواهم إلى الأغاليط التي تَصْدُر عن المُحَلِّفين فيرغبون في إلغاء المُحَلِّفين واستبدال قضاة بهم ، ولكنهم كيف يَنْسَوْنَ أن ما يُعَاب عليه المُحَلِّفون من الأغاليط هو مما يقتضيه القضاة في بدء الأمر ما دام المتهم لا يُحَالُ إلى المُحَلِّفين إلا بعد أن يُعَدَّ مذنباً من قِبَل كثير من القضاة ، أى من قِبَل قاضى التحقيق ونائب الجمهوريّة ودائرة الاتهام ؟ أفلا يُرى أن المتهم إذا ما فَصِّل في أمره قضاة نهائياً بدلاً من المُحَلِّفين حَسَرَ حَظَّهُ الوحيد في إعلان براءته ؟ ألا إن أغاليط المُحَلِّفين هي أغاليط القضاة كما ذكرنا ، والقضاة وحدهم ، إذن ، هم الذين يجب أن يلاموا عند النظر إلى الأغاليط القضائية الفظيعة كالحكم على الدكتور س... الذى تَعَقَّبَهُ أحد قضاة التحقيق المحدودى العقل بناءً على شكوى فتاة بلهاء أمّته فيها بأنه أسقط حَمَلَهَا في مقابل ثلاثين فرنكاً ، وقد كاد هذا الطبيب يُرْسَل إلى سجن الأشغال الشاقة لولا انفجارُ الرأى العام الذى أسفر عن عفو رئيس الدولة عنه في الحال ، وما كان من إعلان جميع بنى وطن الطبيب لاستقامته فقد أظهرَ فظاعة ذلك الخطأ ، حتى إن القضاة أنفسهم كانوا يَعْرِفُونَ ذلك ، والقضاة هؤلاء قد استحوذت عليهم روح طائفتهم مع ذلك فلم يَأْلُوا جُهْداً في مَنَعِ إمضاء العفو عن ذلك الطبيب ، ومن الطبيعى أن يأخذ المُحَلِّفون بأقوال النيابة العامة في جميع الأمور التي تشتمل كذلك الأمر على دقائق فنية لا يَقْدِرُونَ على إدراك شىء منها ذاهبين إلى أن الأمر مما

== يستطيع أن يسجن بها أكبر القوم لأذى شبهة ، وهو يستطيع بهذه السلطة أن يقيمهم في السجن ستة أشهر أو سنة كاملة بحجة التحقيق ، ثم أن يغلى سبيلهم من غير تعويض أو اعتذار ، ويعزل أمر الإحضار الراهن كتاب الحتم في العهد السابق مع القارق القائل إن كتاب الحتم ، الذى يلام عليه النظام الملكى السابق بحق ، لم يكن في غير متناول أكبر الناس وإن أمر الإحضار أصبح قبضة طبقة من أبناء الوطن بعيدة من الثقافة والاستقلال .

حَقَّقَهُ قِضَاةٌ مُتَّبِعُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ جَمِيعِ الدَّقَائِقِ ، وَمَنْ يَكُونُ مَقْتَرِفُو الْخَطَا الْحَقِيقِيِّينَ
 إِذَنْ : أَلْمُحْلَفُونَ أَمْ الْقِضَاةُ ؟ فَلْنَحَافِظْ عَلَى الْمُحْلَفِينَ كُلَّ الْحَافِظَةِ ، فَمِنْ الْمُحْلَفِينَ
 تَتَأَلَّفُ الْجَمَاعَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ فَرْدٍ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهَا ، وَالْمُحْلَفُونَ وَحْدَهُمْ
 يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُخَفَّفُوا شِدَّةَ الْقَانُونِ الَّذِي هُوَ وَاحِدٌ لِلْجَمِيعِ مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ فَيَكُونُ
 ذَا عَمَمٍ فَلَا يَعْرِفُ الْأَحْوَالَ الْخَاصَّةَ ، وَإِذَا انْ قَاضَى شَدِيدٌ حِرْفَةً فَإِنَّهُ يَفْرِضُ
 عَيْنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى اللَّصِّ الْقَاتِلِ وَعَلَى الْفَتَاةِ الْمُسْكِينَةِ الَّتِي أَدَّى هَجْرُ خَادِعِهَا لَهَا
 وَبُؤْسُهَا إِلَى قَتْلِ طِفْلِهَا ، عَلَى حِينٍ تَرَى الْمُحْلَفِينَ يَشْعُرُونَ عَنْ غَرِيزَةٍ أَنَّ الْفَتَاةَ
 الَّتِي أُغْوِيَتْ أَقْلٌ ذَنْبًا مِنَ الْغَاوِي بِمَرَاكِلِهَا ، فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِرَأْفَتِهِمْ مَا دَامَ الْقَانُونُ
 لَا يَجَاوِزِي الْغَاوِي .

وَإِنِّي ، وَقَدْ عَرَفْتُ رُوحَ الطَّوَائِفِ وَرُوحَ الْجَمَاعَاتِ الْآخَرَى ، لَا أَرَى مَا يَخْفِزُنِي
 إِلَى عَدَمِ تَفْضِيلِ الْمُحْلَفِينَ عَلَى الْقِضَاةِ إِذَا مَا اتَّهَمْتُ بِجُرْمٍ عَلَى غَيْرِ حَقٍّ ،
 فَبِالْمُحْلَفِينَ لِي كَبِيرُ أَمَلٍ بِالْبَرَاءَةِ ، وَبِالْقِضَاةِ لِي قَلِيلُ أَمَلٍ بِهَا ، وَلِنَحْذَرُ سُلْطَانَ
 الْجَمَاعَاتِ ، وَلَكِنْ لَيْكِنْ حَذَرُنَا مِنْ بَعْضِ الطَّوَائِفِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِدَرَجَاتٍ ،
 فَقَدْ يُمْكِنُ إِقْنَاعُ الْجَمَاعَاتِ ، مَعَ أَنَّ الطَّوَائِفَ لَا تَلِينُ أَبَدًا .

الفصل الرابع

الجماعات الانتخابية

الصفات العامة للجماعات الانتخابية — كيف يقع إقناع هذه الجماعات —
الصفات التي يجب أن تكون في المرشح — ضرورة النفوذ — السبب في
قلة انتخاب العمال والفلاحين للمرشحين منهم — سلطان الألقاظ والصيغ
على الناخب — المظهر العام للمناقشات الانتخابية — كيف تتكون آراء
الناخب — سلطان اللجان — اللجان تمثل أشد صور الطغیان — لجان
الثورة الفرنسية — لا يمكن أن يستبدل بالتصويت العام شيء آخر مع ضعف
قيمه النفسية — السبب في تماثل الأصوات حتى عند قصر حق التصويت
على طبقة معينة من أبناء الوطن — معنى التصويت العام في جميع البلدان .

تتألف جماعات متباينة من الجماعات الانتخابية ، أي من الزمر التي تدعى إلى
انتخاب من يقومون ببعض الوظائف ، بيد أن هذه الجماعات ، إذ كانت لا تسير
إلا في نطاقٍ مُعَيَّن كاختيار أناس من مرشحين كثيرين ، لا يُرى فيها سوى
بعض الصفات التي تقدّم بيانها ، وأظهر ما يتجلى فيها على الخصوص هو ضعفُ
القدرة على التعقل وفقدان روح النقد وسرعة الغضب وسرعة التصديق والسذاجة ،
ومما يُبَصِّر في قراراتها نفوذُ الزعماء وشأنُ العوامل المذكورة آنفاً ، وهي : التصديق
والتكرار والنفوذ والعدوى .

ولنبحث في كيفية إغواؤها ، وإذا ما تبدّت لنا أنجحُ الوسائل تجلّت
روحها بوضوح .

والنفوذ هو الصفة الأولى التي يجب أن يتحلى بها المرشح ، ولا يمكن أن يقوم مقام النفوذ الشخصى غير نفوذ الغنى ، حتى النبوغ حتى العبقرية ليسا عنصري نجاح .

وضرورة تحلى المرشح بالنفوذ ، ومن ثم قدرته على فرض نفسه بلا جدال ، أمر ذو أهمية ، وإذا كان الناخبون المؤلفون من عمال وفلاحين لا يختارون منهم من يمثلهم إلا نادراً فلأن الأشخاص الذين يظهرون منهم لا يتمتعون بأى نفوذ لديهم ، وهم إذا ما انتخبوا عدلاً لهم فلا أسباب ثانوية ، كأن يؤدوا معارضة رجل عال ، رب عمل قوى ، يخضع له الناخب فى كل يوم فيُخيّل إلى هذا الناخب أنه يصبح سيداً على ذلك الرجل ذات حين .

غير أن النفوذ وحده لا يكفي لنجاح المرشح ، فالناخب يؤد أن تُدارى شهواته وانتفاخاته ، فعلى المرشح أن يتخمه بأشدّ ضروب الملق مخافة للصواب وألا يتردد فى أن يسوق إليه أكثر الوعود وهماً ، ومما لا يمكن أمام العمال أن يسبّ أرباب عملهم وأن يهتك سترهم كثيراً ، وأما المرشح المنافس فإنه يسعى فى التغلب عليه بأن يوصف من طريق التوكيد والتكرار والعدوى بأنه أخسّ الأثمين ، وأن ارتكابه لكثير من الجرائم أمر يعرفه كل واحد ، ولا فائدة فى دعم ذلك بالبرهان ، والخصم إذا كان سيئ الاطلاع على روح الجماعات حاول تبرئة نفسه بالأدلة ، بدلاً من أن يدحض البهتان الموكدة بهتاناً موكّداً آخر ، فلا يكون له بتلك التبرئة أى حظ فى النجاح .

ويجب ألا يكون البرنامج الذى يكتبه المرشح بالغ الصراحة ، لتمكين خصومه من اتخاذه حجة عليه فى المستقبل ، ولكنه لا يعدّ مبالغاً فى برنامجهِ الشفوى مهما

كان ، ففي هذا البرنامج يمكنه أن يَعِدَ غيرَ خائف بأعظم الإصلاحات ، وذلك لِمَا يكون لهذه المبالغات من أثر كبير في الساعة الراهنة ، لا في المستقبل حين لا تكون مُلْزِمةً ، والحقُّ أن الناخب لا يَشْغَلُ باله بعد ذلك في معرفته : هل قام المنتخب بما هُتِفَ له من العهود فانتُخِبَ من أجله على ما يُفترض .

وهنا يُسَلَّمُ بجميع عوامل الإقناع المذكورة آنفاً ، ونَجِدُ هذه العوامل أيضاً في تأثير الألفاظ والصيغ التي بَيَّنَّا سلطانها القويَّ ، والخطيبُ الذي يَعْرِفُ كيف يتصرف فيها يُسَيِّرُ الجماعات كما يشاء ، وينشأ عن مثل الكلمات : رأس المال القبيح والمستغلين الأذنياء والعامل الباهر وشيوخ الثروات إلخ ، مثلُ ذلك الأثر على الدوام وإن غدت مبتذلةً ، ولكن المرحح إذا ما استطاع أن يكتشف صيغةً جديدةً خالية من معنى محدود ، ومن ثمَّ ملائمةً لمختلف الآمال ، كان النجاح حليفه لا ريب ، وفي سنة ١٨٧٥ اشتعلت الثورة الإسبانية بفعل إحدى تلك الكلمات الساحرة ذات المعنى المُعَقَّدَ والتي يُمكن كلَّ واحد أن يفسرها وفق ما يرجو ، وقد قَصَّ أحد كُتَّاب ذلك الحين خبر تكوينها بعبارات جديدة بالنقل ، قال ذلك الكاتب :

« وَجَدَ الْجَذَرِيُّونَ أَنَّ الْجُمْهُورِيَّةَ الْمُوَحَّدةَ مَلَكيَّةٌ مُقنَّعة فرأى مجلسُ الكورتس أن يُرضيهم فأعلن الجمهورية الاتحادية بالإجماع من غير أن يَجْرُؤَ أحد من المصوِّتين على بيان ما يدلُّ عليه موضوع التصويت ، بيَّد أن هذه الصيغة سَحَرَت جميع الناس ، فكانت حُميًّا ، وكانت نَشْوةً ، والناسُ قالوا إن عهد الفضيلة والسعادة قد فُتِحَ في الأرض ، ويأبى خصم أحد الجمهوريين أن يُلقَّبَ هذا الجمهوريُّ بالاتحادى فيرى هذا الجمهوريُّ في ذلك سُبَّةً فظيعة ، وكان الناس

إذا ما تلاقوا في الشوارع سلم بعضهم على بعض بقوله : أَحْيَيْكَ بِتَحِيَّةِ الْجُمْهُورِيَّةِ
 الاتحادية ، ثم يبدأ بترتيل أناشيد الجُمُوح المُقَدَّس واستقلالِ الجندى ، وماذا كان
 معنى « الجُمهُورِيَّةِ الاتحادية » ؟ ذهب بعضهم إلى أنه يَعْنِي تَحَرُّرَ الولايات وقيامَ نظم
 على نمط نُظُم الولايات المتحدة أو اللامركزية الإدارية ، ورأى آخرون أن معنى ذلك هو
 إبطال كلِّ سلطة والبدء بالتصفية الاجتماعية الكبرى في أقرب وقت ، وكان اشتراكيو
 برشلونة والأندلس يَدْعُونَ إلى سيادة البلديات فيذهبون إلى قيام عشرة آلاف مدينة
 مستقلة في إسبانية غير منقادة لسوى نفسها ، وذلك مع إلغاء الجيش والشرطة ،
 والناس لم يلبثوا أن رأوا الفتنة قد اشتعلت في ولايات الجنوب فسَرتْ من مدينة
 إلى مدينة ومن قرية إلى قرية ، وكانت كلُّ بلدية إذا ما أعلنت استقلالها بدأت
 بتخريب أسلاك البرق والخطوط الحديدية قطعاً لكلِّ صلة بجاراتها وبمدير ، ولم
 تَكْدُ تَرَى كَوْرَةَ خَيْشَةَ لم تصنع لنفسها مطبخاً مستقلاً ، وهكذا فَسَحَ النظامُ
 الاتحادى مجالاً للنظام الإقطاعى الجائر الحارق القاتل ، وهكذا احتفل في كلِّ مكان
 بأعمال داعرة دامية .

وأما ضَعْفُ تأثير البراهين في روح الناضجين فلا يجمله سوى الذين لا علم لهم بما يقع
 في الاجتماعات الانتخابية حيث يتبادل الناسُ ضروبَ التوكيد والشتائم واللطمات
 لا العقولات ، وإذا ساد السُّكونُ ذاتَ ثانية فلأن أحدَ الحُضُورِ العُسرِ
 يُخْبِرُ بأنه سيضع للشرح سؤالاً من الأسئلة المُضْنِية التى يَسْرُ بها المستمعون على
 الدوام ، غير أن رِضا المعارضين لا يدوم زمناً طويلاً ، فلا تُعَمُّ نُبَاحاتُ مخالفى
 السائل أن تَخُنُقَ صَوْتَهُ ، ويمكن عَدُّ الأمر الآتى الذى أنقله من الجرائد اليومية من
 بين مئات الأمور الماثلة مثلاً للاجتماعات العامة ، وهو :

« ان الناظم قد رجا من الحاضرين أن يُعيِّنوا رئيساً ، فهَبَّت العاصفة ، وقَفَزَ الفوضويون إلى الميدان حتى يستولوا على المكتب عَنوَةً ، ويدافع الاشتراكيون عنه بعنف ، وكان اصطدامٌ ، وكان تنابُذٌ بالتجسسِ وبيعِ الضمائر إلخ . . . ويَخْرُجُ أحد الحُضُور من القاعة مخدوشَ العين .

« ويستقرُّ أمر المكتب في نهاية الأمر بين الشَّغَب وتتم الرئاسة للرفيق س .
« ويَحْمِلُ الخطيب على الاشتراكية بسرعة فيقاطعه هؤلاء بقولهم صاحبين :
« أنت أبله ! أنت لص ! أنت نذل ! » وما إلى ذلك من الأوصاف التي يجيب الرفيق س . . عنها بعَرَضِ نظرية قائلة إن الاشتراكيين من « الحَمَقَى » أو من « المَهَرَّجِينَ » .

« ... عَقَدَ الحزب الموالي لألمانية مساء أمس اجتماعاً عظيماً في قاعة التجارة الواقعة بشارع فوبورغ دوتانيل ، وذلك تمهيداً لعيد العمال في اليوم الأول من شهر مايو ، وكانت كلمة النظام فيه : « الهدوء والسكون » .

« ويَصِفُ الرفيق ج ... الاشتراكيين بالحَمَقَى والمخادعين .
« وما كادت تانك الكلمتان تَخْرُجَان من فيه حتى تبادل الخطباء والحُضُور الشَّتائم واشتركت الكراسى والمقاعد والموائد في الخصاص إلخ ، إلخ » .
ولا تَظُنُّ أن طراز النقاش ذلك خاصٌّ ببطقة مُعَيَّنة من الناحيين ، وأنه نتيجة مقام هذه الطبقة الاجتماعيَّة ، فالنقاشُ يكتسب ذلك الشكل بسهولة في جميع المجالس المُعَفَّلَة ، ولو كانت مؤلفةً من مثقفين فقط ، وقد أَثْبَتُ أن الناس في الجماعة يتماثلون في مزاجهم النفسيِّ ، ولدينا دليلٌ على ذلك في كلِّ حين ، وإليك ، مثلاً على ذلك ، نُبْذَةً مما وقع في اجتماع مؤلف من طلاب دون غيرهم .

« كان الهياج يزيد كلما أرخى الليل سُدُوْلَهُ ، ولا أعتقد أن خطيباً استطاع أن يقول جملتين من غير أن يُعْتَرَضَ له ، وكنتَ تسمع في كل ثانية صُراخاً يعلو من هنا أو هنالك أو من جميع الجهات ، وكنتَ تسمع هُتافاً ، وكنتَ تسمع صغيراً ، وكانت تَقَعُ بين جميع الحاضرين مناقشاتٌ عنيفة ، وكانت العِصْيُ تُهَزُّ مُهَدَّدَةً ، وكان الصُراخُ يُعَقِّبُ المقاطعين فيقال : « إلى الباب ! إلى المِنْبَر ! » .

« وَيَصِفُ مَسْيُوس . . الاجتماعَ بالقبيح والنذل والسيخ والساقط والمُلَوَّث واللاثيم ، ويُصَرِّح بأنه يريد تقويضه إلخ ، إلخ ... » .

وهنا يُسْأَل : كيف يُمَكِّن الناجِبَ أن يُكوِّن رأيه في مثل تلك الأحوال ؟ ولكنَّ وُضْعَ مثل هذا السؤال يعنى انخداعاً غريباً في مقدار ما تتمتع به الجماعة من الحرية ، فما لدى الجماعات من آراء فيكون مفروضاً عليها ، وليس عند الجماعات من آراء مُبَرَّهَنَةٍ ، وتظلُّ تلك الآراء وأصوات الناجِبين قبضةً اللجان الانتخابية التي يكون زعماءُها في الغالب من تجار الخمر الكثيري النفوذ لدى مَنْ يُبيعونهم بِنَسِئَةٍ من العمال ، قال أحد أنصار الديموقراطية المتقادم مسيو شيرير : « أتعلمون ما هي لَجَنَةُ الانتخابات ؟ إنها مفتاح نُظْمِنَا وأهمُّ جزء في جهازنا السياسي ، واللجان هي التي تهيم على فرنسا في الوقت الحاضر ^(١) » .

(١) يتألف من اللجان أشد ما في سلطان الجماعات من خطر مرهوب ، والجماعات هي ، بالحقيقة ، أكثر ما يكون عدم شخصية ، وهي أعظم وجوه الطغيان استبداداً ، والزعماء الذين يوجهون اللجان إذ يتكلمون ويسرون باسم زمرة تجددهم طليقين من كل مسؤولية فيبيعون لأنفسهم كل شيء ، وما كان ليدور في خلد أقمى الطغاة أن يصدر مثلما تصدره اللجان الثورية من أوامر السجن والقتل ، ومن قول باراس إنها قتلت واحداً من كل عشرة في مجلس العهد مقطعة أوصال هذا المجلس تقطيعاً منظماً ، وظل روبسبير سيداً مطلقاً ما استطاع أن يتكلم باسمها ، فلما انفصل عنها هذا الجبار المرهوب ، عن عجب ، كان ذلك نذير هلاكه ، والحق أن حكم الجماعات هو حكم اللجان ، ومن ثم حكم الزعماء ، ولا يعرف الإنسان استبداداً أشد منه .

ولا يصعب التأثير في اللجان مع ذلك ما دام المرشح مقبولاً وذا موارد كافية ، فقد اعترف المتبرعون أن ثلاثة ملايين فرنك كفت لانتخاب الجنرال بُولاً نجيهِه في دوائر كثيرة .

تلك هي روح الجماعات الانتخابية ، وهي ماثلة لروح الجماعات الأخرى ، وهي ليست بالأحسن منها ولا بالأردأ .

ولا أستنبط مما تقدم أية نتيجة ضد التصويت العام ، ولو فُوض إلى أن أقرر مصيره لأبقيته كما هو لأسباب عملية ناشئة عن بحثنا في روح الجماعات نعرضها بعد أن نذكر مساوئها .

إن مساوئ التصويت العام هي من الواضح مالا يجوز إنكارها معه ، ومما لا مرأ فيه أن الحضارات هي من صنع أناس قليلين من ذوى النفوس العالية تتألف منهم ذروة هرم تتسع طبقاته كلما نقصت القيمة الذهنية فتمثل هذه الطبقات طبقات الشعب البعيدة الغور ، ومما لا مرأ فيه أن عظمة الحضارة لا تنطاط بتصويت العناصر الدنيا التي لا تتم على غير العدد ، ومما لا مرأ فيه أيضاً أن تصويت الجماعات ذو خطر في الغالب ، فقد أوجب غزو الأجنبي لبلادنا عدّة مرات ، ولو تمّ النصر للاشتركية لكففتنا أهواء السيادة الشعبية ثمناً أعلى من ذلك بدرجات لا ريب .

بيد أن تلك الاعتراضات الوجهية نظرياً تفقد قوتها عملياً إذا ما ذكر ماللاً آراء التي تتحول إلى عقائد من سلطان قوى ، أجل ، إن العقيدة القائلة بسيادة الجماعات لا يدافع عنها فلسفياً كما أنه لا يدافع عن العقائد الدينية في القرون الوسطى ، غير أن لتلك العقيدة من القدرة المطلقة في أيامنا مثل ما كان لهذه العقائد في غابر الأزمان ، وتلك العقيدة لا تنهزم ، إذن ، كما تعذر مهاجمة عقائدنا الدينية فيما مضى ، ولنفترض

أن أحد أحرار الفكر يُنقل بقدرة سحرية إلى القرون الوسطى ، أفَتَظَنُّونَ أنه يحاول إذ ذاك مناهضة ما يكون أمامه من السلطان المطلق للمبادئ الدينية ؟ وهو إذا ما مثل أمام قاضٍ يريد حرقه لما عُزِيَ إليه من معاهدته الشيطان أو ملازمته مجتمع سَحَرَةٍ في الليل فهل يُفَكِّرُ أَنْثِدَ في الجِدالِ حَوْلَ وجود الشيطان أو وجود مجتمع سَحَرَةٍ في الليل ؟ ولا جِدالَ مع معتقدات الجماعات كما أنه لا جِدالَ مع العواصف ، وما لعقيدة التصويت العام من السلطان فيَعْدِلُ سلطانَ العقائد الدينية في الماضي ، ويذكرها الخطباء والكَتَّابُ بما لم يَعْرِفْهُ لويس الرابع عشر من الاحترام والتلق ، ويجب لذلك أن يُسارَ معها كما يُسارَ مع جميع العقائد الدينية ، والزمان وحده هو الذي يَعْمَلُ فيها عمله .

ومن غير المفيد محاولة زعزعة تلك العقيدة ما وُجِدَتْ أسباب ظاهرة تُؤَيِّدُها ، ومن الإصابة قول توكفيل : « لا يؤمن بعضُ الناس ببعض في أزمنة المساواة لتساوئهم ، غير أن هذا التشابه يمنحهم ثَقَّةً لاحدًا لها بحكم الجمهور تقريباً ، وذلك لأنهم لا يَرَوْنَ من المعتقد ألا تكون الحقيقة بجانب العدد الأكبر ، ومن هذا العدد أناسٌ تَسَاوَوْا بصيرةً » .

والآن أيجب أن يُفترض أن الانتخاب المقصور على أصحاب الأهليات يُصْلِحُ تصويت الجماعات ؟ لأَسَلِّمُ بهذا القول ثانية ، وذلك للأسباب التي ذكرتها فيما تقدم عن الانحطاط الذهني في الجماعات مهما كان تركيبها ، وتراني أَكْرَرُ قولي إن الناس في الجماعة يَتَسَاوَوْنَ على الدوام ، ولا يكون تصويتُ أعضاء الأكاديمية الأربعين في المسائل العامة أفضلَ من تصويت أربعين سَقَاءَ فيها ، ولا أعتقد أن أيَّ صوت من الأصوات التي وقع اللومُ عليها في الاقتراع العام لإعادة الإمبراطورية

مثلاً يختلف عما حَدَّث لو كان المَصَوِّتُونَ قد جُمِعُوا من رجال العلم والأدب فقط ، فلا يَمْنَحُ كَوْنُ الرجل عارفاً باليونانية أو الرياضيات أو كونه مِعْمارياً أو بَيْطاراً أو طبيباً أو محامياً هذا الرجلَ بصيرةً خاصة في المسائل العاطفية ، ومن المعلوم أن مُعْظَم رجال الاقتصاد عندنا من المثقفين والأساتذة وأعضاء الأكاديمية ، أفتَجِدْهُمْ متفقيين على مسألة عامة كنظام الحماية مثلاً ؟ ألا إن جميع الجهالات تتساوى أمام جميع المسائل الاجتماعية المملوءة بما لا حَدَّ له من المجهولات والتي يسيطر عليها المنطق الدينيُّ أو المنطق العاطفيُّ .

إذن ، لو كانت جماعة النابخين مؤلفة من أناس مُكْتَظِّين علماً ما كانت أصواتهم أحسنَ من أصوات النابخين في الوقت الحاضر ، وهم يهتدون على الخصوص بمشاعرهم وروح حزبهم ، ولا تزول بذلك واحدة من المصاعب الحاضرة ، ونعاني بذلك طغيان الطوائف الثقيلة لا ريب .

وتصويتُ الجماعات ، عاملاً كان أو محصوراً ، وجموريةً كانت البلاد التي تقول به أو ملكيةً ، وفي فرنسا طُبِّقَ أو في بلجيكة أو في بلاد اليونان أو في البرتغال أو في إسبانية ، تَجِدْهُ متشابهاً في كلِّ مكان ، وهو يُعَبِّرُ في الغالب عن آمال العِرْق واحتياجاته تعبيراً لاشعورياً ، ومُعَدِّلُ النابخين المتوسط في كلِّ أمة يَنِمُّ على المُعَدِّل المتوسط لروح عِرْقها ، ويكاد هذا المُعَدِّل يكون واحداً في الجيل بعد الجيل . وهكذا نعود مرةً أخرى إلى ذلك المبدأ الأساسي : إلى مبدأ العِرْق الذي لا قَيْنَاه في الغالب ، وإلى المبدأ الآخر المشتقَّ من الأول والقاتل إن شأن النُظْم والحكومات في حياة الأمم ضعيفٌ إلى الغاية ، والأممُ مُسَيَّرَةٌ بروح عِرْقها على الخصوص ، أي بالرواسب الموروثة التي تتألف تلك الروح من مجموعها ، والشعبُ وشبكةُ الضرورات اليومية هما السيدان الخَفِيَّان اللذان يهيمنان على مصيرنا .

الفصل الخامس

المجالس البرلمانية

الجماعات البرلمانية تمثل معظم الصفات المشتركة بين الجماعات المتباينة غير المغفلة — سذاجة الآراء — قابلية التلقن وحدود هذه الغالبية — الآراء الثابتة والآراء المتحولة — السبب في أن التردد هو الغالب — شأن الزعماء — سبب نفوذهم — هم السادة الحقيقيون للمجالس التي تكون الأصوات فيها أصوات أقلية صغيرة — ما يمارسونه من السلطان المطلق — عناصر قنهم الخطابي — الألفاظ والصور — الضرورة النفسية تقضى بأن يكون الزعماء من المؤمنين القصيرى البصر على العموم — يتعذر على الخطيب بلا نفوذ أن يحمل الآخرين على قبول براهينه — غلو المشاعر الطيبة أو السيئة في المجالس — آلياتها في بعض الأحيان — جلسات مجلس العهد — الأحوال التي تفقد المجالس فيها صفات الجماعات — تأثير التخصيص في المسائل الفنية — محاسن النظام البرلماني ومساوئه في جميع البلدان — هو ملائم لاحتياجات العصر الحاضر ، ولكنه يؤدي إلى تبذير الأموال وتضييق جميع الحريات بالتدريج — خلاصة الكتاب .

المجالس البرلمانية تمثل الجماعات المتباينة غير المغفلة ، وهذه المجالس تتشابه كثيراً بأوصافها على ما في جمعها من اختلاف بحسب الأزمنة والأمم ، وهناك يبدو تأثير العرق في تخفيف تلك الصفات أو إفراطها ، لا في منع ظهورها ، وتجدر كبير شبهة بين مناقشات المجالس البرلمانية وتصويتها في أشد البلدان اختلافاً كمجالس بلاد اليونان وإيطالية والبرتغال وإسبانية وفرنسة وأمريكة ، وتماثل المصاعب التي تلاقيها الحكومات في هذه البلدان .

والنظام البرلماني هو مع ذلك خلاصة خيال الأمم المتقدمة الحديثة ، وهو يعبر

عن الفكر الخاطئ نفسياً والمُسَلَّم به عموماً والقائل إن أناساً كثيرين إذا ما اجتمعوا غَدَوْا أقدر من أناس قليلين على إصدار قرار حكيم مستقل في موضوع ما .
وفي المجالس البرلمانية نجد الصفات العامة المميّزة للجماعات من بساطة الأفكار وسرعة الغضب وقابلية التلقن وغُلُوّ المشاعر ونفوذ الزعماء الكبير ، بيد أن تركيب الجماعات البرلمانية الخاصّ يوجب اتصافها ببعض الفروق ، وهذا ما ننصّ عليه بعد قليل .

وبساطة الآراء هي من أبرز صفات الجماعات البرلمانية، وتجد لدى جميع الأحزاب في الأمم اللاتينية على الخصوص ميلاً ثابتاً إلى حلّ أشدّ المُعضلات الاجتماعية تعقّداً بأشدّ المبادئ المُجرّدة بساطةً وبقوانين عامة يُرى تطبيقها على جميع الأحوال ، ومن الطبيعي أن تختلف المبادئ باختلاف الأحزاب ، ولكن وجود الأفراد في جماعة يحفّز هؤلاء الأفراد دوماً إلى المغالاة في قيمة تلك المبادئ والذهاب إلى أقصى ما تؤدّي إليه من النتائج ، والبرلمانات أيضاً تُمثّل الآراء المتطرفة بوجه خاصّ .

وأكملُ مثال على بساطة المجالس مما حقّقه يعاقبة ثورتنا الكبرى، فاليعاقبة كلُّهم إذ كانوا من النظريين والمناطقية ، وأدمغتهم إذ كانت مشحونة بالكليّات المهمة ، صرّفوا همهم إلى تطبيق المبادئ المقرّرة غير مباليين بالحوادث ، فكان من الصواب أن قيل إنهم جاوزوا الثورة الفرنسية من غير أن يروّوها ، وهم لما كان لديهم من قليلٍ معتقداتٍ خبيّلةٍ إليهم تجديد المجتمع بأسره والرجوعُ بالحضارة إلى الطور الذي هو أقدم من دور التطور الاجتماعيِّ بمراحل ، وهم قد وجَدَ ما عندهم من الوسائل لتحقيق هذا الخيال مصطبغاً بصبغة البساطة المطلقة أيضاً ، وهم قد اقتصروا بالحقيقة على

تقويض جميع العوائق التي كانت تُزعجهم بعنف ، على أن الجميع ، من جيرُونديين ومُونتانيار وترَمِيدُوريين إلخ ، كان مُشَبَّعاً من تلك الروح .

والجماعات البرلمانية شديدة التَلَقُّن ، والتأمين يصدر عن الزعماء النافذين كما في كلِّ وقت ، غير أنك تَرَى لقابلية التَلَقُّن في المجالس البرلمانية حدوداً شديدة الوضوح جديرة بالذكر .

تَجِدُ لدى كلِّ عضو من أعضاء المجلس آراءً مقرَّرةً في المسائل المحلية فلا يزعمها أياً برهان كان ، وما كانت مواهب ديمُوسْتين لو بُعِثَ لِتُغَيِّرَ صوت نائب في بعض المسائل التي تُعَبَّرُ عن رَغَبَاتِ الناخبين النافذين كنظام الحماية أو امتياز مُقَطَّرِي المُسْكَرَات ، فما صَدَرَ عن هؤلاء الناخبين من تلقين سابق هو من القوة ما يوجب إبطالَ عملِ كلِّ تلقينٍ آخَرَ وما يؤدي إلى ثبات مطلق في الرأي^(١) .

ويتوارى ثبات الرأي في المسائل العامة كإسقاط وزارةٍ أو تقريرِ ضريبةٍ إلخ ، ويكون لتلقيّنات الزعماء تأثير ، ولكنَّ هذا لا يَحْدُثُ كما في الجماعة العادية من كلِّ وجه ، فلكلِّ حزب زعماءه الذين يمارسون نفوذاً متساوياً في بعض الأحيان ، فتجاذبُ النائبَ تلقيّناتٌ متناقضةٌ لهذا السبب فيغدو كثيرَ التردد حتماً ، ومن ذلك أنك ترى في الغالب اقتراحاً متهادماً في ربع ساعة بإضافة مادة إلى القانون المسنون ناقضةٌ له ، كأنَّ يُوضَعَ قانونٌ يُحَرِّمُ على أرباب الصناعات اختيارَ العمَّال وتسريحهم وأن يُبلغى هذا الحكم بتعديل لاحق .

(١) لا مرأى في أن ملاحظة أحد أعضاء البرلمان الإنكليزي الآتية تطبق على تلك الآراء المقررة سابقاً فتغدو ثابتة بفعل الضرورات الانتخابية ، قال ذلك العضو القديم : « ترأى في الحسين سنة التي قضيتها في وستمنستر قد سمعت ألوف الخطب فيغير القليل منها رأياً ، ولكن واحدة منها لم تغير صوتي » .

وبذلك نُفسر سبب إبداء المجلس في كلِّ دَوْرَة اشتراعية آراء كثيرة الثبات وأخرى كثيرة التقلب ، وإذا نظرت إلى الأساس وَجَدْتَ التقلب يسود المسائل العامة لكثرتها وَوَجَدْتَ أن الخوف من الناخب هو الذي يُمنى ذلك التقلب ، فللناخب تلقينٌ خفيٌّ ينتهي إلى موازنة نفوذ الزعماء على الدوام .

والزعماء مع ذلك هم السادة الحقيقيون في المناقشات التي لا يكون لأعضاء المجلس فيها آراء مُقرَّرة من قَبْل .

وضرورة الزعماء أمرٌ واضح ما دمنا نجدُهم في جميع البلدان حاملين لاسم رؤساء الأحزاب ، وأولئك الزعماء هم سادة المجالس الحقيقية ، ولا غُنية للناس في الجماعة عن سيّد ، ولهذا لا تُمثل أصواتُ المجالس غير آراء أقلية صغيرة على العموم .
وأعودُ فأقول إن من القليل أن يُؤثّر الزعماء ببراهينهم وإن من الكثير أن يُؤثّروا بنفوذهم ، والزعماء إذا ما جُرّدوا من نفوذهم بفعل إحدى الأحوال أصبحوا غير مؤثّرين .

ونفوذ الزعماء شخصيٌّ ، وهو لا يرتبط في الاسم ولا في الشهرة ، وقد تكلم مسيو جُول سيمون عن أكابر الرجال في مجلس سنة ١٨٤٨ الذي كان عضواً فيه فأتى بأمثلة طريفة على ذلك ، قال جُول سيمون :

« لم يكن لويس نابليون شيئاً مذكوراً قبل أن يصبح صاحب الحكم .
« وصعد فيكتور هوغو المنبر فلم يُكتب له نجاح ، وقد استُمع إليه كما كان يُستمع إلى فيليكس بايا ، ولم يُهتَف له مثله ، ومن قول فُولَايِل لي ، وذلك حين حديثه عن فيليكس بايا : « إنني لا أُحبُّ أفكاره ، ولكنه من أعظم كتّاب فرنسا وأكبر خطبائها » ، ولم يكن لدى النفس القوية النادرة إدغار كينه شأنٌ يُذكر ،

وإدغار كينه هذا أتى عليه حين كان فيه ذا حُظوة لدى الشعب قبل افتتاح المجلس ، فلما دخل هذا المجلس لم يَبْقَ له شيء من ذلك .

« والمجالسُ السياسية هي بُقعةُ الأرض التي يَضَعُفُ الشعور فيها بنور العبقريّة أكثر مما في سواها ، وفي المجالس السياسية لا يُبَالَى بغير البلاغة الملائمة لمقتضى الزمان والمكان وبغير الخِدَم التي تُؤدّي إلى الأحزاب ، لا إلى الوطن ، وما حَدَثَ من تَحِيّةٍ للاماريّين في سنة ١٨٤٨ ولتِيَارٍ في سنة ١٨٧١ فكان وليدَ المصلحة المِلْحَةِ الشديدة ، فبعد أن زال الخطر شُفِيَ من الشُّكران والفرّاع معاً » .

نقلتُ ذلك القولَ لما اشتمل عليه من وقائع ، لا من أجل ما احتواه من شروح هزيلة نفسياً ، والجماعةُ إذا ما عَرَفَت للزعماء ما قَدَّموه من الخِدَم إلى الوطن أو إلى الأحزاب فَقَدَت صِفَةَ الجماعة ، فالجماعة تعاني نفوذَ الزعيم من غير أن يَدْخُلَ في سلوكها ذلك أيُّ حساب لمنفعةٍ أو معروف .

والزعيمُ إذا كان ذا نفوذٍ كافٍ تَمَتَّعَ بسُلطان مطلق تقريباً ، وليس بمجهولٍ أمرُ ذلك التأثير العظيم الذي زاوَلَه نائب مشهور في سنوات كثيرة بفضل نفوذه ثم خَسِرَه ، ذات حين ، على أثر بعض الحوادث المالية ، وقد كانت إشارةً بسيطةً منه تكفي لإسقاط الوزارات ، وإليك كيف أَوْضَحَ أحدُ الكتّاب مَدَى تأثيره في الأسطر الآتية :

« إننا مدينون لمسيوك ... باشتراء تُونُكِيْن بثلاثة أضعاف ما كانت تساويه ، وبأننا لم نَضَعْ في مدْعَشَقَر سَوى قدمٍ غير ثابتة ، وبأننا حُرِمْنَا إمبراطوريةً في نِيَجِرِ الأدنى ، وبأننا أضعنا مقامنا الممتازَ في مصرَ ، ألا إن نظرياتِ مسيوك ... أَفْقَدَتْنَا من الأملاك أكثر مما أَفْقَدَتْنَا إِيَّاهُ بلَايا نَاپِلِيُون الأول » .

ولا ينبغي لنا أن نُكثِر من لَوَم ذلك الزعيم ، فهو ، وإن كَلَفْنَا ثَمَنًا غَالِيًا كما هو واضح ، لم يَقم مُعْظَمُ نفوذه على غير اتِّباعه الرَّأْيَ العامَّ الذي لم يكن وَضْعُهُ تِجَاه الاستِعار كما هو عليه في هذه الأيام ، ومن النادر أن يَسْبِقُ الزعيمُ الرَّأْيَ العامَّ ، والزعيمُ يقتصر على اتِّحال أغلِيط الرَّأْي العام في الغالب .

ووسائلُ الإقناع التي يتخذها الزعماء بعد النفوذ هي العوامل التي أحصيناها آنفًا غير مرة ، والزعيمُ لكي يستعمل هذه الوسائلَ بِحَذَقٍ لا بُدَّ له من أن يَنفُذَ في روح الجماعات نفوذًا غير شعوريٍّ على الأقل ، وأن يَعْرِفَ كيف يَخاطبُها ، وأن يَعْلَمَ على الخصوص ما للألفاظ والصِّيغ والصُّور من تأثير ساحر ، ولا بُدَّ له من أن يكون قابضًا على ناصية فصاحةٍ خاصة مؤلفة من توكيدات عنيفة وصُّور مؤثرة تحيط بها براهين مُجَمَّلة ، وفصاحةٌ من هذا الطراز مما يشاهد في جميع المجالس ، حتى في البرلمان الإنكليزي الذي هو أكثر المجالس اثَرًا .

قال الفيلسوف الإنكليزي مِينُ : « لا يمكننا أن نقرأ باستمرارٍ مباحثات مجلس النواب الذي تقوم جميع مناقشاته على تبادل الكليات الضعيفة والشخصيات الصائبة ، ولهذا النوع من الصِّيغ العامة تأثيرٌ كبير في خيال الديموقراطية الصَّرفة ، ومما يَسْهُل في كلِّ وقت أن تُحْمَلَ جماعةٌ على قبول طائفة من المزاعم العامة التي تُعْرَضُ بعبارات مؤثرة وإن لم تُحَقِّقْ قَطُّ ، وإن لم يُكْتَبْ لها أيُّ تحقيق في المستقبل على ما يحتمل . » ولا مبالغة في أهمية « العبارات المؤثرة » المذكورة آنفًا ، وقد أسهبنا غير مرة في بيان القدرة الخاصة للألفاظ والصِّيغ المنتخبة التي تثير صوراً مؤثرة ، والجملة الآتية التي نقطفها من خُطبة زعيم في المجالس هي نموذجٌ حسن لذلك :

« يومَ تَنقُلُ السفينة الواحدة إلى أرض المَنَى الحُمَيَّة مُحْتَرِفَ السياسة

المُريبَ والفوضىَّ السفالكَ تبصرها يتحادثان فيكونان مظهرين مُتَمِّينَ لنظام اجتماعي واحد .

والصورةُ التي أُثيرت على ذلك الوجه واضحةٌ جالبةٌ للنظر ، وقد شَعَرَ جميعُ خصوم الخطيب بأنهم مُهدَّدون بها ، فأبصروا من قُوَّتهم البلادَ الحُمَيَّةَ والسفينة التي قد تنقلهم إليها ، وذلك لأنهم من محترفي السياسة الذين لم تُحدِّدْ فِرَقَتهم ، وهم يَشْعُرُونَ بالخوفِ الأعمُّ الذي كان رجال العهد يَشْعُرُونَ به ، أي الرجالُ الذين كانت المِقْصَلَةُ تُهدِّدُ رقابَهُم بفعل خطب رُوسِيسير المهمة فيذعنون له عن خوف على الدوام .

ومن مصلحة الزعماء أن يأتوا بمبالغات لا يُصدِّقها العقل ، وقد استطاع الخطيب الذي استشهدتُ بعبارة الآفة الذكر أن يُوَكِّدَ من غير أن يُثيرَ كبيرَ احتجاجات أن أرباب المصارف والقسوس كانوا يَسْتَأْجِرُونَ قاذفي القنابل وأن مديري الشركات الكبرى السالية يستحقون مثلَ عقوبات الفوضويين ، فوسائلُ مثل هذه مما يُؤثِّرُ في الجماعات دَوِّماً ، وليس التوكيد تطرُّفاً ، وليس التقرُّيع تهديداً ، ولا شيء يُرْهَبُ السامعين مثلُهما مع ذلك ، والسامعون يَخْشَوْنَ أن يُعَدَّوْا من الخائنين أو من الشركاء في الذنب إذا ما احتجوا على ذلك .

وتلك البلاغة الخاصة قد سيطرت على جميع المجالس كما قلتُ منذ هُتَيْهَة ، وهي تشدُّ في الأدوار الحَرِجَة ، ولنا في مطالعة خطب كبار الخطباء أيام الثورة الفرنسية فوائدٌ كثيرةٌ من هذه الناحية ، وهؤلاء كانوا يَرَوْنُ أن يقطعوا كلامهم في كلِّ ثانية تشجيعاً للجُرمِ وتعظيماً للفضيلة ، ثم كانوا يَصُبُّونَ اللَّعْنَاتِ على الطُّغَاةِ وَيُقْسِمُونَ على العيش أحراراً أو يموتوا ، وكان الحُضُورُ يَقِفُونَ وَيُصَفِّقُونَ هائجين ، فإذا ما هَدَّوْا جَلَسُوا .

وقد يكون الزعيم ذكياً متعلماً في بعض الأحيان ، ولكن ضرر هذا يكون أكبر من نفعه له على العموم ، وذلك لأن الذكاء بإثباته تعقّد الأمور وقبوله الإيضاح والتفهم يؤدي إلى التسامح ويثلم ما هو ضروري للرسالة من حدة العقائد وشِدَّتِها ، وكان كبار الزعماء في كلِّ جيل ، ولا سيما زعماء الثورة الفرنسية ، محدودى العقل وكانوا ذوي تأثير بالغ مع ذلك .

وانظرُ إلى خطب رُوسبير الذى كان أشهرهم تقع في حيرة من عدم ارتباطها ، وأنت حين تقرأها لا تجد فيها إيضاحاً شافياً لما اتفق لهذا الجبار القوى من شأن عريض .

« هي مواردُ مطروقةٌ وشَقَشَقَةٌ فصاحةٌ تعليميةٌ وثرثرةٌ ثقافيةٌ لانيئية اتخذتها نفسٌ طفليّةٌ ساذجةٌ يلوح أنها تقتصر على الهجوم أو الدفاع على قول التلاميذ : « هلمَّ إلى إذن ! » ، هي عاطلةٌ من الفكر والتدبير ، هي لا تؤن لها ، هي فجّرةٌ في زوبعة ، والقارىء إذا ما فرغ منها فقل مضطراً كما كان يفعل الرجل الأنيس كاميل ديمولان فقال : أف ! » .

ومن المفزع أن يُفكّر في القوة التي يمينُ بها الاعتقاد القوى الممزوج بضعف العقل على الرجل ذى النفوذ ، وهذه الأحوالُ ضروريةٌ مع ذلك للاستهانة بالعوائق ومضاء العزيمة ، والجماعات تُعرّف بالفريزة من تحتاج إليهم من السادة في أولئك المؤمنين الصارمين .

ونجاح الخطبة في المجلس البرلماني رهينُ بنفوذ الخطيب وحده تقريباً ، لا بالأدلة التي يُدلى بها .

ولا حَظٌّ للخطيب المجهول الذي يأتي بِخُطْبَةٍ مملوءة بأحسن البراهين ، وبالبراهين فقط ، في أن يُضَعَى إليه على الأقل ، وإليك كيف يَصِفُ النائب السابق مسيو ديكوب حالَ المُشترع العاقل من النفوذ في الأسطر الآتية :

« إذا ما استوى ذلك المُشترعُ على المنبر أخرج من محفظته إضبارةً وبسطها أمامه مُرتَّبَةً وبدأ مطمئناً .

« هو يُعَلِّلُ نفسه بأن يُدْخِلَ إلى روح السامعين ما يَجِيش في صدره من الاعتقاد ، هو قد وَزَنَ براهينه غير مرة ، هو قد أَتَخِمَ بالأرقام والأدلة ، هو واثقٌ بأن يكون الحقُّ في جانبه ، هو يرى أن كلَّ معارضة أمام بيانه الساطع لا تُجْدِي نفعاً ، هو يبدأ معتمداً على صواب قوله وعلى نِيَّةِ زملائه الذين لا يطلبون غير الركوع أمام الحقيقة .

« هو يَتَكَلَّمُ ، ولُسُرْ عان ما تأخذه الدهشة من اضطراب القاعة ومن الضجة المزعجة التي تتصاعد ، وكيف لا يسود السكون ؟ وما هو السبب في هذا الإعراض العام ؟ وفيمْ يُفَكِّرُ أولئك الذين يتحداثون فيما بينهم ؟ وما هو الحافز السريع الذي يَحْمِلُ ذلك النائبَ على مغادرة مكانه ؟

« ويعلو القلقُ جبينه ويُقَطِّبُ وَيَسْكُتُ ، وَيُشَجِّعُ الرئيسُ فيعود إلى الكلام بصوتٍ عالٍ ، ويزيد عدم الاستماع إليه فيعلو صوته وَيَضْطَرِبُ ، ويزيد الضوضاء حَوَلةً ، فلا يَسْمَعُ صوت نفسه ويسكت مرةً أخرى ، ثم يخشى أن يؤدي صَمْتُهُ إلى المطالبة بالإقفال فيعود إلى الكلام فيغدو الصَّخَبُ أمراً لا يُطَاقُ .

والجالسُ البرلمانية إذا بلغت درجةً مُعَيَّنة من الهياج أصبحت مماثلة للجماعات المتباينة العادية ، فَأَصَفَّتْ مشاعرها بالتطرف ، وهناك تنطلق إلى أعمال البطولة أو

إلى أسوأ المظالم ، وهناك لا يكون الفرد هو إياه فيوافق على أشدّ التدابير مناقضة لمصالحه الشخصية .

ويدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على درجة ما تبلغه المجالس من عدم الشعور ومن معاناة التلقينات المناقضة لمصالحها ، ومن ذلك أن من التضحيات العظيمة ما كان من تنزّل الأشراف عن امتيازاتهم غير مُتردّدين في ليلة المجلس التأسيسي الشهيرة ، ومن ذلك أن مما كان يهدّد رجال مجلس العهد بالموت تنزّلهم عن حصّاتهم وأنهم تنزّلوا عنها بالفعل غير خائفين من إبادة بعضهم لبعض ، وذلك مع علمهم أن الإعدام سيكون نصيبهم في الغد كما هو نصيب زملائهم الآن ، وهم ، وقد بلغوا تلك الدرجة من الآليّة التامة التي وصفتها فيما تقدم ، لم يحلّ أيّ عامل دون إذعانهم للتلقينات التي كانت تُنمّوهم ، ونرى العبارة الآتية التي تقتطفها من مذكرات أحدهم ، بلوفارين ، قاطعة في ذلك ، وتلك العبارة هي : « اننا في الغالب لم نكن لنريد المقرّرات التي نلام عليها قبل اتخاذها بيوم أو يومين ، وإنما الأزمة وحدّها هي التي كانت تفرّضها » ، فلا قول أكثر صواباً من هذا القول .

وقد تجلّت ظاهرات عدم الشعور عينيها في جميع جلّسات مجلس العهد الهاشجة ، قال تايين :

« لقد أجاز رجال مجلس العهد وسنّوا ما كانوا يكرهونه من الجرائم وقتل الأبرياء وسفك دماء الأصدقاء فضلاً عن الجهالات والحقاقات ، وفي مجلس العهد انضمّ اليمين إلى الشمال فأجمع هذا المجلس وهو يهتف هتافاً شديداً على إرسال رئيسه الطبيعي وموجد الثورة الفرنسية وقائدها دانتون إلى المقصلة ، وفي مجلس العهد انضمّ اليمين

إلى الشمال فوافق هذا المجلس وهو يَهْتَفُ هُتَافاً شديداً على أسوأ مراسيم الحكومة الثورية ، وأجمع مجلسُ العهد ، وهو يَهْتَفُ هُتَافَ الإعجاب والحماسة ، وهو يُعَرِّبُ عن عظيم مَنِيْلِهِ إلى كُولُودِرَبُوا وكُونُون ورُوْبِسِير ، على تجديد انتخاب الحكومة السَّفَّاحَة تجديداً غريزياً مُكَرَّراً ، وعلى شَدَّ عَضْدِ هذه الحكومة التي كان السِّلِينُ (السهلُ) يَمَقُّمُهَا لأنها سَفَّاحَة والتي كان المُونْتَانُ (الجبلُ) يَمَقُّمُهَا لأنها كانت تَحْصِيده ، وهكذا أعان السِّلِينُ والمُونْتَانُ ، أى الأَكْثَرِيَّةُ والأَقْلِيَّةُ ، على انتحارها في نهاية الأمر ، وهكذا مَدَّ جميع مجلس العهد عُنْقَهُ في اليوم الثاني والعشرين من شهر يَرْيِرِيال (الشهر التاسع من السنة الجُمهُوريَّة) ، وهكذا مَدَّ مجلس العهد عُنْقَهُ أيضاً في الربع الأول من الساعة التي عَمَبَت خُطْبَةً رُوْبِسِير في اليوم الثامن من شهر تَرْمِيدُور (الشهر الحادى عشر من السنة الجُمهُوريَّة) .

وقد يبدو ذلك الوصف قائماً ، ولكنه صحيح على كل حال ، ومثلُ تلك الصفات ما تبديه المجالس البرلمانية التي مُهَيَّج وتُنَوِّم بما فيه الكفاية ، فتغدو هذه المجالس قطعاً متحرراً سائراً مع كلِّ دافع ، ومن أبرز الأوصاف ما وَصَفَ به مجلس سنة ١٨٤٨ عُضُوُّ البرلمان مَسِيو سِوُلُر الذي لا ريب في إيمانه الديموقراطى فأُنْقَلَهُ من المجلة الأدبية ، ففي هذا الوصف تَجِدُ جميع المشاعر المتطرفة التي ذَكَرْتُ وجودها في الجماعات ، وتَجِدُ ذلك الإفراط في التقلب الذي يُنْتَقَلُ به بين ثنائية وثانية إلى أشدَّ المشاعر اختلافاً ، قال مَسِيو سِوُلُر :

« أسفرت ضروب الانقسام والحسد والارتباب والثقة العمياء وما لا حَدَّ له من الآمال عن سَوِّقِ الحزب الجُمهُورىِّ إلى هلاكه ، وما كان يساوى سذاجة هذا

الحزب وسلامة نيته غير تحذره الشامل ، وهذا الحزب كان لا يفقه لشريعة الأمور ولا للنظام معنى ، وكان كالفلأح والوليد في المخاوف والأوهام ، فيتبارى ما في الرئيفي والصبي من السكون والجزع ومن القسوة والدعة ، وهذا هو شأن المزاج الذي لم يهذب والتربية التي لم توجد ، ولا يحيرها شيء ويقلقن من كل شيء ، وهما يرتعشان ويفزعان ويقدمان ويشجعان فيقتحجان النيران ، ولكنهما أمام الظل يرتدان .

« وهما لا يعرفان المعلولات ولا ما بين الأمور من علاقات ، وهما سريعان في الفتور سرعتهم في الحاسات ، وهما موضع كل دغر ، وهما في غلو أو هبوط ، ولا يكونان فيما يجب من مرتبة أو ما يناسب من منزلة ، وهما أمتع من الماء فينعكس عليهما جميع الألوان ، وتراهما في جميع الأشكال يبدوان ، فما رجاؤك في حكومة تقوم عليهما ؟ » .

ومن حسن الحظ أن كانت جميع الأوصاف التي ذكرنا وجودها في المجالس البرلمانية لا تبدو على الدوام ، وهذه المجالس لا تكون من الجماعات إلا في بعض الأوقات ، ويحافظ أفراد هذه المجالس على شخصياتهم في غير حالة ، فتكون القوانين الفنية التي تصدُر عنها صالحة ، أجل ، إن هذه القوانين الفنية يُعدها متخصص في سكون غرفته ، وإنها من عمل الفرد بالحقيقة ، لا من عمل المجالس ، وإنها أحسن القوانين بحكم الطبيعة ، وإن هذه القوانين لا تكون مُضرة إلا إذا تسرّبت فيها سلسلة من التعديلات السيئة فجعلتها من صنع الجماعة ، وإن عمل الجماعة أخط من عمل الشخص المنفرد دوماً وفي كل مكان ، وإن المتخصصين وحدهم هم الذين يُنفذون المجالس من اتخاذ ما هو مُشوّش من التدابير ، وإن هؤلاء المتخصصين

إذ يَغْدُونَ زعماءَ حينٍ لا تُؤَثَّرُ المجالسُ فيهم ، وهم يصبحون في المجالس من المؤثَّرين .

وعلى ما في سير المجالس البرلمانية من مصاعب كثيرة ترى هذه المجالس أحسن وسيلة وَجَدَتْهَا الأمم لتحكم نفسها بنفسها وللتخلص من زير الاستبداد الفردي ما استطاعت ، وتلك المجالس هي بالحقيقة مثالُ الحكومة الأقومُ لدى الفلاسفة والمفكرين والكتّاب والمتفنين والعلماء على الأقل ، أى لدى أولئك الذين يؤلِّقون ذُرَّةَ الحضارة .

ولا يتجلى في المجالس البرلمانية سوى خطرين ، وهما تبذيرُ الأموال الاقتسارى والتدرجُ إلى تقييد الحريات الفردية .

فأما الخطر الأول فهو نتيجة قسرية لمطالب الجماعات الانتخابية وعدم تبصرها ، وبيانُ الأمر أن عضواً في المجلس إذا ما اقترح اتخاذ قرار ملائم في الظاهر للمبادئ الديمقراطية ، كتعيين رواتب تقاعدٍ لجميع العمال وزيادة رواتب عمال الطرق والمعلمين إلخ ، لم يجزؤ النواب الآخرون ، وقد ساورهم الخوفُ من الناهيين ، أن يستخفوا بمصالح هؤلاء فيرفضوا التدبيرَ المقترح ، والنوابُ يعلمون على الخصوص أن ذلك يُثقلُ كاهل الميزانية ويوجب فرضَ ضرائب جديدة ، والنوابُ يتعذر عليهم مع ذلك أن يترددوا في الموافقة على ذلك ، والنوابُ بينما يُبصرون بُعد نتائج زيادة النفقات ولا يروون فيها ما يزعمهم شخصياً تجدهم يروون اقتراب اليوم الذى تظهر فيه نتائجُ الرفض ، أى اليوم الذى يُضطرُّون فيه إلى المُثول بين يدي الناخب .

وإلى تلك العلة الأولى في زيادة النفقات تضافُ علةٌ أخرى لا تقلُّ عنها تجبراً ،

وهي ضرورة منح النفقات ذات النفع المحلي المحض ، فلا يجوز لنا أن نريد ذلك لما تتم عليه من رغبات الناخبين أيضاً ، ولا يستطيع أي نائب أن ينال ما يحتاج إليه دائرته الانتخابية إلا إذا وافق على ما يديه زملاؤه من مطالب تعدل مطالبه. ^(١)

وأما ثاني الخطرين المذكورين آنفاً ، وهو تقييد الحريات القسري من قبل المجالس البرلمانية ، فأقل وضوحاً في الظاهر وأشد حقيقة في الواقع ، ومصدر هذا التقييد هو ما لا يخصه عدد من القوانين المحددة للحرية دوماً والتي لا تُبصر البرلمانات نتائجها إلا بصراً سيئاً بفعل روحها الساذجة التي تعتقد بها أنها مضطرة إلى الموافقة عليها .

(١) عرضت مجلة الإيكونوميست (الاقتصادي) في عددها الصادر في ٦ من أبريل سنة ١٨٩٥ عرضاً طريفاً مقدار ما تكلفه النفقات ذات النفع الانتخابي الخالص ، ولا سيما نفقات الخطوط الحديدية ، فذكرت أن ربط قرية لانغاي ، التي يسكنها ٣٠٠٠ شخص والتي تجثم على جبل ، ببوي يكلف الدولة ١٥ مليون فرنك ، وأن ربط قرية بومون التي يسكنها ٣٥٠٠ شخص بكاستل سارازان يكلف الدولة سبعة ملايين فرنك ، وأن ربط قرية أوس التي يسكنها ٥٢٣ شخصاً بقرية سيكس التي يسكنها ١٢٠٠ شخص يكلف الدولة سبعة ملايين فرنك ، وأن ربط براد بقرية أوليت التي يسكنها ٧٤٧ شخصاً يكلف الدولة ستة ملايين فرنك الخ ، وبلغ مقدار المال الذي صوت به لإنشاء خطوط حديدية في سنة ١٨٩٥ وحدها ٩٠ مليون فرنك ، مع عطل هذه الخطوط من أية فائدة للمصلحة العامة ، وهناك من النفقات التي أمثلها مقتضيات الانتخاب مالا يقل عن تلك أهمية ، ومن ذلك أن قانون تقاعد العمال سيكلف الدولة في كل سنة مالا يقل عن ١٦٥ مليون فرنك على حسب تقدير وزير المالية و ٨٠٠ مليون فرنك على حسب تقدير عضو الأكاديمية لروا بوليو ، فالاستمرار على زيادة مثل هذه النفقات يؤدي إلى الإفلاس حتماً ، وإلى مرحلة الإفلاس وصل كثير من البلاد الأوروبية كبلاد البرتغال واليونان وإسبانية وتركيا ، وكادت بلاد أوروبية أخرى تنهي إلى مثل ذلك ، وهل في هذا ما يدعو إلى الاهتمام وقد رضى الجمهور بالتدريج ، غير معترض ، بخذف أربعة أخماس الفوائد التي يجب على مختلف البلاد أن يدفعها ؟ ومن شأن هذه الإفلاسات الوثيقة لإعادة التوازن إلى ميزانياتها مؤقتاً ، وترى الحروب والاشتراكية والمنازعات الاقتصادية تهبطنا إلى مصائب كثيرة أخرى ، فعلينا أن نرضى في دور الانحلال العام الذي دخلناه بالعيش يوماً فيوماً غير مبالين كثيراً بالغد الذي يتفلق منا .

ولا مفرّ من هذا الخطر ، حتى إن إنكثارة نفسها لم تُوفّق للإفلات منه مع أنها تتمتع بأكمل نظام برلماني ومع أن النائب فيها أكثر النواب استقلالاً عن الناحيين ، ومما أثبتته هربرت سبنسر في كتاب قديم له أنه لا بدّ من أن يعقّب زيادة الحرية الظاهرة نقص في الحرية الحقيقية ، ويعود سبنسر في كتابه « الفرد والدولة » إلى هذا الموضوع فيُعرب عما في نفسه حول البرلمان الإنكليزي كما يأتي :

« سلك الاشتراع تلك السبيل منذ ذلك الدور ، وكثرت التدابير الاستبدادية بسرعة فأدّت باستمرار إلى تقييد الحريات الفردية على وجهين وهما : أن أنظمة كثيرة تُوضَع في كل سنة فتفرض على ابن البلاد من الزواجر ما كان طليقاً منه طلاقاً تاماً فيما مضى ، وتكرّره على إنجاز أعمال كان يمكنه أن يقوم بها أو لا يقوم بها كما يشاء ، وأنه فرض من الضرائب العامة ، والضرائب المحلية على الخصوص ، ما يُثقل الكواهل شيئاً فشيئاً فيُقيّد حرية الفرد أكثر من قبل بتقليله مقدار مكاسبه التي يستطيع أن ينفقها كما يريد وبزيادته مقدار ما يؤخذ من هذه المكاسب ليُنْفَق وفق هوى الوكلاء العامّين » .

ويتجلى تقييد الحريات التدريجيّ ذلك في جميع البلدان على شكل خاص لم يُشر إليه هربرت سبنسر ، وهو أن زيادة التدابير الاشتراعية المقيّدة للحريات باطّراد تؤدي إلى زيادة عدد الموظفين المفوض إليهم أمر تطبيقها وإلى زيادة سلطان هؤلاء الموظفين ونفوذهم ، وهكذا يميل هؤلاء الموظفون إلى أن يكونوا سادة البلدان المتمدنة الحقيقيين ، ويتفاهم سلطان الموظفين بما يعتور الحكومات من تبديل مستمر ، والطائفة الإدارية ، وهي تتفلسف من تلك التغييرات ، تتصف بعدم المسؤولية وبعدم

الشخصية وبالديمومة ، والحق أنك لا تجد بين أنواع الاستبداد ما هو أثقل من الاستبداد الذي تجتمع فيه هذه الصفات الثلاث .

ويؤدّي سنّ القوانين والأنظمة المقيدة للحريات باستمرار ، والتي تحيط أدقّ شؤون الحياة بسياج من الشكليات البيزنطية ، إلى تضيق النطاق الذي يستطيع أبناء الوطن أن يسيروا ضمنه ، والأمم تُرضى بأثقل العوائق كلّ يوم حينما تذهب ضحية الوهم القائل إن كثرة القوانين تجعل المساواة والحرية في مأمن .

والأمم لا تُسلم بتلك العوائق من غير عقاب ، فهي بعد أن تتعود احتمال كلّ نيرٍ لم تُعتم أن تبحث عن الأنبار فتفقد بذلك كلّ مبادرة وكلّ نشاط ، وتغدو بذلك ظلالاً فارغة وآلاتٍ مُنفعة غير فاعلة ، وتصير بذلك عاطلة من الإرادة والصّلبة والقوة .

ولكن الإنسان إذا عاد لا يجد الحوافز في نفسه يبحث عنها في غيره ، وأهل البلاد إذا ما زاد عدم اكتراثهم وعدم قدرتهم عظم شأن حكوماتهم بحكم الضرورة ، وذلك لما يجب على هذه الحكومات إذ ذاك من انتحال ما أضاعه الأفراد من روح المبادرة والإقدام والعمل ولما تُضطر إليه من فعل كلّ شيء وإدارة كلّ شيء وتوجيه كلّ شيء ، وهنا لك تصبح الدولة إلهاً قادراً على كلّ شيء ، بيد أن التجربة تدلّ على أن قدرة مثل هذا الإله لا تدوم ولا تكون قوية أبداً .

ويظهر أن تقييد جميع الحريات التدريجيّ لدى بعض الأمم ، مع وهم الأمم في تمتعها بها ، ينشأ عن هَرَمها كما ينشأ عن أيّ نظام ، وذلك التقييد هو نذير الانحطاط الذي لم تسطع حضارة أن تتغلب منه حتى الآن .

وإذا ما نُظر إلى الأمر من ناحية معارف الماضي ومن جهة العلام التي تبدو من

كل مكان وُجِدَ أن حضارتنا الحديثة بلغت دور أقصى الهرم الذي يسبق الانحطاط ،
ويظهر أنه لا بُدَّ لجميع الأمم من أن تَرِدَ مَوْرِدَ بعض التطورات ما دمنا نرى
التاريخ يُكَرِّرُ مجراها في الغالب .

ومن السهل أن نُبين بإيجاز وجوه تلك التطورات ، وبتلخيصها نختم هذا الكتاب :
إذا ما رَجَعْنَا البَصَرَ إلى العناصر الكبيرة في تكوين عظمة الحضارات التي
ظهرت قبل حضارتنا فماذا نرى ؟

نرى في فجر تلك الحضارات أخلاطاً من الناس قد جمعتهم مصادفات الهجرة
والمغازى والفتوحات ، ولم يكن ليُجمَعَ بين أولئك الناس المختلفين دماً ولغةً واعتقاداً
غير سلطةٍ رئيس لا تكاد تكون معترفاً بها ، وفي تلك الزمُر المختلطة تَجِدُ مافى
الجماعات من الصفات النفسية إلى أعلى حدٍّ ، أى تَجِدُ فيها الارتباطَ الموقت والبطولةَ
وضروب الضَّعْف والاندفاع والعُنف ، ولا تَجِدُ فيها شيئاً ثابتاً ، فهى أقوامٌ من البرابرة .
ثم أتمَّ الزمان عمله ، فكان لوحدة البيئة ولتكرار التوالد وضرورة العيش المشترك
تأثيرٌ بطيء ، وتبدأ زمرة الزمُر المتباينة تتمازج وتُوَلَّفُ عِرْقاً ، أى مجموعة ذات
صفات ومشاعرٍ مشتركةٍ تُثَبِّتُها الوراثة بالتدريج ، وتغدو الجماعة أمةً ويَحِينُ لهذه
الأمة أن تَخْرُجَ من طور الهمجية .

ومع ذلك لا تخرج الأمة من ذلك الطور إلا بنيلها مثلاً عالياً بعد جهود طويلة
واضطرابات مُكْرَّرة ومالا يُحصى من عَوْدٍ إلى بدء ، وليست طبيعةُ المثل الأعلى
بالذى يُهَيِّمُ ، فالمثل الأعلى يكفى لَمَنَحِ أفراد العِرْق الذين هم في دور التكوين وحدةً تامةً
من المشاعر والأفكار سواء أكان المثل الأعلى عبادة رومة أم قدرة آتينة أم نصر الله .
وهناك قد تظهر حضارة جديدة مع نظمها ومعتقداتها وفنونها ، وذلك بأن ينجذب

العِرْق إلى خياله فينال بالتدريج كلَّ ما يهبَّ النور والقوة والعظمة ، أَجَلْ ، يصبح العِرْق جماعةً في بعض الأوقات لا ريب ، بيد أنه يوجد خَلْفَ الصفات المتقلبة في الجماعات ذلك الأساسُ المتين ، أى روحُ العِرْق التى تُحدِّد تقلباتِ الأمة وتُنظِّم المصادفات .

والزمانُ بعد أن يُتمَّ عمله الإبداعيَّ يبدأ عمله التخريريَّ الذى لا يتقَلَّتْ منه الناسُ ولا الآلهة ، وبيانُ الأمر أن الحضارة إذا بلغت درجة من العظمة والتعقد عادت لاتنمو ، وهى إذا ما وقفَ نموُّها حُكْمَ عليها بالأفول السريع ، فلم تُعَمَّ ساعة الهرم أن تدُقَّ .

وآيةُ تلك الساعة هى ضَعْفُ المثل الأعلى الذى تستند إليه روح العِرْق ، وكلما ذوى هذا المثل الأعلى أخذت الصروح الدينية والسياسية والاجتماعية ترتجُّ .

والعِرْقُ إذا ما اضمحلَّ مثله الأعلى بالتدريج خسرَ عِلَّةَ التحامه ووحدته وقوته شيئاً فشيئاً ، والفردُ قد ينمو شخصيةً وذكاءً ، غير أن هذا يكون فى وقت يُستبدل فيه بأثرة العِرْق المشتركة كبيرُ نموٍّ فى الأثرة الفردية مع انحطاط فى الخلق ونقص فى القدرة على العمل ، ولا يُعَمَّ ما تتألف منه الأمة والوحدة والكتلة أن يصبح جَمْعُ أفرادٍ غير ملتحم فتُمسِكُه التقاليد والنظمُ إمساكاً مصنوعاً لزمَن قليل ، والناسُ متى فرَّقَتْ بينهم مصالحهم ورغباتهم ففقدوا عاجزين عن حُكْمِ أنفسهم بأنفسهم بحثوا عن يديرهم فى أدقِّ أعمالهم فتمارس الدولة إذ ذاك نفوذها المهم .

والعِرْقُ إذا فقدَ مثله الأعلى القديمَ فقد رُوِّحَه أيضاً ، فعاد نَقْعاً من الأفراد ورجع إلى ما كان عليه فى بدء أمره ، أى صار جماعةً ، وتجلَّتْ فيه جميع الصفات الموقته التى لا ثباتَ لها ولا مستقبل ، وهناك تصبح الحضارة عاطلةً من أى استقرار

وَتَقَعُ تَحْتَ رَحْمَةِ جَمِيعِ الْمَصَادِفَاتِ ، وَتَرَى الْعَامَّةَ مَلِكَةَ النَّاسِ وَتَرَى الْبَرَابِرَةَ
يَتَقَدَّمُونَ ، أَجَلٌ ، قَدْ تَبَدُّوا الْخِصَارَةَ سَاطِعَةً لَمَّا تُبْصِرُ مِنْ مَحَافِظَتِهَا عَلَى الْمَظْهَرِ الْخَارِجِيِّ
الَّذِي هُوَ وَلِيدُ مَاضٍ طَوِيلٍ ، بَيِّدٌ أَنْ هَذَا بِنَاءٌ نَخِرَ لَا يَدَّعِيهِ شَيْءٌ فَسِينَهَارٍ عِنْدَ
أَوَّلِ عَاصِفَةٍ .

فَانْتَقَالَ مِنَ الْمُهْمِجَةِ إِلَى الْخِصَارَةِ سَعِيًّا وَرَاءَ خِيَالٍ ، ثُمَّ هَبَّوْهُ فَمُوتٌ عِنْدَ خُسْرَانٍ
هَذَا الْخِيَالِ لِسُلْطَانِهِ ، ذَلِكَ هُوَ دَوْرُ حَيَاةِ الْأُمِّ .

الفهرس

مقدمة المترجم	(٧ - ١٠)
ديباجة المؤلف	(١١ - ١٥)

المقدمة

عصر الجماعات

تطور الجيل الحاضر - تحولات الحضارة العظيمة هي نتيجة تحولات في أفكار الأمم - الاعتقاد الحديث بقدرة الجماعات - تحويل هذا الاعتقاد لسياسة الدول التقليدية - كيف يحدث سلطان الجماعات الشعبية وكيف تمارس سلطتها - النتائج الضرورية لسلطة الجماعات - لا تستطيع الجماعات غير الهدم - الجماعات هي التي تم انحلال الحضارات الهرمة - الجهل العام لروح الجماعات - أهمية دراسة المشرعين وأقطاب السياسة للجماعات (١٧ - ٢٤)

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

الخصائص العامة للجماعات

سنة وحدتها النفسية

من أى شيء تتألف الجماعة نفسيًا - لا يكفي اجتماع أشخاص كثيرين لتأليف جماعة - الصفات الخاصة للجماعات النفسية - اتجاه أفكار الأفراد الذين تتألف الجماعات منهم ومشاعر هؤلاء الأفراد وتلاشي شخصيتهم -

يسيطر اللاشعور على الجماعة في كل وقت - انزواء الحياة الدماغية وهيمنة الحياة النخاعية - انحطاط الذكاء وتحول المشاعر تحولا تاماً - قد تكون المشاعر المتحولة أحسن من مشاعر الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة أو أسوأ منها - يسهل أن تكون الجماعة بأسلة كما يسهل أن تكون مجرمة . (٢٧ - ٣٥)

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات وأخلاقيها

(١) استعداد الجماعات للاندفاع والتقلب والغضب - الجماعة هي ألعوبة جميع المحرضات الخارجية وهي تردد صدى تقلب هذه المحرضات المستمر - إن ما تعانيه الجماعات من الاندفاعات هو من التجبر ما تزول معه المنفعة الشخصية - لاشيء في الجماعة يصدر عن التأمل - تأثير العرق - (٢) استعداد الجماعات للتلقن والتصديق - إذعانها للتلقين - تعد الجماعات من الحقائق مايلقى في روعها من الصور - كيف تكون هذه الصور متماثلة لدى جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة - تساوى العالم والأباه في الجماعة - أمثلة مختلفة من الأوهام التي يكون أفراد الجماعة عرضة لها - تعذر الاعتماد على شهادة الجماعات - إجماع كثير من الشهود من أسوأ الأدلة على إثبات أمر - ضعف قيمة كتب التاريخ - (٣) غلو مشاعر الجماعات وبساطتها - الجماعات لا تعرف الشك ولا التردد ، وهي تذهب إلى التطرف على الدوام - الجماعات مفرطة في مشاعرها على الدوام - (٤) عدم تسامح الجماعات وتحكمها ومحافظتها - أسباب هذه المشاعر - ندالة الجماعات أمام السلطة القوية - لا تمنع الغرائز الثورية الموقنة في الجماعات من أن تكون هذه الجماعات محافظة إلى الغاية - الجماعات ذات غرائز معادية للتغيير والرفق - (٥) أخلاق الجماعات - أخلاق الجماعات قد تكون أحط من أخلاق أفرادها أو أعلى من هذه الأخلاق بحسب التلقين - إيضاح وأمثلة - من النادر أن تكون المنفعة ، التي هي المحرك الوحيد للشخص المنفرد ، رائداً للجماعات - شأن الجماعات في تهذيب الأخلاق . (٣٧ - ٥٦)

الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعلقاتها وخيالها

(١) أفكار الجماعات - الأفكار الأساسية والأفكار التابعة - كيف تجتمع الأفكار المتناقضة - ما يجب أن يعثور الأفكار العالية من التحول لتستمرها الجماعات - شأن الأفكار الاجتماعية مستقل عما تنطوي عليه هذه الأفكار من الحقائق - (٢) تعقل الجماعات - لا تتأثر الجماعات بالمعقولات - تعقل الجماعات منحط كثير أعلى الدوام - ما تشترك فيه الجماعات من الأفكار لا يتشابه ولا يتوارد إلا في الظاهر - (٣) خيال الجماعات - قوة خيال الجماعات - تفكر الجماعات بالخيالات ، وتوارد هذه الخيالات بغير رابطة - ناحية الأمور الباهرة هي التي تبهر الجماعات على الخصوص - الباهر والأسطوري هما ركنا الحضارات الحقيقيان - الخيال الشعبي كان أساس سلطان رجال السياسة على الدوام - كيف تبدو الأمور التي يمكنها أن تؤثر في خيال الجماعات (٥٧ - ٦٦)

الفصل الرابع

الأصبغة الدينية التي تصطبغ بها عقائد الجماعات

من أي شيء يتألف الشعور الديني - الشعور الديني مستقل عن عبادة الألوهية - مميزات الشعور الديني - قوة الاعتقادات التي تكتسب شكلاً دينياً - أمثلة مختلفة - الآلهة الشعبية لم تزل قط - الوجوه الجديدة التي تبعث بها - أصبغة الإلحاد الدينية - أهمية هذه المبادئ من الوجهة التاريخية - الإصلاح الديني ومذبة سان بارتلمى والهلوجية - جميع الحوادث المماثلة هي نتيجة المشاعر الدينية في الجماعات ، لا نتيجة إرادة أشخاص منفردين (٦٧ - ٧٢)

الباب الثانى

آراء الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وآرائها

العوامل التمهيدية لمعتقدات الجماعات - تفتح معتقدات الجماعات هو نتيجة نضج سابق - دراسة مختلف العوامل فى تلك المعتقدات - (١) العرق - ما للعرق من تأثير عظيم - العرق عنوان تلقينات الأجداد - (٢) التقاليد - التقاليد هى خلاصة روح العرق - ما للتقاليد من أهمية اجتماعية - التقاليد تصبح مضرة بعد أن كانت ضرورية - الجماعات هى أكثر المحافظين على الأفكار التقليدية عناداً - (٣) الزمان - الزمان يهيئ استقرار المعتقدات ثم يهيئ تقويضها - يمكن النظام أن ينبثق من الفوضى بفضل الزمان - (٤) النظم السياسية والاجتماعية - رأى الخاطى فى شأنها - تأثيرها ضعيف إلى الغاية - هى معلولات لا علل - لا تستطيع الأمم أن تختار النظم التى يلوح لها أنها خير من سواها - النظم عناوين تنطوى على أشد الأمور تبايناً - كيف توجد النظم - ضرورة بعض النظم الرديئة نظرياً لبعض الأمم كالنظم المركزية - (٥) التعليم والتربية - خطأ الأفكار الحالية فى تأثير التعليم لدى الجماعات - ما تشير إليه الإحصاءات - شأن التربية اللاتينية المفسد للأخلاق - النفوذ الذى يمكن أن يكون للتعليم - أمثلة عن أمم مختلفة . . . (٧٥ - ٩٣)

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى آراء الجماعات

(١) الصور والألفاظ والصيغ - قوة الكلمات مرتبطة فيما تثيره من الصور المستقلة عن معناها الحقيقى - تختلف هذه الصور باختلاف الأزمان

والعروق - بلى الكلمات - أمثلة مختلفة على تبدل معنى بعض الكلمات المستعملة تبدلاً عظيماً - الفائدة السياسية من إطلاق أسماء جديدة على أمور قديمة عندما تحدث الكلمات التي تدل على تلك الأمور أثراً سيئاً في الجماعات - اختلاف معنى الكلمات باختلاف العرق - اختلاف معنى كلمة الديمقراطية في أوربة وفي أمريكا - (٢) الأوهام - أهميتها - هي موجودة في أساس جميع الحضارات - ضرورتها الاجتماعية - الجماعات تفضل الأوهام على الحقائق في كل وقت - (٣) التجربة - التجربة وحدها هي التي يمكنها أن تحدث في روح الجماعات ما أصبح ضرورياً من الحقائق وأن تقضى على ما أصبح ضاراً منها - لا تكون التجربة مؤثرة إلا إذا كررت كثيراً - قيمة التجارب الضرورية في إقناع الجماعات - (٤) العقل - عدم تأثيره في الجماعات - لا يسيطر على الجماعات إلا بالتأثير في عواطفها اللاشعرة - شأن المنطق في التاريخ - الأسباب الخفية للحوادث التي لا يحتمل تصديقها . (٩٥ - ١٠٧)

الفصل الثالث

زعماء الجماعات وطرقهم في الإقناع

(١) زعماء الجماعات - احتياج الجماعة الغريزي إلى قائد تطيعه - روح الزعماء - هؤلاء الزعماء هم القادرون وحدهم على إيجاد إيمان وعلى وضع نظام للجماعات - استبداد الزعماء القسري - تقسيم الزعماء - شأن الإرادة - (٢) وسائل العمل لدى الزعماء - التوكيد والتكرار والعدوى - شأن كل واحد من هذه العوامل المختلفة - كيف تسرى العدوى من طبقات المجتمع الدنيا إلى طبقاته العليا - لا يلبث الرأي الشعبي أن يتقلب إلى رأى عام - (٣) النفوذ - تعريف النفوذ وتقسيمه - النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي - أمثلة مختلفة - كيف يزول النفوذ (١٠٩ - ١٢٧)

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وآرائها

(١) المعتقدات الثابتة - ثبات بعض المعتقدات العامة - هذه المعتقدات هي أدلاء الحضارة - صعوبة استئصالها - كيف يكون عدم التسامح فضيلة لدى الأمم - فساد المعتقدات العامة فلسفيًا لا يعوق انتشارها -

(٢) تقلب الآراء في الجماعات - تقلب الآراء التي لا تشتق من المعتقدات العامة - التقلبات الظاهرة في الأفكار والمعتقدات في أقل من قرن - الحدود الحقيقية لهذه التقلبات - العناصر التي تتغير - زوال المعتقدات العامة في الوقت الحاضر ، واطراد الآراء في التقلب بفعل شدة انتشار الصحافة في أيامنا - كيف تميل آراء الجماعات إلى عدم الاكتراث للموضوعات الكلية - عجز الحكومات عن توجيه الرأي كما في الماضي - تفتت الآراء في الوقت الحاضر يحول دون طغيانها (١٢٩ - ١٤٠)

الباب الثالث

تقسيم أنواع الجماعات ووصفها

الفصل الأول

تقسيم الجماعات

تقسيم الجماعات - (١) الجماعات المتباينة - كيف تختلف هذه الجماعات - تأثير العرق - تكون روح الجماعة ضعيفة بمقدار ما في روح العرق من قوة - تمثل روح العرق حال الحضارة وتمثل روح الجماعة حال الهمجية -

(٢) الجماعات المتجانسة - تقسيم الجماعات المتجانسة - الفرق والطوائف والطبقات (١٤٣ - ١٤٦)

الفصل الثاني

الجماعات الجارمة

الجماعات الجارمة - قد تكون الجماعة جارمة قانوناً ، لا نفسياً -
اللاشعور الصرف في أعمال الجماعات - أمثلة مختلفة - روح السبتمبريين -
تعلقهم وشعورهم ووحشيتهم وأخلاقهم (١٤٧ - ١٥١)

الفصل الثالث

مخلفو محكمة الجنايات

مخلفو محكمة الجنايات - صفات المخلفين العامة - يدل الإحصاء على أن
أحكامهم مستقلة عن تأليفهم - كيف يتأثر المخلفون - ضعف تأثير
البرهان - طرق الإقناع التي يتخذها المحامون المشهورون - طبيعة الجرائم
التي يبدو المخلفون أشداء أو متسامحين أمامها - فائدة نظام المخلفين والضرر
الذي ينجم عن استبدال نظام القضاة به (١٥٣ - ١٥٩)

الفصل الرابع

الجماعات الانتخابية

الصفات العامة للجماعات الانتخابية - كيف يقع إقناع هذه الجماعات -
الصفات التي يجب أن تكون في المرشح - ضرورة النفوذ - السبب في
قلة انتخاب العمال والفلاحين للمرشحين منهم - سلطان الألفاظ والصيغ
على الناخب - المظهر العام للمناقشات الانتخابية - كيف تتكون آراء الناخب -
سلطان اللجان - اللجان تمثل أشد صور الطغيان - لجان الثورة الفرنسية -
لا يمكن أن يستبدل بالتصويت العام شيء آخر مع ضعف قيمته النفسية -
السبب في تماثل الأصوات حتى عند قصر حق التصويت على طبقة معينة من
أبناء الوطن - معنى التصويت العام في جميع البلدان . . . (١٦١ - ١٦٩)

الفصل الخامس

المجالس البرلمانية

الجماعات البرلمانية تمثل معظم الصفات المشتركة بين الجماعات المتباينة غير المغفلة - سذاجة الآراء - قابلية التلقن وحدود هذه القابلية - الآراء الثابتة والآراء المتحولة - السبب في أن التردد هو الغالب - شأن الزعماء - سبب نفوذهم - هم السادة الحقيقيون للمجالس التي تكون الأصوات فيها أصوات أقلية صغيرة - ما يمارسونه من السلطان المطلق - عناصر فهم الخطابي - الألفاظ والصور - الضرورة النفسية تقضى بأن يكون الزعماء من المؤمنين القصيرى البصر على العموم - يتعذر على الخطيب بلا نفوذ أن يحمل الآخرين على قبول براهينه - غلو المشاعر الطيبة أو السيئة في المجالس - آليتها في بعض الأحيان - جلسات مجلس العهد - الأحوال التي تفقد المجالس فيها صفات الجماعات - تأثير المتخصصين في المسائل الفنية - محاسن النظام البرلماني ومساوئه في جميع البلدان - هو ملائم لا احتياجات العصر الحاضر ، ولكنه يؤدي إلى تبذير الأموال وتضييق جميع الحريات بالتدريج - خلاصة الكتاب (١٧١-١٨٩)

للأستاذ المترجم :

- | | |
|----------------------|---|
| للدكتور غوستاف لوبون | (١) حضارة العرب (طبعة ثانية) |
| » » » | (٢) حضارات الهند |
| » » » | (٣) روح الجماعات |
| » » » | (٤) السنن النفسية لتطور الأمم |
| » » » | (٥) روح التربية |
| » » » | (٦) حياة الحقائق |
| » » » | (٧) الآراء والمعتقدات (طبعة ثانية) |
| » » » | (٨) روح الثورات والثورة الفرنسية (طبعة ثانية) |
| » » » | (٩) روح الاشتراكية |
| » » » | (١٠) روح السياسة |
| » » » | (١١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى |
| لاميل لودفيغ ... | (١٢) بسمارك |
| » » » | (١٣) ناپليون |
| » » » | (١٤) ابن الإنسان |
| » » » | (١٥) الحياة والحب |
| لاميل درمنغم ... | (١٦) حياة محمد (طبعة ثانية) |
| لسيديو | (١٧) تاريخ العرب العام |
| لايسمن | (١٨) أصول الحقوق الدستورية |

(1) ... (2) ... (3) ...

(4) ...

(5) ...

(6) ...

(7) ...

(8) ...

(9) ...

(10) ...

(11) ...

(12) ...

(13) ...

(14) ...

(15) ...

(16) ...

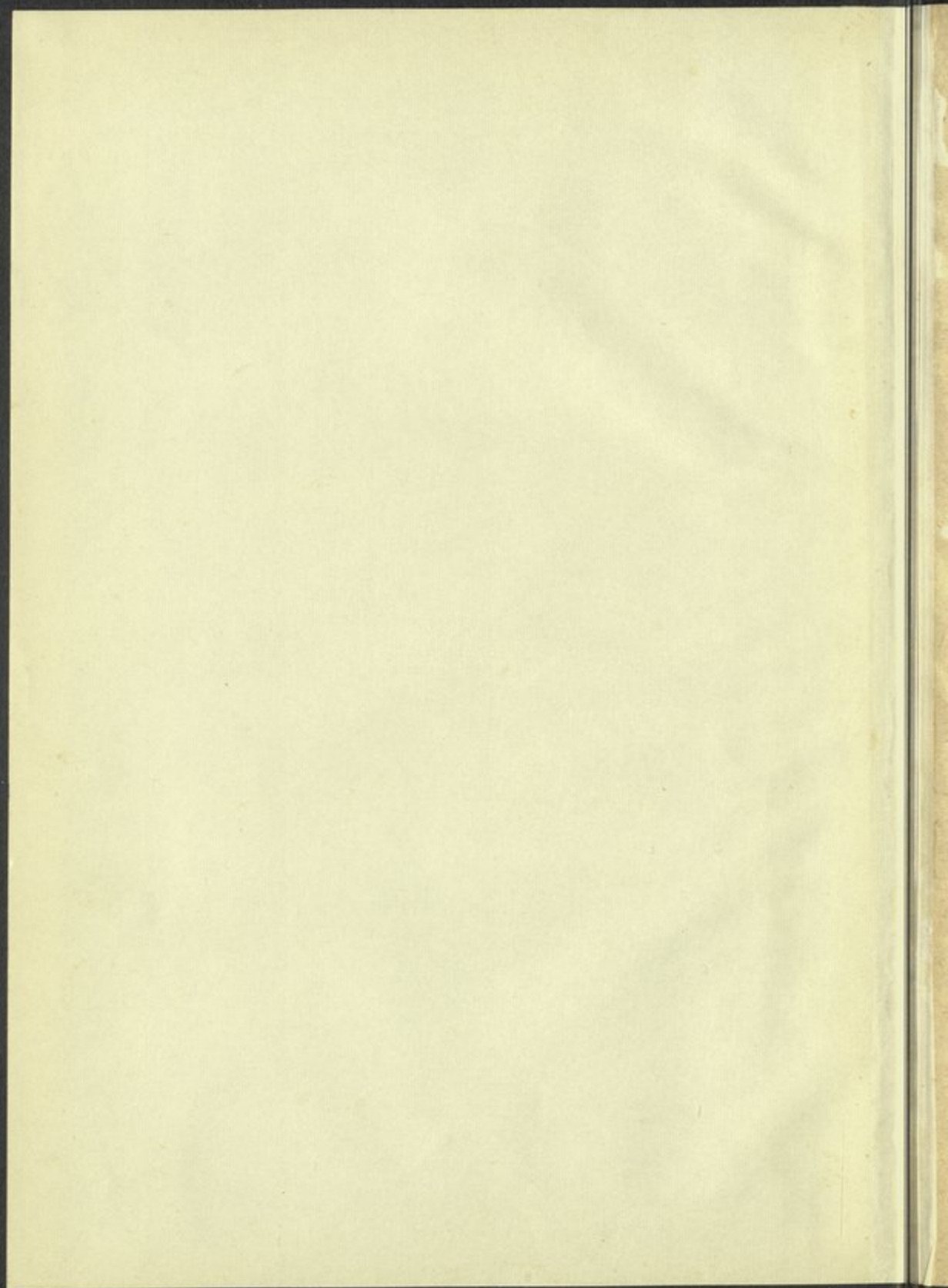
(17) ...

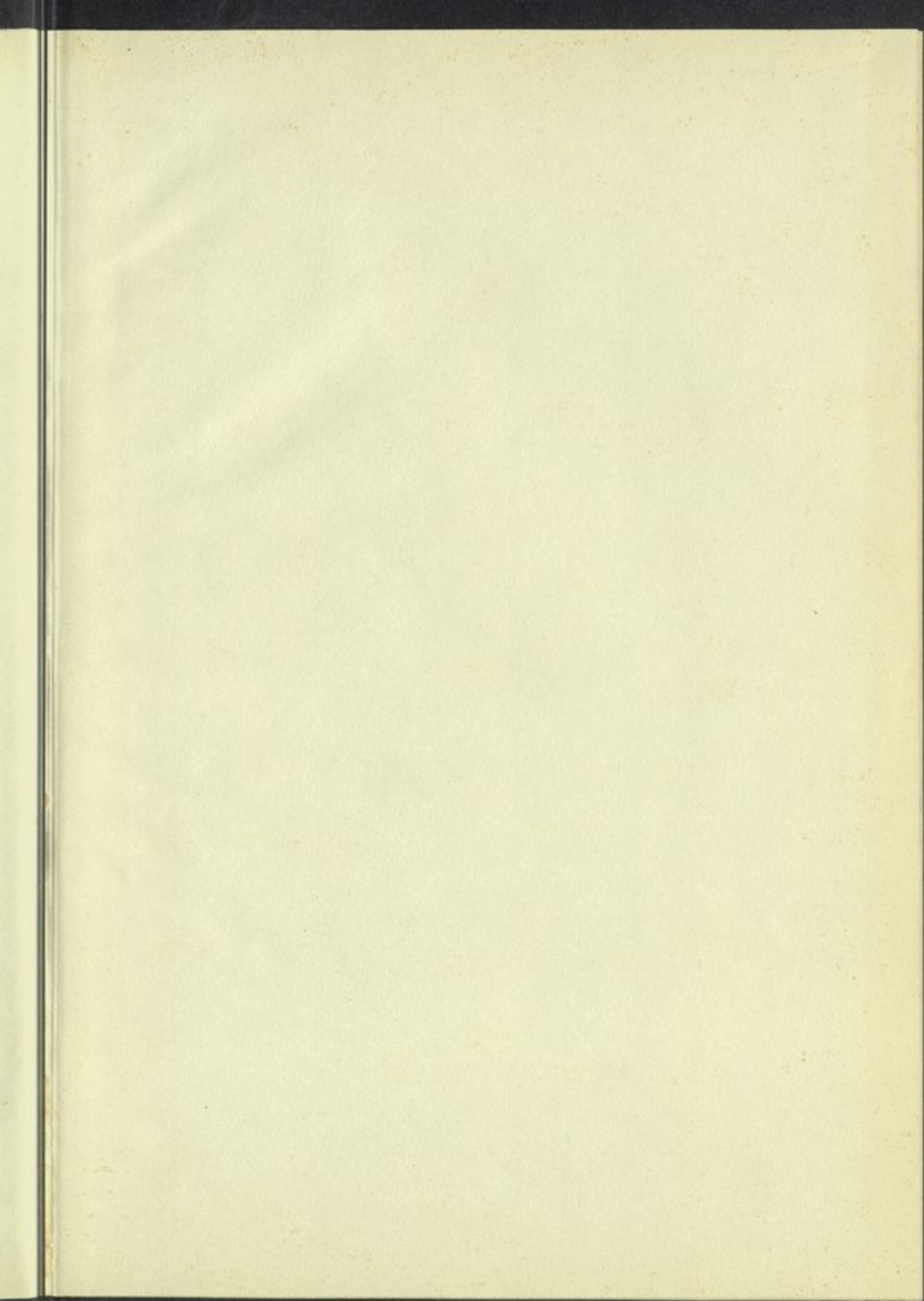
(18) ...

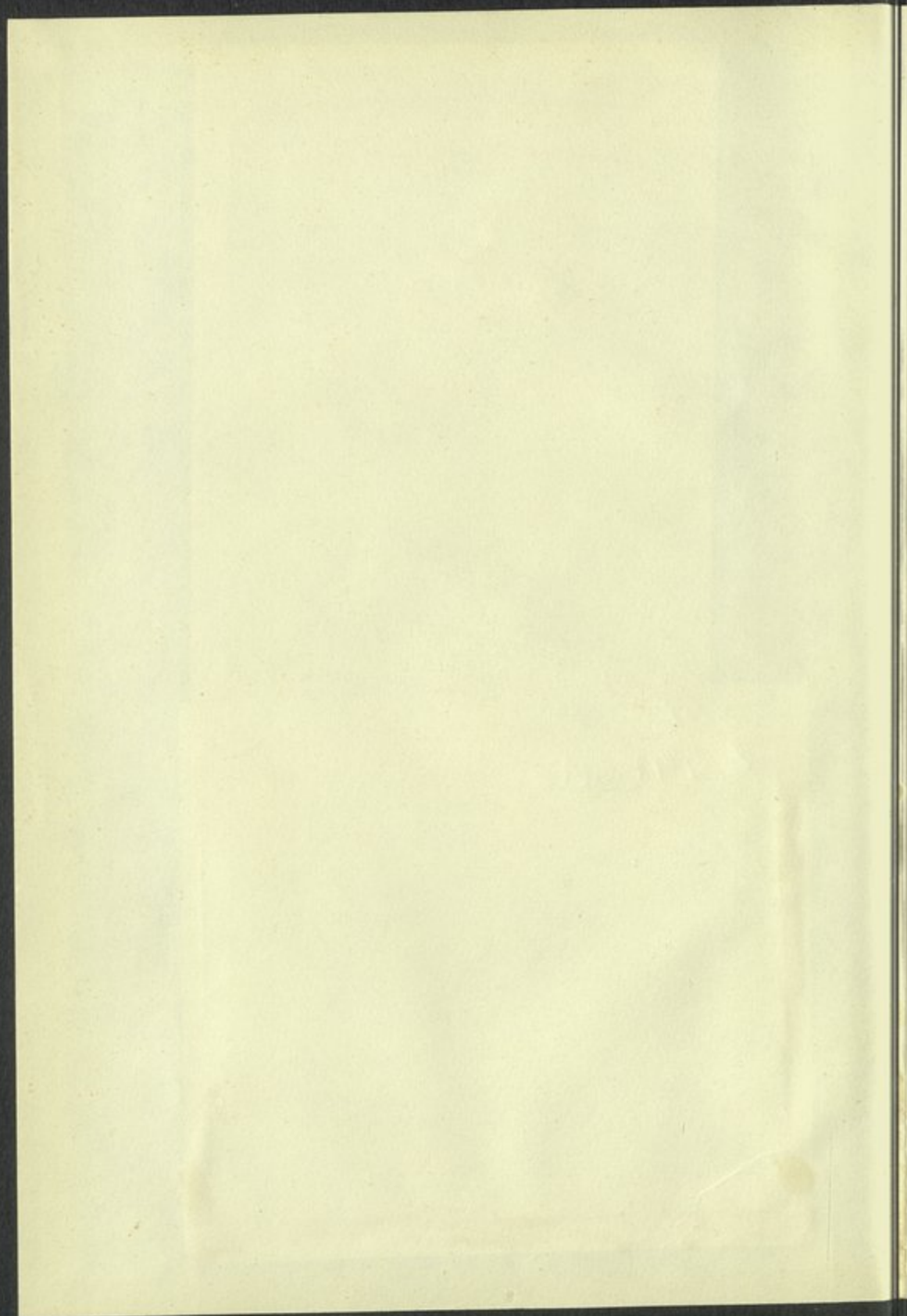
(19) ...

(20) ...

(21) ...







DATE DUE

[illegible]

JAFET LIB.

~~17 Feb 68~~

JAF 08 LIB.

9 - APR 1993

5 OCT 1986

8 MAY 1990

J. Lib

~~1 OCT 1989~~

AUB. LIBRARY

لوبيون، غوستاف

روح الجماعات

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011052

301
L447pztA

